كتاب أقسام القرآن المسمى بالتبيان للعلامة الاوحد الحافظ شمس الدين أبى عبد الله الدمشقى الحنبلى المعروف بابن القيم رحمه الله ونفعنا بعلومه آمين

ترجمة المؤلف رحمه الله

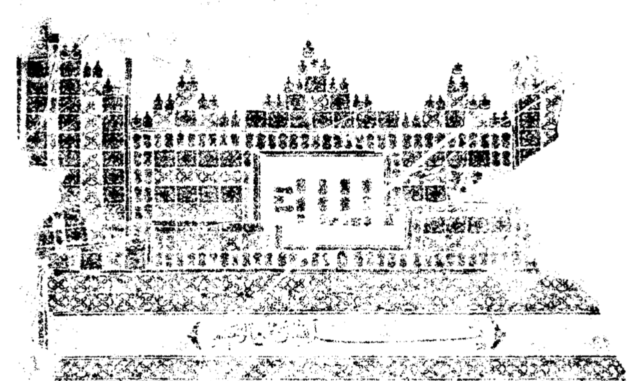
وهو العالم العلامة [illegible] الامام شيخ [illegible]سلام قدوة العلماء الاعلام نخبة الفد[illegible]
المكاشف لسير سيد المرسلين الواقف على سنن خاتم النبيين [illegible]
روح الحق واليقين خاتمة النقاد وحامل لواء الا[illegible] [illegible]سير [illegible]
الحديث والاثر ووارث [illegible] [illegible] محمد بن ابى بكر بن ايو[illegible]
ابن [illegible] شمس الدين ابن قيم الجوزية الدمشقى الحنبلى ولد سا[illegible]
[illegible] عدى وخمسين وستمائة وتوفى فى رجب سنة احدى وخمسين وسبعمائة
وقال الحافظ ابن كثير فى سيرته كان ملازما ليلا ونهارا لتلاوة القرآن والصلا[illegible]
حسن [illegible] ولا أعرف فى زماننا من أهل العلم أكثر عبادة منه
وكان يصين [illegible] هذا غذا [illegible]
لو لم أتغذه لسقطت قوادى رحمه الله و[illegible]

[illegible] قرآن) جمع قسم بمعنى اليمين جعله السيوطى نوعا من انواع علوم القرآن وتبعه صاحب مفتاح السعادة حيث أورده من فروع علم التفسير وقال صنف فيه ابن [illegible] مجلدا سماه التبيان اقسم الله تعالى بنفسه فى القرآن فى سبعة مواضع والباقى كله قسم [illegible] وقد اجابوا [illegible] بوجوه انتهى كشف الظنون من حرف الالف (وقال مؤلف [illegible]شف أيضا) فى حرف التاء التبيان فى أقسام القرآن لشمس الدين محمد بن أبى بكر المعروف بابن قيم الجوزية الدمشقى المتوفى سنة ٧٥١ احدى وخمسين وسبعمائة وهو فى مجلد جمع فيه ماورد بمعنى القسم والايمان وذكر الكلام عليها أوله الحمد لله رب العالمين

الطبعة الاولى

طبع بالمطبعة الميرية الكائنة بمكة المحمية

سنة ١٣٢١ هجريه



﴿ وبه أستعين الحمد لله رب العالمين ﴾

﴿ فصل في أقسام القرآن ﴾ وهو سبحانه يقسم بأمور على أمور وإنما يقسم بنفسه الموصوفة بصفاته وآياته المستلزمة لذاته وصفاته وإقسامه ببعض المخلوقات دليل على أنه من عظيم آياته فالقسم إما على جملة خبرية وهو الغالب كقوله تعالى فورب السماء والأرض إنه لحق وإما على جملة طلبية كقوله تعالى فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون مع أن هذا القسم قد يراد به تحقيق المقسم عليه فيكون من باب الخبر وقد يراد به تحقيق القسم والمقسم عليه يراد بالقسم توكيده وتحقيقه فلا بد أن يكون مما يحسن فيه ذلك كالأمور الغائبة والخفية إذا أقسم على ثبوتها فأما الأمور الظاهرة المشهورة كالشمس والقمر والليل والنهار والأرض فهذه يقسم بها ولا يقسم عليها وما أقسم عليه الرب فهو من آياته فيجوز أن يكون مقسما به ولا ينعكس وهو سبحانه يذكر جواب القسم تارة وهو الغالب وتارة يحذفه كما يحذف جواب لو كثيرا كقوله تعالى كلا لو تعلمون علم اليقين وقوله ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت ولو ترى إذ وقفوا على ربهم ومثل هذا حذفه من أحسن الكلام لأن المراد أنك لو رأيت ذلك لرأيت هولا عظيما فليس في ذكر الجواب زيادة على ما دل عليه الشرط وهذه عادة الناس في كلامهم إذا رأوا أمورا عجيبة وأرادوا أن يخبروا بها الغائب عنها يقول أحدهم لو رأيت ما جرى يوم كذا بموضع كذا ومنه قوله تعالى ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعا وأن الله شديد العذاب فالمعنى في أظهر الوجهين لو ترى الذين ظلموا

في الدنيا الذين يرون العذاب في الآخرة والجواب محذوف ثم قال أن القوة لله جميعا كما قال تعالى ولو ترى اذ فزعوا فلا فوت ولو ترى اذ يتوفى الذين كفروا الملائكة اي لو ترى ذلك الوقت وما فيه واما القسم فان الحالف قد يحلف على الشيء ثم يكرر القسم فلا يعيد المقسم عليه لانه قد عرف ما يحلف عليه فيقول والله ان لي عليه الف درهم ثم يقول ورب السموات والارض والذي نفسي بيده وحق القرآن العظيم ولا يعيد المقسم عليه لانه قد عرف المراد والقسم لما كان يكثر في الكلام اختصر فصار فعل القسم يحذف ويكتفي بالباء ثم عوض من الباء الواو في الاسماء الظاهرة وبالتاء في اسماء الله كقوله وتالله لاكيدن أصنامكم وقد نقل ترب الكعبة واما الواو فكثيرة

﴿ فصل ﴾ اذا عرف هذا فهو سبحانه يقسم على اصول الايمان التي يجب على الخلق معرفتها تارة يقسم على التوحيد وتارة يقسم على ان القرآن حق وتارة على ان الرسول حق وتارة على الجزاء والوعد والوعيد وتارة على حال الانسان فالاول كقوله والصافات صفا الى قوله ان الهكم لواحد والثاني كقوله فلا اقسم بمواقع النجوم الى قوله كريم وقوله حم والكتاب المبين انا انزلناه في ليلة مباركة وانا جعلناه قرآنا عربيا اذا جعل ذلك جواب القسم كما هو الظاهر وان قيل بل الجواب محذوف كان كقوله ص والقرآن ذي الذكر فانه هنا حذف الجواب ومن قال ان الجواب هو قوله ان ذلك لحق تخاصم أهل النار فقد ابعد النجعة والقسم على الرسول كقوله يس والقرآن الحكيم انك لمن المرسلين على صراط مستقيم اذا قيل هو الجواب وان قيل الجواب محذوف كان كما ذكر ومنه ن والقلم وما يسطرون ما انت بنعمة ربك بمجنون وان لك لاجرا غير ممنون ومنه والنجم اذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى الى آخر القصة ومنه قوله فلا اقسم بما تبصرون وما لا تبصرون انه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون الى قوله ذي قوة عند ذي العرش مكين وأما القسم على الجزاء والوعد والوعيد ففي مثل قوله والذاريات ذروا الى قوله انما توعدون لصادق وان الدين لواقع ثم ذكر تفصيل الجزاء وذكر الجنة والنار وذكر ان في السماء رزقهم وما يوعدون ثم قال فورب السماء والارض انه لحق مثل ما أنكم تنطقون ومثل قوله والمرسلات عرفا الى قوله انما توعدون لواقع ومثل والطور وكتاب مسطور الى قوله ماله من دافع وقد أمر نبيه أن يقسم على الجزاء والمعاد في ثلاث آيات فقال تعالى زعم الذين كفروا الى قوله لتبعثن وقال تعالى وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم وقال تعالى ويستنبئونك أحق هو قل اي وربي انه لحق وما أنتم بمعجزين وهذا لان المعاد انما يعلمه عامة الناس بأخبار الانبياء وان كان من الناس من قد يعلمه بالنظر وقد تنازع النظار في ذلك فقالت طائفة انه لا يمكن علمه الا بالسمع وهو الخبر وهو قول من لا يرى تعليل الافعال ويقولون لا ندري ما يفعل الله الا بعادة أو خبر كما يقوله جهم ومن اتبعه والاشعري واتباعه وكثير من أهل الكلام في الفقه والحديث من اتباع الائمة الاربعة بخلاف العلم بالصانع فان الناس متفقون على انه لا يعلم بالعقل وان كان ذلك مما نبهت الرسل عليه وصفاته قد تعلم بالعقل وتعلم بالسمع ايضا كما قد بسط في موضع آخر وأما القسم على أحوال الانسان فكقوله

والليل اذا يغشى والنهار اذا تجلى الى قوله ان سعيكم لشتى الآية ولفظ السعي هو العمل لكن يراد به العمل الذي يهتم به صاحبه ويجتهد فيه بحسب الامكان فان كان يفتقر الى عدو بدنه عدا وان كان يفتقر الى جمع أعوانه جمع وان كان يفتقر الى تفرغه وترك غيره فعل ذلك فلفظ السعي في القرآن جاء بهذا الاعتبار ليس هو مرادا فالاحظ الا لحظة لحظة بل هو عمل مخصوص يهتم به صاحبه ويجتهد فيه ولهذا قال في الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وهذه أحسن من قراءة من قرأ فامضوا الى ذكر الله وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال اذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها تسعون وأتوها تمشون وعليكم بالسكينة فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا فلم ينه عن السعي الى الصلاة فان الله أمر بالسعي اليها بل نهاهم أن يأتوا اليها يسعون فنهاهم عن الاتيان المتصف بسعي صاحبه والاتيان فعل البدن وسعيه عدو البدن وهو منهي عنه وأما السعي المأمور به في الآية فهو الذهاب اليها على وجه الاهتمام بها والتفرغ لها عن الاعمال الشاغلة من بيع وغيره والاقبال بالقلب على السعي اليها وكذلك قوله في قصة فرعون لما قال له موسى هل لك الى أن تزكى الى قوله ثم أدبر يسعى فحشر فنادى فهذا اهتمام واجتهاد في حشر رعيته ومناداته فيهم وكذلك قوله واذا تولى سعى في الارض ليفسد فيها هو عمل بهمة واجتهاد ومنه سمي الساعي على الصدقة والساعي على الارملة واليتيم ومنه قوله ان سعيكم لشتى وهو العمل الذي يقصده صاحبه ويعتني به ليترتب عليه ثواب أو عقاب بخلاف المباحات المعتادة فانها لم تدخل في هذا السعي قال تعالى فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى ومنه قوله تعالى ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن وقوله انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الارض فسادا

﴿ فصل ﴾ وأقسم على صفة الانسان بقوله والعاديات ضبحا الى قوله ان الانسان لربه لكنود وأقسم على طاعته وهو قسم على الجزاء في قوله والعصر الى قوله وتواصوا بالصبر وفي قوله والتين والزيتون وطور سينين الى قوله لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وحذف جواب القسم لانه قد علم بأنه يقسم على هذه الامور وهي متلازمة فتى ثبت أن الرسول حق ثبت القرآن والمعاد ومتى ثبت أن القرآن حق ثبت صدق الرسول الذي جاء به ومتى ثبت أن الوعد والوعيد حق ثبت صدق الرسول الذي جاء به ومتى ثبت أن الوعد والوعيد حق ثبت صدقه وصدق الكتاب الذي جاء به والجواب يحذف تارة ولا يراد ذكره بل يراد تعظيم المقسم به وانه مما يحلف به كقول النبي صلى الله عليه وسلم من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت ولكن هذا يذكر معه الفعل دون مجرد حرف القسم كقولك فلان يحلف بالله وحده وأنا أحلف بالخالق لا بالمخلوق ونحو ذلك والنصراني يحلف بالصليب والمسيح وفلان أكذب ما يكون اذا حلف بالله وقد يكون هذا النوع بحرف القسم مجردا كما في الحديث كانت أكثر يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ومقلب القلوب وكان بعض السلف اذا اجتهد في يمينه قال والله الذي لا اله الا هو وتارة يحذف الجواب وهو مراد اما لكونه قد ظهر وعرف اما بدلالة الحال

كمن قيل له كل فقل لا والله الذى لا اله الا هو أو بدلالة السياق وأكثر مايكون هذا اذا كان فى نفس المقسم به مايدل على المقسم عليه وهى طريقة القرآن فان المقصود يحصل بذكر المقسم به فيكون حذف المقسم عليه أبلغ وأوجز كمن أراد أن يقسم على أن الرسول حق فقال والذى أرسل محمدا بالهدى ودين الحق وأيده بالآيات البينات وأظهر دعوته وأعلى كلمته ونحو ذلك فلا يحتاج الى ذكر الجواب استغناء عنه بما فى القسم من الدلالة عليه كمن أراد أن يقسم على التوحيد وصفات الرب ونعوت جلاله فقال والله الذى لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة الرحمن الرحيم الاول الآخر الظاهر الباطن وكمن أراد أن يقسم على علوه فوق عرشه فقال والذى استوى على عرشه فوق سمواته يصعد اليه الكلم الطيب وترفع اليه الايدى وتعرج الملائكة والروح اليه ونحو ذلك وكذلك من حلف لشخص انه يحبه ويعظمه فقال والذى ملأ قلبي من محبتك واجلالك ومهابتك ونظائر ذلك لم يحتج الى جواب القسم وكان فى المقسم به مايدل على المقسم عليه فمن هذا قوله تعالى ص والقرآن ذى الذكر فان فى المقسم به من تعظيم القرآن ووصفه بأنه ذى الذكر المتضمن لتذكير العباد ما يحتاجون اليه وللشرف والقدر مايدل على المقسم عليه وكونه حقا من عند الله غير مفترى كما يقوله الكافرون وهذا معنى قول كثير من المفسرين متقدميهم ومتأخريهم ان الجواب محذوف تقديره ان القرآن لحق وهذا مطرد فى كل ماشأنه ذلك واما قول بعضهم ان الجواب قوله تعالى كم اهلكنا من قبلهم من قرن فاعترض بين القسم وجوابه بقوله بل الذين كفروا فى عزة وشقاق فبعيد لان كم لا يتلقى بها القسم فلا تقول والله كم انفقت مالا وبالله كم اعتقت عبدا ولكن لما لم يخف عليهم ذلك احتاجوا ان يقدروا واما يتلقى بها الجواب اى لكم اهلكنا وابعد من هذا قول من قال الجواب فى قوله ان كل الا كذب الرسل وابعد منه قول من قال الجواب ان هذا لرزقنا ماله من نفاد وابعد منه قول من قال الجواب قوله ان ذلك لحق تخاصم اهل النار واقرب ماقيل فى الجواب لفظا وان كان بعيدا معنى ماذكر عن قتادة وغيره ان فى قوله بل الذين كفروا كما قال ق والقرآن المجيد بل عجبوا ان جاءهم منذر منهم وشرح صاحب النظم هذا القول فقال معنى بل توكيد الخبر الذى بعد فصار كان الشديدة فى تثبيت مابعدها قيل ههنا بمنزلة ان لانه يؤكد مابعده من الخبر وان كان له معنى سواه فى نفى خبر متقدم فكأنه عز وجل قال ص والقرآن ذى الذكر ان الذين كفروا فى عزة وشقاق كما تقول والله ان زيدا لقائم قال واحتج صاحب هذا القول بأن هذا النظم وان لم يكن للعربية فيه أصل ولا لها فيه رسم فيحتمل أن يكون نظما أحدثه الله عز وجل لما بينا من احتمال بل بمعنى ان انتهى وقال أبو القاسم الزجاجى قال النحويون ان بل تقع فى جواب القسم كما تقع ان لان المراد بها توكيد الخبر وهذا القول اختيار أبى حاتم وحكاه الاخفش عن الكوفيين وقرره بعضهم بأن قال أصل الكلام بل الذين كفروا فى عزة وشقاق والقرآن ذى الذكر فلما قدم القسم ترك على حاله قال الاخفش وهذا يقوله الكوفيون وليس بجيد فى العربية لو قلت والله قام وأنت تريد قام والله لم يحسن وقال النحاس هذا خطأ على مذهب النحويين لانه اذا ابتدأ بالقسم وكان الكلام معتمدا عليه لم يكن بد من الجواب وأجمعوا انه لا يجوز والله قام عمرو بمعنى قام عمرو والله لان الكلام

يعتمد على القسم وذكر الاخفش وجها آخر في جواب القسم فقال يجوز ان يكون اصاد معنى يقع عليه القسم لاندرى نحن ماهو كأنه يقول الحق والله قال أبو الحسن الواحدى وهذا الذى قاله الاخفش صحيح المعنى على قول من يقول ص الصادق الله أو صدق محمد وذكر الفراء هذا الوجه أيضا فقال ص جواب القسم وقال هو كقولك وجب والله وترك والله فهى جواب لقوله والقرآن وذكر النحاس وغيره وجها آخر في الجواب وهو انه محذوف تقديره والقرآن ذى الذكر فالامر كما يقوله هؤلاء الكفار ودل على المحذوف قوله تعالى بل الذين كفروا وهذا اختيار ابن جرير وهو مخرج من قول قتادة وشرحه الجرجانى فقال بل رافع لخبر قبله ومثبت لخبر بعده فقد ظهر مابعده وظهر ماقبله وما بعده دليل على ماقبله فالظاهر يدل على الباطن فاذا كان كذلك وجب أن يكون قوله بل الذين كفروا فى عزة وشقاق مخالفا لهذا المضمر فكأنه قيل والقرآن ذى الذكر ان الذين كفروا يزعمون أنهم على الحق أو كل مافي هذا المعنى فهذه ستة أوجه سوى مابعدتناه فى جواب القسم والله أعلم ونظير هذا قوله تعالى ق والقرآن المجيد بل عجبوا وقيل جواب القسم قد علمنا وقال الفراء محذوف دل عليه قوله اذا متنا اى لتبعثن وقيل هو بل عجبوا كما تقدم بيانه

﴿ فصل ﴾ ومن ذلك قوله لا اقسم بيوم القيمة ولا اقسم بالنفس اللوامة فقد تضمن هذا الاقسام ثبوت الجزاء ومستحق الجزاء وذلك يتضمن اثبات الرسالة والقرآن والمعاد وهو سبحانه يقسم على هذه الامور الثلاثة ويقررها ابلغ التقرير لحاجة النفوس الى معرفتها والايمان بها وامر رسوله ان يقسم عليها كما قال تعالى ويستنبئونك احق هو قل اى وربى انه لحق وقال تعالى وقال الذين كفروا لاتأتينا الساعة قل بلى وربى لتأتينكم وقال تعالى زعم الذين كفروا ان لن يبعثوا قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير فهذه ثلاثة مواضع لارابع لها يأمر نبيه ان يقسم على ماأقسم عليه هو سبحانه من النبوة والقرآن والمعاد فاقسم سبحانه لعباده وامر أصدق خلقه ان يقسم لهم واقام البراهين القطعية على ثبوت مااقسم عليه فابى الظالمون الا جحودا وتكذيبا واختلف فى النفس المقسم بها ههنا هل هى خاصة أو عامة على قولين بناء على الاقوال الثلاثة فى اللوامة فقال ابن عباس كل نفس تلوم نفسها يوم القيامة يلوم المحسن نفسه ان لايكون ازداد احسانا ويلوم المسىء نفسه ان لايكون رجع عن اساءته واختاره الفراء قال ليس من نفس برة ولا فاجرة الا وهى تلوم نفسها ان كانت عملت خيرا قالت هلا ازددت خيرا وان كانت عملت سوء قالت ياليتنى لم أفعل والقول الثانى انها خاصة قال الحسن هى النفس المؤمنة وان المؤمن والله لاتراه الا يلوم نفسه على كل حال لانه يستقصرها فى كل ماتفعل فيندم ويلوم نفسه وان الفاجر يمضى قدما لايعاتب نفسه والقول الثالث أنها النفس الكافرة وحدها قاله قتادة ومقاتل وهى النفس الكافرة تلوم نفسها فى الآخرة على مافرطت فى امر الله قال شيخنا والاظهر ان المراد نفس الانسان مطلقا فان نفس كل انسان لوامة كما أقسم بجنس النفس فى قوله ونفس وماسواها فالهمها فجورها وتقواها فانه لابد لكل انسان ان يلوم نفسه أو غيره على امر ثم هذا اللوم قد يكون محمودا وقد يكون مذموما كما قال تعالى فاقبل بعضهم على بعض يتلاومون قالوا ياويلنا انا كنا طاغين قال تعالى

يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم فهذا اللوم غير محمود وفي الصحيحين في قصة احتجاج آدم وموسى اتلومني على امر قدره الله علي قبل ان اخلق فحج آدم موسى فهو سبحانه يقسم على صفة النفس اللوامة كقوله ان الانسان لربه لكنود وعلى جزئها كقوله فوربك لنسئلنهم اجمعين وعلى تباين عملها كقوله ان سعيكم لشتى وكل نفس لوامة فالنفس السعيدة تلوم على فعل الشر وترك الخير فتبادر الى التوبة والنفس الشقية بالضد من ذلك وجمع سبحانه في القسم بين محل الجزاء وهو يوم القيامة ومحل الكسب وهو النفس اللوامة ونبه سبحانه بكونها لوامة على شدة حاجتها وفاقتها وضرورتها الى من يعرفها الخير والشر ويدلها عليه ويرشدها اليه ويلهمها اياه فيجعلها مريدة للخير مرشدة له كارهة للشر مجانبة له لتخلص من اللوم ومن شر ما تلوم عليه ولانها متلومة مترددة لا تثبت على حال واحدة فهي محتاجة الى من يعرفها ما هو انفع لها في معاشها ومعادها فتؤثره وتلوم نفسها عليه اذا فاتها فتتوب منه ان كانت سعيدة ولتقوم عليها حجة عدله فيكون لومها في القيامة لنفسها عليه لوما بحق قد أعذر الله خالقها وفاطرها اليها فيه ففي صفة اللوم تنبيه على ضرورتها الى التصديق بالرسالة والقرآن وانها لا غنى لها عن ذلك ولا صلاح ولا فلاح بدونه البتة ولما كان يوم معادها هو محل ظهور هذا اللوم وترتب أثره عليه قرن بينهما في الذكر

❁ فصل ❁ ومن ذلك قوله تعالى والشمس وضحاها والقمر اذا تلاها والنهار اذا جلاها الى قوله فالهمها فجورها وتقواها قال الزجاج وغيره جواب القسم قد أفلح من زكاها ولما طال الكلام حسن حذف اللام من الجواب وقد تضمن هذا القسم الاقسام بالخلاق والمخلوق فاقسم بالسماء وبانيها والارض وطاحيها والنفس ومسويها وقد قيل ان ما مصدرية فيكون الاقسام بنفس فعله تعالى فيكون قد اقسم بالمصنوع الدال عليه وبصنعته الدالة على كمال علمه وقدرته وحكمته وتوحيده ولما كانت حركة الشمس والقمر والليل والنهار أمرا يشهد الناس حدوثه شيأ فشيأ ويعلمون ان الحادث لابد له من محدث كان العلم بذلك منزلا منزلة ذكر المحدث له لمطابقة بذكر الفاعل في الاقسام الاربعة ولهذا سلكت طائفة من النظار الاستدلال بالزمان على الصانع وهو استدلال صحيح قد نبه عليه القرآن في غير موضع كقوله ان في خلق السموات والارض لآيات لاولي الالباب ولما كانت السماء والارض ثابتتين حتى ظن من ظن انهما قديمتان ذكر مع الاقسام بهما بانيهما ومبدعهما وكذلك النفس فان حدوثها غير مشهور حتى ظن بعضهم قدمها فذكر مع الاقسام بها مسويها وفاطرها هنا مع ما في ذكر بناء السماء وطحو الارض وتسوية النفس من الدلالة على الرحمة والحكمة والعناية بالخلق فان بناء السماء يدل انها كالقبة العالية على الارض وجعلها سقفا لهذا العالم والطحو هو مد الارض وبسطها وتوسيعها ليستقر عليها الانام والحيوان ويمكن فيها البناء والغراس والزرع وهو متضمن لنضوب الماء عنها وهو مما حير عقول الطبائعيين حيث كان مقتضى الطبيعة ان يغمرها كثرة الماء فبروز جانب منها على الماء على خلاف مقتضى الطبيعة وكونه هذا الجانب المعين دون غيره مع استواء الجوانب في الشكل الكرى يقتضي تخصيصا فلم يجدوا بدا بان يقولوا عناية الصانع اقتضت ذلك فلنا فنعم اذا ولكن عناية من لا مشيئة له

ولا ارادة ولا اختيار ولا علم ومن أصلا كما تقولونه فيه محال منافيه تقتضي ثبوت صفات كماله ونعوت جلاله وأنه الفعال بفعل باختياره ما يريد وكذلك النفس اقسم بها وبمن سواها وألهمها فجورها وتقواها فان من الناس من يقول قديمة لا مبدع لها ومنهم من يقول بل هي التي تبدع فجورها وتقواها فذكر سبحانه أنه هو الذي سواها وابدعها وأنه هو الذي ألهمها الفجور والتقوى فاعلمنا أنه خالق نفوسنا واعمالها وذكر لفظ التسوية كما ذكره في قوله ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك وفي قوله فاذا سويته ونفخت فيه من روحي ابدانا بدخول البدن في لفظ النفس كقوله وهو الذي خلقكم من نفس واحدة وقوله فسلموا على أنفسكم ولا تقتلوا أنفسكم ولولا اذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا ونظائره وباجتماع الروح مع البدن تصير النفس فاجرة أو تقية والا فالروح بدون البدن لا فجور لها وقوله قد أفلح من زكاها الضمير مرفوع في زكاها عائد على من وكذلك هو في دساها والمعنى قد أفلح من زكى نفسه وقد خاب من دساها هذا هو القول الصحيح وهو نظير قوله قد أفلح من تزكى وهو سبحانه اذا ذكر الفلاح علقه بفعل المفلح كقوله قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون الى آخر الآيات وقوله الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون الى قوله أولئك هم المفلحون وقوله انما كان قول المؤمنين اذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم ان يقولوا سمعنا واطعنا وأولئك هم المفلحون ونظائره قال الحسن قد أفلح من زكى نفسه وحملها على طاعة الله وقد خاب من أهلكها وحملها على معصية الله وقاله قتادة وقال ابن قتيبة يريد أفلح من زكى نفسه أى نماها واعلاها بالطاعة والبر والصدقة واصطناع المعروف وقد خاب من دساها أى نقصها وأخفاها بترك عمل البر وركوب المعاصي والفاجر ابدا خفي المكان زمن المروءة غامض الشخص ناكس الرأس فكأن المتصف بارتكاب الفواحش دس نفسه وقمعها ومصطنع المعروف شهر نفسه ورفعها وكانت أجواد العرب تنزل الربى ويفاع الارض لتشهر أنفسها للمعتفين وتوقد النيران في الليل للطارقين وكانت اللئام تنزل الاولاج والاطراف والاهضام لتخفي اماكنها على الطالبين فأولئك أعلوا أنفسهم وزكوها وأولئك أخفوا أنفسهم ودسوها وأنشد

وبوئت بيتك في معلم ❊ رحيب المباحات والمسرح

كفيت العفاة طلاب القرا ❊ ونبح الكلاب لمستنبح

وقال أبو العباس سألت ابن الاعرابي عن قوله وقد خاب من دساها فقال دس معناه دس نفسه مع الصالحين وليس منهم وعلى هذا فالمعنى اخفى نفسه في الصالحين يرى الناس أنه منهم وهو منطو على غير ما ينطوي عليه الصالحون وقال طائفة أخرى الضمير يرجع الى الله سبحانه قال ابن عباس في رواية عطاء قد أفلحت نفس زكاها الله واصلحها وهذا قول مجاهد وعكرمة والكلبي وسعيد ابن جبير ومقاتل قالوا اسعدت نفس وأفلحت نفس أصلحها الله وطهرها ووفقها للطاعة حتى عملت بها وخابت وخسرت نفس اضلها الله واغواها وابطلها وأهلكها قال أرباب هذا القول قد اقسم الله بهذه الاشياء التي ذكرها لانها تدل على وحدانيته وعلى فلاح من طهره وخسارة من خذله حتى لا يظن أحد أنه هو الذي يتولى تطهير نفسه

واهلا كما بالمعصية من غير قدر سابق وقضاء متقدم قالوا وهذا أبلغ في التوحيد الذي سيقت له هذه السورة قالوا ويدل عليه قوله فألهمها فجورها وتقواها قالوا ويشهد له حديث نافع عن ابن عمر عن ابن أبي مليكة عن عائشة أنها قالت انتبهت نفسي ليلة فوجدت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول رب أعط نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها قالوا فهذا الدعاء هو تأويل الآية بدليل الحديث الآخر ان النبي صلى الله عليه وسلم كان اذا قرأ قد أفلح من زكاها وقف ثم قال اللهم آت نفسي تقواها أنت وليها ومولاها وزكها أنت خير من زكاها قالوا وفي هذا ما يبين ان الامر كله له سبحانه فانه هو خالق النفس وملهمها الفجور والتقوى وهو مزكيها ومدسيها فليس للعبد في الامر شيء ولا هو مالك من أمر نفسه شيئا قال أرباب القول الاول هذا القول وان كان جائزا في العربية حاملا للضمير المنصوب على معنى من وان كان لفظها مذكرا كما في قوله ومنهم من يستمعون اليك جمع الضمير وان كان لفظ من مفردا حملا على نظمها فهذا انما يحسن حيث لا يقع لبس في مفسر الضمائر وههنا قد تقدم لفظ من والضمير المرفوع في زكيها يستحقه لفظا ومعنى فهو أولى به ثم يعود الضمير المنصوب على النفس التي هي أولى به لفظا ومعنى فهذا هو النظم الطبيعي الذي يقتضيه سياق الكلام ووضعه وأما عود الضمير الذي يلي من على الموصول السابق وهو قوله وما سواها واخلى جاره الملاصق له وهو من ثم عود الضمير المنصوب وهو مؤنث على من ولفظه مذكر دون النفس المؤنثة فهذا يجوز لو لم يكن للكلام محمل غيره أحسن منه فاما اذا كان سياق الكلام ونظمه يقتضي خلافه ولم تدع الضرورة اليه فالحمل عليه ممتنع قالوا والقول الذي ذكرناه أرجح من جهة المعنى لوجوه أحدها ان فيه اشارة الى ما تقدم من تعليق الفلاح على فعل العبد واختياره كما هي طريقة القرآن الثاني أن فيه زيادة فائدة وهي اثبات فعل العبد وكسبه وما يثاب ويعاقب عليه وفي قوله فألهمها فجورها وتقواها اثبات القضاء والقدر السابق فتضمنت الآيتان هذين الاصلين العظيمين وهما كثيرا ما يقترنان في القرآن كقوله ان هذه تذكرة فمن شاء ذكره وما يذكرون الا أن يشاء الله وقوله لمن شاء منكم أن يستقيم وما تشاؤن الا أن يشاء الله رب العالمين فتضمنت الآيتان الرد على القدرية والجبرية الثالث ان قولنا يستلزم قولكم دون العكس فان العبد اذا زكى نفسه ودساها فانما يزكيها بعد تزكية الله لها بتوفيقه واعانته وانما يدسيها بعد تدسية الله لها بخذلانه والتخلية بينه وبين نفسه بخلاف ما اذا كان المعنى على القدر السابق المحض لم يبق للكسب وفعل العبد ههنا ذكر ألبتة

❁ فصل ❁ وذكر في هذه السورة ثمود دون غيرهم من الامم المكذبة فقال شيخنا هذا والله أعلم من باب التنبيه بالأدنى على الاعلى فانه لم يكن في الامم المكذبة أخف ذنبا وعذابا منهم اذ لم يذكر عنهم من الذنوب ما ذكر عن عاد ومدين وقوم لوط وغيرهم ولهذا لما ذكرهم وعادا قال فاما عاد فاستكبروا في الارض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة اولم يروا ان الله الذي خلقهم هو اشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون واما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى وكذلك اذا ذكرهم مع الامم المكذبة لم يذكر عنهم ما ذكر عن اولئك من التجبر والتكبر والاعمال السيئة كاللواط وبخس المكيال والميزان والفساد في الارض كما في سورة هود والشعراء

اوغيرهما فكان فى قوم لوط مع الشرك اتيان الفاحشة التى لم يسبقوا اليها وفى قوم عاد مع الشرك التجبر والتكبر والتوسع فى الدنيا وشدة البطش وقولهم من أشد منا قوة وفى أصحاب مدين مع الشرك الظلم فى الأموال وفى قوم فرعون مع الشرك الفساد فى الأرض والعلو وكان عذاب كل أمة بحسب ذنوبهم وجرائمهم فعذب قوم عاد بالريح الشديدة العاتية التى لايقوم لها شئ وعذب قوم لوط بانواع العذاب لم يعذب بها امة غيرهم فجمع لهم بين الهلاك والرجم بالحجارة من السماء وطمس الأبصار وقلب ديارهم عليهم بأن جعل عاليها سافلها والخسف بهم الى اسفل سافلين وعذب قوم شعيب بالنار التى أحرقتهم واحترقت تلك الأموال التى اكتسبوها بالظلم والعدوان واما ثمود فاهلكوا بالصيحة فماتوا فى الحال فاذا كان عذاب هؤلاء وذنبهم مع الشرك عقر الناقة التى جعلها الله آية لهم فمن انتهك محارم الله واستخف باوامره ونواهيه وعقر عباده وسفك دماءهم كان أشد عذابا ومن اعتبر احوال العالم قديما وحديثا ومايعاقب به من سعى فى الأرض الفساد وسفك الدماء بغير حق واقام الفتن واستهان بحرمات الله علم أن النجاة فى الدنيا والآخرة للذين آمنوا وكانوا يتقون قلت وقد يظهر فى تخصيص ثمود هنا بالذكر دون غيرهم معنى آخر وهو انهم ردوا الهدى بعدما تيقنوه وكانوا مستبصرين به قد ثلجت له صدورهم واستيقظت له أنفسهم فاختاروا عليه العمى والضلالة كما قال تعالى فى وصفهم وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى وقال وآتينا ثمود الناقة مبصرة أى موجبة لهم التبصرة واليقين وان كان جميع الامم المهلكة هذا شأنهم فان الله لم يهلك أمة الابعد قيام الحجة عليها لكن خصت ثمود من ذلك الهدى والبصيرة بمزيد ولهذا لما قرنهم بقوم عاد قال فاما عاد فاستكبروا فى الارض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة ثم قال فاما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ولهذا أمكن عاد المكابرة وان يقولوا لنبيهم ماجئتنا ببينة ولم يمكن ذلك ثمود وقدرأوا البينة عيانا وصارت لهم بمنزلة رؤية الشمس والقمر فردوا الهدى بعد تيقنه والبصيرة التامة فكان فى تخصيصهم بالذكر تحذير لكل من عرف الحق ولم يتبعه وهذا داء أكثر الهالكين وهو اعم الادواء واغلبها على أهل الارض والله أعلم

﴿ فصل ﴾ ومن ذلك قوله تعالى والفجر وليال عشر والشفع والوتر والليل اذا يسر هل فى ذلك قسم لذى حجر قيل جوابه ان ربك لبالمرصاد وهذا ضعيف لوجهين أحدهما طول الكلام والفصل بين القسم وجوابه بجمل كثيرة والثانى قوله ان ربك لبالمرصاد ذكر تقرير عقوبة الله الامم المذكورة وهى عاد وثمود وفرعون فذكر عقوبتهم ثم قال مقررا ومحذرا ان ربك لبالمرصاد فلا ترى تعلقه بذلك دون القسم واحسن من هذا أن يقال ان الفجر فى الليالى العشر زمن يتضمن افعالا معظمة من المناسك وأمكنة معظمة وهى محلها وذلك من شعائر الله المتضمنة خضوع العبد لربه فان الحج والنسك عبودية محضة لله وذل وخضوع لعظمته وذلك ضد ماوصف به عادا وثمودا وفرعون من العتو والتكبر والتجبر فان النسك يتضمن غاية الخضوع لله وهؤلاء الامم عتوا وتكبروا عن أمر ربهم وفى صحيح البخارى عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال مامن ايام العمل الصالح فيهن أحب الى الله من

هذه الايام العشر قيل يارسول الله ولا الجهاد في سبيل الله قال ولا الجهاد في سبيل الله الا رجل خرج بنفسه وماله لم يرجع من ذلك بشيء فالزمان المتضمن لمثل هذه الاعمال أهل ان يقسم الرب عز وجل به والفجر ان أريد به جنس الفجر كما هو ظاهر اللفظ فانه يتضمن وقت صلاة الصبح التي هي أول الصلوات فافتتح القسم بما يتضمن أول الصلوات وختمه بقوله والليل اذا يسر المتضمن لآخر الصلوات وان أريد بالفجر فجر مخصوص فهو فجر يوم النحر وليلته التي هي ليلة عرفة فتلك الليلة من أفضل ليالي العام وما رؤى الشيطان في ليلة ادحر ولا احقر ولا اغيظ منه فيها وذلك الفجر فجر يوم النحر الذي هو أفضل الايام عند الله كما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال أفضل الايام عند الله يوم النحر رواه أبو داود باسناد صحيح وهو آخر ايام العشر وهو يوم الحج الاكبر كما ثبت في صحيح البخاري وغيره وهو اليوم الذي اذن فيه مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله بريء من المشركين ورسوله وان لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ولا خلاف ان المؤذن اذن بذلك في يوم النحر لا يوم عرفة وذلك بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم امتثالا وتأويلا للقرآن وعلى هذا فقد تضمن القسم المناسك والصلوات وهما المختصان بعبادة الله والخضوع له والتواضع لعظمته ولهذا قال الخليل ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين وقيل لخاتم الرسل فصل لربك وانحر بخلاف حال المشركين المتكبرين الذين لا يعبدون الله وحده بل يشركون به ويستكبرون عن عبادته كحال من ذكر في هذه السورة من قوم عاد وثمود وفرعون وذكر سبحانه من جملة هذه الاقسام الشفع والوتر اذ هذه الشعائر المعظمة منها شفع ومنها وتر في الامكنة والازمنة والاعمال فالصفا والمروة شفع والبيت وتر والجمرات وتر ومنى ومزدلفة شفع وعرفة وتر وأما الاعمال فالطواف وتر وركعتاه شفع والطواف بين الصفا والمروة وتر ورمي الجمار وتر كل ذلك سبع سبع وهو الاصل فان الله وتر يحب الوتر والصلاة منها شفع ومنها وتر والوتر يوتر الشفع فتكون كلها وترا كما قال النبي صلى الله عليه وسلم صلاة الليل مثنى مثنى فاذا خشيت الصبح فاوتر بواحدة توتر لك ما قد صليت وأما الزمان فان يوم عرفة وتر ويوم النحر شفع وهذا قول أكثر المفسرين وروى مجاهد عن ابن عباس الوتر آدم وشفع بزوجته حواء وقال في رواية أخرى الشفع آدم وحواء والوتر الله وحده وعنه رواية ثالثة الشفع يوم النحر والوتر اليوم الثالث وقال عمران بن حصين وقتادة الشفع والوتر هي الصلاة وروى فيه حديثا مرفوعا وقال عطية العوفي الشفع الخلق قال الله تعالى وخلقناكم أزواجا والوتر هو الله وهذا قول الحكم قال كل شيء شفع والله وتر وقال ابو صالح خلق الله من كل شيء زوجين اثنين والله وتر واحد وهذا قول مجاهد ومسروق وقال الحسن الشفع والوتر العدد كله من شفع ووتر وقال ابن زيد الشفع والوتر الخلق كله من شفع ووتر قال مقاتل الشفع الأيام والليالي والوتر اليوم الذي لا ليلة بعده وهو يوم القيامة وذكرت أقوال أخر هذه أصولها ومدارها كلها على قولين أحدهما أن الشفع والوتر نوعان للمخلوقات والمأمورات والثاني أن الوتر الخالق والشفع المخلوق وعلى هذا القول فيكون قد جمع في القسم بين الخالق والمخلوق فهو نظير ما تقدم في قوله والشمس

وضحاها ونظير ماذكر فى قوله وشاهدومشهود وماذكر فى قوله والليل اذا يغشى والنهار اذا تجلى وماخلق الذكر والانثى وقال ههنا والليل اذا يسر وفى سورة المدثر أقسم بالليل اذا أدبر وفى سورة التكوير أقسم بالليل اذا عسعس وقد فسر بأقبل وفسر بأدبر فان كان المراد اقباله فقد أقسم بأحوال الليل الثلاثة وهى حالة اقباله وحالة امتداده وسريانه وحالة ادباره وهى من آياته الدالة عليه سبحانه وعرف الفجر باللام اذ كل أحد يعرفه ونكر الليالى العشر لانها انما تعرف بالعلم وأيضا فان التنكير تعظيم لها فان التنكير يكون للتعظيم وفى تعريف الفجر مايدل على شهرته وأنه الفجر الذى يعرفه كل أحد ولا يجهله فلما تضمن هذا القسم ماجاء به ابراهيم ومحمد صلى الله عليه وسلم كان فى ذلك مادل على المقسم عليه ولهذا اعتبر القسم بقوله تعالى هل فى ذلك قسم لذى حجر فان عظمة هذا المقسم به يعرف بالنبوة وذلك يحتاج الى حجر يحجز صاحبه عن الغفلة واتباع الهوى ويحمله على اتباع الرسل لئلا يصيبه ماأصاب من كذب الرسل كعاد وفرعون وثمود ولما تضمن ذلك مدح الخاضعين والمتواضعين ذكر حال المستكبرين المتجبرين الطاغين ثم أخبر انه صب عليهم عذاب ونكره اما للتعظيم واما لان يسيرا من عذابه استأصلهم وأهلكهم ولم يكن معه بقاء ولا ثبات ثم ذكر حال الموسع عليهم فى الدنيا والمقتر عليهم وأخبر ان توسعته على من وسع عليه وان كان اكراما له فى الدنيا فليس ذلك اكراما على الحقيقة ولايدل على أنه كريم عنده من أهل كرامته ومحبته وأن تقتيره على من قتر عليه لايدل على اهانته له وسقوط منزلته عنده بل يوسع ابتلاء وامتحانا ويقتر ابتلاء وامتحانا فيبتلى بالنعم كما يبتلى بالمصائب وسبحانه هو يبتلى عبده بنعمة تجلب له نقمة وبنعمة تجلب له نعمة وبنعمة تجلب له نقمة أخرى وبنعمة تجلب له نقمة أخرى فهذا شأن نعمه ونقمه سبحانه وتضمنت هذه السورة ذم من اغتر بقوته وسلطانه وماله وهم هؤلاء الامم الثلاثة قوم عاد اغتروا بقوتهم وثمود اغتروا بجنانهم وعيونهم وزروعهم وبساتينهم وقوم اغتروا بالمال والرياسة فصارت عاقبتهم الى ماقص الله علينا وهذا شأنه دائما مع كل من اغتر بشئ من ذلك لابد أن يفسده عليه ويسلبه اياه ثم ذكر سبحانه حال الانسان فى معاملته لمن هو اضعف منه كاليتيم والمسكين فلا يكرم هذا ولا يحض على اطعام هذا ثم ذكر حرصه على جمع المال واكله وحبه له وذلك هو الذى اوجب له عدم رحمته لليتيم والمسكين ثم ختم السورة بمدح النفس المطمئنة وهى الخاشعة المتواضعة لربها وماتؤل اليه من كرامته ورحمته كما ذكر قبلها حال النفس الامارة وماتؤل اليه من شدة عذابه ووثاقه

﴿ فصل ﴾ وأما سورة لاأقسم بهذا البلد فذكر فيها جواب القسم وهو قوله لقد خلقنا الانسان فى كبد وفسر الكبد بالاستوى وانتصاب القامة قال ابن عباس فى رواية مقسم منتصبا على قدميه وهذا قول ابى صالح والضحاك وابراهيم وعكرمة وعبدالله بن شداد قال المنذر سمعت ابا طالب يقول الكبد الاستوى والاستقامة وفسر بالنصب هذا قول مجاهد وسعيد بن جبير والحسن ورواية عن على عن ابن عباس قال الحسن لم يخلق الله خلقا يكابد مايكابد ابن آدم وقال سعيد بن أبى الحسن يكابد مصائب الدنيا وشدائد الآخرة وقال قتادة

يكابد امر الدنيا والآخرة فلا تلقاه الا في مشقة وروى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال يعنى حمله وولادته ورضاعه وفصاله ونبت اسنانه وحياته ومعاشه ومماته كل ذلك شدة قال مجاهد حملته امه كرها ووضعته كرها ومعيشته في شدة فهو يكابد ذلك وعلى هذا الكبد من مكابدة الامر وهى معاناة شدته ومشقته والرجل يكابد الليل اذا قاسى هوله وصعوبته والكبد شدة الامر ومنه تكبد اللبن اذا غلظ واشتد ومنه الكبد لانها دم يغلظ ويشتد وانتصاب القامة والاستوى من ذلك لانه انما يكون عن قوة وشدة فان الانسان مخلوق في شدة بكونه في الرحم ثم في القماط والرباط ثم هو على خطر عظيم عند بلوغه حال التكليف ومكابدة المعيشة والامر والنهى ثم مكابدة الموت ومابعده في البرزخ وموقف القيامة ثم مكابدة العذاب في النار ولا راحة له الا في الجنة وفسر الكبد بشدة الخلق واحكامه وقوته ومنه قول لبيد

عين هلا بكيت أربد * اذ قمنا وقام الخصوم في كبد

اى في شدة وعناء وهذا يشبه قوله تعالى نحن خلقناهم وشددنا أسرهم قال ابن عباس اى خلقهم وقال أبو عبيدة الاسر شدة الخلق يقال فرس شديد الاسر قال وكل شيء شددته من قتب اوغيره فهو مأسور وقال المبرد الاسر القوى كلها وقال الليث الاسر قوة المفاصل والاوصال وشد الله أسر فلان اى قوى خلقه وكل شيء جمع طرفاهما فشد احدهما بالآخر فقد اسر وقال الحسن شددنا اوصالهم بعضهم الى بعض بالعروق والعصب وقال مجاهد هو الشرج يعنى موضع البول والغائط اذا خرج الاذى تقبضا والمقصود انه سبحانه اقسم في سورة البلد على حال الانسان وأقسم سبحانه بالبلد الامين وهو مكة ام القرى ثم أقسم بالوالد وماولد وهو آدم وذريته في قول جمهور المفسرين وعلى هذا فقد تضمن القسم اصل المكان واصل السكان فرجع البلاد الى مكة ومرجع العباد الى آدم وقوله وانت حل بهذا البلد فيه قولان احدهما أنه من الاحلال وهو ضد الاحرام والثانى انه من الحلول وهو ضد الظعن فان اريد به المعنى الاول فهو حال ساكن البلد بخلاف المحرم الذى يحج ويعتمر ويرجع ولان امنه انما تظهر به النعمة عند الحل من الاحرام والا ففي حال الاحرام هو في امان والحرمة هناك للفعل لا للمكان والمقصود هو ذكر حرمة المكان وهى انما تظهر بحال الحلال الذى لم يتلبس بما يقتضى امنه ولكن على هذا ففيه تنبيه فانه اذا أقسم به وفيه الحلال فاذا كان فيه الحرام فهو أولى بالتعظيم والامن وكذلك اذا أريد المعنى الثانى وهو الحلول فهو متضمن لهذا التعظيم مع تضمنه بامر آخر وهو اقسام بلده المشتمل على رسوله وعبده فهو خير البقاع وقد اشتمل على خير العباد فجعل بيته هدى للناس ونبيه اماما وهاديا لهم وذلك من أعظم نعمه واحسانه الى خلقه كما هو أعظم آياته ودلائل وحدانيته وربوبيته فمن اعتبر حال بيته وحال نبيه وجد ذلك من أظهر أدلة التوحيد والربوبية وفي الآية قول ثالث وهو ان المعنى وأنت مستحل قتلك واخراجك من هذا البلد الامين الذى يأمن فيه الطير والوحش والجانى وقد استحل قومك فيه حرمتك وهم لا يعضدون به شجرة ولا ينفرون به صيدا وهذا مروى عن شرحبيل بن سعد وعلى كل حال فهى جملة اعتراض في أثناء القسم موقعها من أحسن موقع وألطفه فهذا القسم متضمن لتعظيم بيته ورسوله ثم انكر سبحانه على الانسان ظنه وحسبانه ان لن يقدر عليه من خلقه في هذا الكبد والشدة والقوة

التي يكابدها الامور فان الذي خلقه كذلك أولى بالقدرة منه وأحق فكيف يقدر غيره من لم يكن قادرا في نفسه فهذا برهان مستقل بنفسه مع انه متضمن للجزاء الذي مناطه القدرة والعلم فنبه على ذلك بقوله أيحسب أن لن يقدر عليه احد وبقوله أيحسب أن لم يره أحد فيحصي عليه ماعمل من خير وشر ولا يقدر عليه فيجازيه بما يستحقه ثم انكر سبحانه على الانسان قوله أهلكت مالا لبدا وهو الكثير الذي يلبد بعضه فوق بعض فافتخر هذا الانسان باهلاكه وانفاقه في غير وجهه اذ لو أنفقه في وجوهه التي أمر بانفاقه فيها ومنه مواضعه لم يكن ذلك اهلاكا له بل تقربا به الى الله وتوصلا به الى رضاه وثوابه وذلك ليس باهلاك له فانكر سبحانه افتخاره وتبجحه بانفاق المال في شهواته واغراضه التي انفاقه فيها اهلاك له ثم وبخه سبحانه بقوله أيحسب ان لم يره أحد وأتى ههنا بلم الدالة على المضي في مقابلة قوله أهلكت مالا لبدا فان ذلك في الماضي أفيحسب أن لم يره أحد في انفاقه وفي اهلاكه ثم ذكر برهانا مقدرا انه سبحانه أحق بالرؤية وأولى من هذا العبد الذي له عينان يبصر بهما فكيف يعطيه البصر من لم يره وكيف يعطيه آلة البيان من الشفتين واللسان فينطق ويبين عما في نفسه ويأمر وينهى من لا يتكلم ولا يخاطب ولا يأمر ولا ينهى وهل كمال المخلوق مستفاد الامن كمال خالقه ومن جعل غيره عالما بنجدي الخير والشر وهما طريقاهما أولى وأحق بالعلم منه ومن هداه الى هذين الطريقين وكيف يليق به ان يتركه سدى لا يعرفه مايضره وماينفعه في معاشه ومعاده وهل النبوة والرسالة الا تكميل هداية النجدين فدل هذا كله على اثبات الخالق وصفات كماله وصدق رسله ووعده ووعيده وهذه اصول الايمان التي اتفقت عليها جميع الرسل من اولهم الى آخرهم اذا تأمل الانسان حاله وخلقه وجده من اعظم الادلة على صحتها وثبوتها فتكفي الانسان فكرته في نفسه وخلقه والرسل بعثوا مذكرين بما في الفطر والعقول مكملين له لتقوم على العبد حجة الله بفطرته ورسالته ومع هذا فقامت عليه حجته ولم يقتحم العقبة التي بينه وبين ربه التي لا يصل اليها حتى يقتحمها بالاحسان الى خلقه بفك الرقبة وهو تخليصها من الرق ليخلصه الله من رق نفسه ورق عدوه واطعام اليتيم والمسكين في يوم المجاعة وبالاخلاص له سبحانه بالايمان الذي هو خالص حقه عليه وهو تصديق خبره وطاعة امره وابتغاء وجهه وبنصيحة غيره ان يوصيه بالبر والرحمة ويقبل وصية من اوصاه بها فيكون صابرا رحيما في نفسه معينا لغيره على الصبر والرحمة فلم يقتحم هذه العقبة وهلك دونها هلك منقطعا عن ربه غير واصل اليه بل محجوبا عنه والناس قسمان ناج وهم من قطع العقبة وصار وراءها وهالك وهو من دون العقبة وهم اكثر الخلق ولا يقتحم هذه العقبة الا المضمرون فانها عقبة كؤود شاقة لا يقطعها الا خفيف الظهر وهم اصحاب الميمنة والهالك دون العقبة الذين لم يصدقوا الخبر ولم يطيعوا الامر فهم اصحاب المشأمة عليهم نار مؤصدة قد اطبقت عليهم فلا يستطيعون الخروج منها كما أطبقت عليهم اعمال الغي والاعتقادات الباطلة المنافية لما اخبرت به رسله فلم تخرج قلوبهم منها كذلك اطبقت عليهم هذه النار فلم تستطع اجسامهم الخروج فتأمل هذه السورة على اختصارها وما اشتملت عليه من مطالب العلم والايمان وبالله التوفيق وايضا فان طريقة القرآن بذكر العلم والقدرة تهديدا وتخويفا

(لترتب)

الترتب الجزاء عليهما كما قال تعالى قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا وقوله تعالى ارأيت الذي ينهى عبدا اذا صلى الى قوله ألم يعلم بأن الله يرى وقوله تعالى وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وقال ام يحسبون انا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون وهذا كثير جدا في القرآن وليس المراد به مجرد الاخبار بالقدرة والعلم لكن الاخبار مع ذلك بما يترتب عليهما من الجزاء بالعدل فانه اذا كان قادرا امكن مجازاته واذا كان عالما امكن ذلك بالقسط والعدل ومن لم يكن قادرا لم يمكن مجازاته واذا كان قادرا لكنه غير عالم بتفاصيل الاعمال ومقادير جزاء هالم يجاز بالعدل والرب تعالى موصوف بكمال القدرة وكمال العلم فالجزاء منه موقوف على مجرد مشيئته وارادته فحينئذ يجب على العاقل ان يطلب النجاة منه بالاخلاص والاحسان فهو اقتحام العقبة المتضمن للتوبة الى الله تعالى والاحسان الى خلقه وقال فلا اقتحم العقبة وهو فعل ماض ولم يكرر معه لا اما استعمالا لاداة لا كاستعمال ما واما اجراء لهذا الفعل مجرى الدعاء نحو فلا سلم ولا عاش ونحو ذلك واما لان العقبة قد فسرت بمجموع امور فاقتحامها فعل كل واحد منها فأغنى ذلك عن تكريرها فكأنه قال فلا فك رقبة ولا أطعم ولا كان من الذين آمنوا وقراءة من قرأ فك رقبة بالفعل كأنها أرجح من قراءة من قرأها بالمصدر لان قوله وما أدراك ما العقبة على حد قوله وما أدراك ما الحاقة وما أدراك ما يوم الدين وما أدراك ماهيه نار حاميه ونظائره تعظيما لشأن العقبة وتفخيما لامرها وهي جملة اعتراض بين المفسر والمفسر فان قوله فك رقبة أو اطعام الى قوله ثم كان من الذين آمنوا تفسير لاقتحام العقبة وليس هو تفسيرا لنفس العقبة فان العقبة مكان شاق كؤد يقتحمه الناس حتى يصلوا الى الجنة واقتحامه بفعل هذه الامور فمن فعلها فقد اقتحم العقبة ويدل على ذلك قوله تعالى ثم كان من الذين آمنوا وهذا عطف على قوله فك رقبة والاحسن تناسب هذه الجمل المعطوفة التي هي تفسير لما ذكر أولا وأيضا فان من قرأها بالمصدر المضاف فلا بد له من تقدير وهو وما أدراك ما اقتحام العقبة واقتحامها فك رقبة وأيضا فمن قرأها بالفعل فقد طابق بين المفسر وما فسره ومن قرأها بالمصدر فقد طابق بين المفسر وبعض ما فسره فان التفسير ان كان لقوله اقتحم طابقه بقوله ثم كان من الذين آمنوا وما بعده دون فك رقبة وما يليه وان كان لقوله العقبة طابقه فك رقبة واطعام دون قوله ثم كان من الذين آمنوا وما بعده وان كانت المطابقة حاصلة معنى فحصولها لفظا ومعنى أتم وأحسن واختلف في هذه العقبة هل هي في الدنيا أو في الآخرة فقالت طائفة العقبة ههنا مثل ضربه الله تعالى لمجاهدة النفس والشيطان في أعمال البر وحكوا ذلك عن الحسن ومقاتل قال الحسن عقبة والله شديدة مجاهدة الانسان نفسه وهواه وعدوه والشيطان وقال مقاتل هذا مثل ضربه الله يريد ان المعتق رقبة والمطعم اليتيم والمسكين يقاحم نفسه وشيطانه مثل أن يتكلف صعود العقبة فشبه المعتق رقبة في شدته عليه بالمكلف صعود العقبة وهذا قول أبي عبيدة وقالت طائفة بل هي عقبة حقيقة يصعدها الناس قال عطاء هي عقبة جهنم وقال الكلبي هي عقبة بين الجنة والنار وهذا قول مقاتل انها عقبة جهنم وقال مجاهد والضحاك هي الصراط يضرب على جهنم وهذا الله قول الكلبي وقول هؤلاء أصح نظرا وأثرا ولغة قال قتادة فانها عقبة شديدة فاقتحموها بطاعة الله وفي اثر معروف ان بين ايديكم

عقبة كؤودا لايقتحمها الا المخفون أو نحو هذا وان الله سمى الايمان به وفعل ما أمر وترك ما نهى عقبة فكثيرا ما يقع في كلام السلف الوصية بالتضمن لاقتحام العقبة وقال بعض الصحابة وقد حضره الموت فجعل يبكي ويقول مالي لا أبكي وبين يدي عقبة كؤود أهبط منها اما الى جنة واما الى نار فهذا القول أقرب الى الحقيقة والآثار السلفية والمألوف من عادة القرآن في استعماله وما أدراك في الامور الغائبة العظيمة كما تقدم والله أعلم

﴿ فصل ﴾ ومن ذلك اقسامه بالتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الامين فأقسم سبحانه بهذه الامكنة الثلاثة العظيمة التي هي مظاهر انبيائه ورسله أصحاب الشرائع العظام والامم الكثيرة فالتين والزيتون المراد به نفس الشجرتين المعروفتين ومنبتهما وهو أرض بيت المقدس فانها أكثر البقاع زيتونا وتينا وقد قال جماعة من المفسرين انه سبحانه اقسم بهذين النوعين من الثمار لمكان العزة فيهما فان التين فاكهة خالصة من شوائب التنغيص لاعجم له وهو على مقدار اللقمة وهو فاكهة وقوت وغذاء وأدم ويدخل في الادوية ومزاجه من اعدل الامزجة وطبعه طبع الحياة الحرارة والرطوبة وشكله من أحسن الاشكال ويدخل أكله والنظر اليه في باب المفرحات وله لذة يمتاز بها عن سائر الفواكه ويزيد في القوة ويوافق الباءة وينفع من البواسير والنقرس ويؤكل رطبا ويابسا وأما الزيتون ففيه من الآيات ما هو ظاهر لمن اعتبر فان عوده يخرج ثمرا يعصر منه هذا الدهن الذي هو مادة النور وصبغ الآكلين وطيب ودواء وفيه من مصالح الخلق ما لايخفى وشجره باق على ممر السنين المتطاولة وورقه لايسقط وهذا الذي قالوه حق ولا ينافي أن يكون منبته مرادا فان منبت هاتين الشجرتين حقيق بأن يكون من جملة البقاع الفاضلة الشريفة فيكون الاقسام قد تناول الشجرتين ومنبتهما وهو مظهر عبد الله ورسوله وكلمته وروحه عيسى ابن مريم كما ان طور سينين مظهر عبده ورسوله وكليمه موسى فان الجبل الذي كلمه عليه وناجاه وأرسله الى فرعون وقومه ثم اقسم بالبلد الامين وهو مكة مظهر خاتم انبيائه ورسله سيد ولد آدم وترقى في هذا القسم من الفاضل الى الافضل فبدأ بموضع مظهر المسيح ثم ثنى بموضع مظهر الكليم ثم ختمه بموضع مظهر عبده ورسوله وأكرم الخلق عليه ونظير هذا بعينه في التوراة التي انزلها الله على كليمه موسى جاء الله من طور سينا وأشرق من ساعير واستعلن من فاران فمجيئه من طور سينا بعثته لموسى بن عمران وبدأ به على حكم الترتيب الواقع ثم ثنى بنبوة المسيح ثم ختمه بنبوة محمد وجعل نبوة موسى بمنزلة مجيء الصبح ونبوة المسيح بعده بمنزلة طلوع الشمس واشراقها ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم بعدهما بمنزلة استعلاء وظهورها للعالم ولما كان الغالب على بني اسرائيل حكم الحس ذكر ذلك مطابقا للواقع ولما كان على الامة الكاملة حكم العقل ذكرها على الترتيب العقلي واقسم بها على بداية الانسان ونهايته فقال لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم أي في أحسن صورة وشكل واعتدال معتدل القامة مستوى الخلقة كامل الصورة أحسن من كل حيوان سواه والتقويم تصيير الشيء على ما ينبغي ان يكون في التأليف والتعديل وذلك صنعته تبارك وتعالى في قبضته من تراب وضعه بالمشاهدة في نطفة من ماء وذلك من أعظم الآيات الدالة على وجوده وقدرته وحكمته وعلمه وصفات كماله ولهذا يكررها كثيرا في

القرآن لمكان العبرة بها والاستدلال باقرب الطرق على وحدانيته وعلى المبدأ والمعاد وتضمن اقسام بتلك الأمكنة الثلاثة الدالة عليه وعلى علمه وحكمته وعنايته بخلقه بأن أرسل منها رسلا أنزل عليهم كتبه يعرفون العباد بربهم وحقوقه عليهم وينذرونهم بالله ونقمته ويدعونهم الى كرامته وثوابه ثم لما كان الناس فى اجابة هذه الدعوة فريقين منهم من اجاب ومنهم من أبى ذكر حال الفريقين فذكر حال الاكثرين وهم المرد ودون الى اسفل سافلين والصحيح انه النار قاله مجاهد والحسن وابو العالية قال على ابن أبى طالب رضى الله عنه هى النار بعضها أسفل من بعض وقالت طائفة منهم قتادة وعكرمة وعطاء والكلبى وابراهيم انه ارذل العمر وهو مروى عن ابن عباس والصواب القول الاول لوجوه احدها ان ارذل العمر لايسمى اسفل سافلين لافى لغة ولاعرف وانما اسفل سافلين هو سجين الذى هو مكان الفجار كما ان عليين مكان الابرار الثانى أن المردودين الى اسفل العمر بالنسبة الى نوع الانسان قليل جدا فا كثرهم يموت ولايرد الى ارذل العمر الثالث ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات يستوون هم وغيرهم فى رد من طال عمره منهم الى ارذل العمر فليس ذلك مختصا بالكفار حتى يستثنى منهم المؤمنين الرابع ان الله سبحانه لما اراد ذلك لم يخصه بالكفار بل جعله لجنس بنى آدم فقال ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد الى ارذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا فجعلهم قسمين قسم متوفى قبل الكبر وقسما مردودا الى ارذل العمر ولم يسمه أسفل سافلين الخامس انه لايحسن المقابلة بين أرذل العمر وبين اجزاء المؤمنين وهو سبحانه قابل بين جزاء هؤلاء وجزاء اهل الايمان فجعل جزاء الكفار اسفل سافلين وجزاء المؤمنين اجرا غير ممنون السادس ان قول من فسره بارذل العمر يتلزم خلو الآية عن جزاء الكفار وعاقبة امرهم وتفسيرها بامر محسوس فيكون قد ترك الاخبار عن المقصود الأهم واخبر عن امر يعرف بالحس والمشاهدة وفى ذلك هضم لمعنى الآية وتقصير بها عن المعنى اللائق بها السابع انه سبحانه ذكر حال الانسان فى مبداه ومعاده فبدا خلقه فى احسن تقويم ومعاده رده الى اسفل سافلين او الى اجر غير ممنون وهذا موافق لطريقة القرآن وعادته فى ذكر مبدا العبد ومعاده فالا ارذل العمر وهذا المعنى المطلوب المقصود اثباته والاستدلال عليه الثامن ان ارباب القول الأول مضطرون الى مخالفة الحس واخراج الكلام عن ظاهره والتكلف البعيد له فانهم ان قالوا ان الذى يرد الى ارذل العمر هم الكفار دون المؤمنين كابروا الحس وان قالوا ان من النوعين من يرد الى ارذل العمر احتاجوا الى التكلف لصحة الاستثناء فنهم من قدر ذلك بان الذين آمنوا وعملوا الصالحات لاتبطل اعمالهم اذا ردوا الى ارذل العمر بل تجرى عليهم اعمالهم التى كانوا يعملونها فى الصحة فهذا وان كان حقا فان الاستثناء انما وقع من الرد لا من الأجر والعمل ولما علم أرباب هذا القول مافيه من التكلف خص بعضهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات بقراءة القرآن خاصة فقالوا من قرأ القرآن لايرد الى ارذل العمر وهذا ضعيف من وجهين احدهما ان الاستثناء عام فى المؤمنين قارئهم واميهم انه لادليل على ما ادعوه وهذا لايعلم بالحس ولاخبر يجب التسليم له يقتضيه والله أعلم التاسع أنه سبحانه ذكر نعمته على الانسان بخلقه فى أحسن تقويم وهذه

النعمة توجب عليهم أن يشكروها بالايمان وعبادته وحده لا شريك له فينقله حينئذ من هذه الدار الى أعلى عليين فاذا لم يؤمن به وأشرك به وعصى رسله نقله منها الى أسفل سافلين وبدله بعد هذه الصورة التى هى فى أحسن تقويم صورة من أقبح الصور فى أسفل سافلين فتلك نعمته عليه وهذا عدله فيه وعقوبته على كفران نعمته العاشر أن نظير هذه الآية قوله تعالى فبشرهم بعذاب أليم الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون فالعذاب الاليم هو أسفل سافلين والمستثنون هناهم المستثنون هناك والاجر غير ممنون هناك هو المذكور هنا والله أعلم وقوله غير ممنون اى غير مقطوع ولا منقوص ولا مكدر عليهم وهذا هو الصواب وقالت طائفة غير ممنون به عليهم بل هو جزاء أعمالهم ويذكر هذا عن عكرمة ومقاتل وهو قول كثير من القدرية قال هؤلاء ان المنة تكدر النعمة فتمام النعمة أن يكون غير ممنون بها على المنعم عليه وهذا القول خطأ قطعا أتى أربابه من تشبيه نعمة الله على عبده بانعام المخلوق على المخلوق وهذا من أبطل الباطل فان المنة التى تكدر النعمة هى منة المخلوق على المخلوق وأما منة الخالق على المخلوق فبها تمام النعمة ولذتها وطيبها فانها منة حقيقة قال تعالى يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا على اسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان ان كنتم صادقين وقال تعالى ولقد مننا على موسى وهرون ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم فتكون منة عليهما بنعمة الدنيا دون نعمة الآخرة وقال لموسى ولقد مننا عليك مرة أخرى وقال أهل الجنة فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم وقال تعالى لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم الآية وقال ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الارض الآية وفى الصحيح أن النبى صلى الله عليه وسلم قال للانصار ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بى ألم أجدكم عالة فأغناكم الله بى جعلوا يقولون له الله ورسوله أمن فهذا جواب العارفين بالله ورسوله وهل المنة كل المنة الا لله المان بفضله الذى جميع الخلق فى منته وانما قبحت منة المخلوق لانها منة بما ليس منه وهى منة يتأذى بها الممنون عليه وأما منة المنان بفضله التى ما طاب العيش الا بمنته وكل نعمة منه فى الدنيا والآخرة فهى منة يمن بها على من أنعم عليه فتلك لا يجوز نفيها وكيف يجوز أن يقال انه لا منة لله على الذين آمنوا وعملوا الصالحات فى دخول الجنة وهل هذا الامن أبطل الباطل فان قيل هذا القدر لا يخفى على من قال هذا القول من العلماء وليس مرادهم ما ذكروا وانما مرادهم أنه لا يمن عليهم به وان كانت لله فيه المنة عليهم فانه لا يمن عليهم به بل يقال هذا جزاء أعمالكم التى عملتموها فى الدنيا وهذا أجركم فأنتم تستوفون أجور أعمالكم لا نمن بها عليكم بما أعطيناكم قيل وهذا أيضا هو الباطل بعينه فان ذلك الاجر ليست الاعمال ثمنا له ولا معاوضة عنه وقد قال أعلم الخلق بالله لن يدخل أحدا منكم الجنة بعمله قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا الا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل فاخبر ان دخول الجنة برحمة الله وفضله وذلك محض منته عليه وعلى سائر عباده وكما انه سبحانه المان بارسال رسله وبالتوفيق لطاعته وبالاعانة عليها فهو المان باعطاء الجزاء وذلك كله محض منته وفضله وجوده لا حق لاحد عليه بحيث اذا وفاه اياه لم يكن له عليه منة فان كان فى الدنيا باطل فهذا أمنه فان قيل كيف تقولون هذا وقد أخبر رسوله عنه بان حق العباد عليه اذا وحدوه أن لا يعذبهم وقد أخبر عن نفسه ان حقا عليه

نصر المؤمنين قبل لعمر والله وهذا من أعظم منته على عباده أن جعل على نفسه حقا بحكم وعده الصادق أن يثيبهم ولا يعذبهم اذا عبدوه ووحدوه فهذا من تمام منته فانه لو عذب أهل سمواته وأرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم ولكن منته اقتضت أن أحق على نفسه ثواب عابديه واجابة سائليه

ما للعباد عليه حق واجب ❀ كلا ولا سعى لديه ضائع
ان عذبوا فبعدله أو نعموا ❀ فبفضله فهو الكريم الواسع

وقوله سبحانه فما يكذبك بعد بالدين أصح القولين انه هذا خطاب للانسان أى فما يكذبك بالجزاء والمعاد بعد هذا البيان وهذا البرهان فتقول انك لا تبعث ولا تحاسب ولو تفكرت فى مبدا خلقك وصورتك لعلمت ان الذى خلقك أقدر على أن يعيدك بعد موتك وينشئك خلقا جديدا وان ذلك لو أعجزه لا عجزه وأعياه خلقك الاول وأيضا فان الذى كل خلقك فى أحسن تقويم بعد أن كنت نطفة من ماء مهين كيف يليق به أن يتركك سدى لا يكمل ذلك بالامر والنهى وبيان ماينفعك ويضرك ولا تنقل الدار هى أكمل من هذه ويجعل هذه الدار طريقا لك اليها فحكمة أحكم الحاكمين تأبى ذلك وتقتضى خلافه قال منصور قلت لمجاهد فما يكذبك بعد بالدين عنى به محمدا فقال معاذ الله انما عنى به الانسان وقال قتادة الضمير للنبى صلى الله عليه وسلم واختاره الفراء وهذا موضع يحتاج الى شرح وبيان يقال كذب الرجل اذا قال الكذب وكذبته أنا اذا نسبته الى الكذب ولو اعتقدت صدقه وكذبته اذا اعتقدت كذبه وان كان صادقا قال تعالى وان يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك وقال فانهم لا يكذبونك فالاول بمعنى وان ينسبوك الى الكذب والثانى بمعنى لا يعتقدون انك كاذب ولكنهم يعاندون ويدفعون الحق بعد معرفته جحودا وعنادا هذا أصل هذه اللفظة ويتعدى الفعل الى الخبر بنفسه والى خبره بالباء أو بفى فيقال كذبته بكذا وكذبته فيه والاول أكثر استعمالا ومنه قوله بل كذبوا بالحق لما جاءهم وقوله وكذبوا بآياتنا اذا عرف هذا فقوله فما يكذبك اختلف فى ما هل هى بمعنى أى شئ يكذبك أو بمعنى من الذى يكذبك فمن جعلها بمعنى أى شئ تعين على قوله أن يكون الخطاب للانسان اى فأى شئ يجعلك بعد هذا البيان مكذبا بالدين وقد وضحت لك دلائل الصدق والتصديق ومن جعلها بمعنى فمن الذى يكذبك جعل الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم قال الفراء كانه يقول من يقدر على تكذيبك بالثواب والعقاب بعد ما تبين له من خلق الانسان ما وصفناه وقال قتادة فمن يكذبك أيها الرسول بعد هذا بالدين وعلى قول قتادة والفراء اشكال من وجهين احدهما اقامة ما مقام من أولى من سهل والثانى ان الجار والمجرور يستدعى متعلقا وهو لكذبك اى فمن يكذبك بالدين فلا يخلو اما أن يكون المعنى فمن يجعلك كاذبا بالدين أو مكذبا به ولا يصح واحد منهما أما الثانى والثالث فظاهر فان كذبته ليس معناه جعلته مكذبا أو مكذبا وانما معناه نسبته الى الكذب فالمعنى على هذا فمن يجعلك بعد كاذبا بالدين وهذا انما يتعدى اليه بالباء الفعل المضاعف لا الثلاثى فلا يقال كذب بكذا وانما يقال كذب به وجواب هذا الاشكال ان قوله كذب بكذا معناه كذب الخبر به ثم حذف المفعول به لظهور العلم به حتى كانه نسى منسى وعدوا الفعل الى الخبر به فاذا قيل من يكذبك بكذا فهو بمعنى كذبوك بكذا سواء اى نسبوك الى الكذب فى الاخبار به بل الاشكال

فى قول مجاهد والجمهور فان الخطاب اذا كان لانسان وهو المكذب اى فاعل التكذيب فكيف يقال له مايكذبك اى يجعلك مكذبا والمعروف كذبه اذا جعله كاذبا لامكذبا ومثل فسقه اذا جعله فاسقا لامفسقا لغيره وجواب هذا الاشكال ان صدق وكذب بالتشديد يراد به معنيان أحدهما النسبة وهى انما تكون للمفعول كما ذكرتم والثانى الداعى والحامل على ذلك وهو يكون للفاعل قال الكسائى يقال ماصدقك بكذا اوما كذبك بكذا اى ما حملك على التصديق والتكذيب قلت وهو نظير ما أجرأك على هذا اى ماحملك على الاجتراء عليه وماقدمك وما اخرك اى مادعاك وحملك على التقديم والتأخير وهذا استعمال سائغ موافق للعربية وبالله التوفيق ثم ختم السورة بقوله أليس الله بأحكم الحاكمين وهذا تقرير لمضمون السورة من اثبات النبوة والتوحيد والمعاد وحكمه يتضمن نصره لرسوله على من كذبه وجحد ماجاء به بالحجة والقدرة والظهور عليه وحكمه بين عباده فى الدنيا وبشرعه وأمره وحكمه بينهم فى الآخرة بثوابه وعقابه وان احكم الحاكمين لايليق به تعطيل هذه الاحكام بعد ماظهرت حكمته فى خلق الانسان فى احسن تقويم ونقله فى اطوار التخليق حالا بعد حال الى اكمل الاحوال فكيف يليق بأحكم الحاكمين ان لايجازى المحسن باحسانه والمسئ باساءته وهل ذلك الاقدح فى حكمه وحكمته فلله ما اخصر لفظ هذه السورة واعظم شأنها واتم معناها والله أعلم

﴿ فصل ﴾ ومن ذلك قسمه سبحانه وتعالى بالليل اذا يغشى والنهار اذا تجلى وماخلق الذكر والانثى وقد تقدم ذكر القسم عليه وانه سعى الانسان فى الدنيا وجزاؤه فى العقبى فهو سبحانه يقسم بالليل فى جميع احواله اذهو من آياته الدالة عليه فأقسم به وقت غشيانه وأتى بصيغة المضارع لانه يغشى شيأ بعد شئ واما النهار فانه اذا طلعت الشمس ظهر وتجلى وهلة واحدة ولهذا قال فى سورة الشمس وضحاها والنهار اذا جلاها والليل اذا يغشاها واقسم به وقت سريانه كما تقدم واقسم به وقت ادباره وأقسم به اذا عسعس فقيل معناه ادبر فيكون مطابقا لقوله والليل اذا ادبر والصبح اذا اسفر وقيل معناه أقبل فيكون كقوله والليل اذا يغشى والنهار اذا تجلى فيكون قد اقسم باقبال الليل والنهار وعلى الاول يكون القسم واقعا على انصرام الليل ومجئ النهار عقيبه وكلاهما من آيات ربوبيته ثم اقسم بخلق الذكر والانثى وذلك يتضمن الاقسام بالحيوان كله على اختلاف اصنافه ذكره وانثاه وقابل بين الذكر والانثى كما قابل بين الليل والنهار وكل ذلك من آيات ربوبيته فان اخراج الليل والنهار بواسطة الاجرام العلوية كاخراج الذكر والانثى بواسطة الاجرام السفلية فأخرج من الارض ذكور الحيوان واناثه على اختلاف انواعه كما اخرج من السماء الليل والنهار بواسطة الشمس فيها واقسم سبحانه بزمان السعى وهو الليل والنهار وبالساعى وهو الذكر والانثى على اختلاف السعى كما اختلف الليل والنهار والذكر والانثى وسعيه وزمانه مختلف وذلك دليل على اختلاف جزائه وثوابه وانه سبحانه لايسوى بين من اختلف سعيه فى الجزاء كما لم يسو بين الليل والنهار والذكر والانثى ثم أخبر عن تفريقه بين عاقبة سعى المحسن وعاقبة سعى المسئ فقال فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى فتضمنت الآيتان ذكر شرعه وقدره وذكر الاعمال وجزائها وحكمة القدر فى تيسير هذا

لليسرى وهذا العسرى وان العبد ميسر بأعماله لغاياتها ولا يظلم ربك أحدا وذكر للتيسير لليسرى ثلاثة أسباب أحدها اعطاء العبد وحذف مفعول الفعل ارادة الاطلاق والتعميم اى اعطى ما أمر به وسمحت به طبيعته وطاوعته نفسه وذلك يتناول اعطاءه من نفسه الايمان والطاعة والاخلاص والتوبة والشكر واعطاءه الاحسان والنفع بماله ولسانه وبدنه ونيته وقصده فتكون نفسه نفسا مطيعة باذلة لا لئيمة مانعة فالنفس المطيعة هي النافعة المحسنة التي طبعها الاحسان واعطاء الخير اللازم والمتعدى فتعطى خيرها لنفسها ولغيرها فهي بمنزلة العين التي ينتفع الناس بشربهم منها وسقى دوابهم وانعامهم وزرعهم فهم ينتفعون بها كيف شاؤا فهي ميسرة لذلك وهكذا الرجل المبارك ميسر للنفع حيث حل فجزاء هذا أن ييسره الله لليسرى كما كانت نفسه ميسرة للعطاء السبب الثاني التقوى وهي اجتناب مانهى الله عنه وهذا من أعظم أسباب التيسير وضده من أسباب التعسير فالمتقي ميسر عليه أمور دنياه وآخرته وتارك التقوى وان يسرت عليه بعض أمور دنياه تعسر عليه من أمور آخرته بحسب ماتركه من التقوى وأما تيسير ماتيسر عليه من أمور الدنيا فلو اتقى الله لكان تيسيرها عليه أتم ولو قدر انها لم تيسر له فقد يسر الله له من الدنيا ماهو انفع له مما ناله بغير التقى فان طيب العيش ونعيم القلب ولذة الروح وفرحها وابتهاجها من أعظم نعيم الدنيا وهو أجل من نعيم أرباب الدنيا بالشهوات واللذات وقال تعالى ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا فأخبر أنه ييسر على المتقي مالا ييسر على غيره وقال تعالى ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب وهذا ايضا ييسر عليه بتقواه وقال تعالى ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا وهذا تيسير عليه بازالة مايخشاه واعطائه مايحب ويرضاه وقال يا أيها الذين آمنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم وهذا تيسير بالفرقان المتضمن النجاة والنصر والعلم والنور الفارق بين الحق والباطل وتكفير السيئات ومغفرة الذنوب وذلك غاية التيسير وقال تعالى واتقوا الله لعلكم تفلحون والفلاح غاية اليسر كما أن الشقاء غاية العسر وقال تعالى يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به ويغفر لكم فضمن لهم سبحانه بالتقوى ثلاثة امور أعطاهم نصيبين من رحمته نصيبا فى الدنيا ونصيبا فى الآخرة وقد يضاعف لهم نصيب الآخرة فيصير نصيبين الثاني أعطاهم نورا يمشون به فى الظلمات الثالث مغفرة ذنوبهم وهذا غاية التيسير فقد جعل سبحانه التقوى سببا لكل يسر وترك التقوى سببا لكل عسر السبب الثالث التصديق بالحسنى وفسرت بلا اله الا الله وفسرت بالجنة وفسرت بالخلف وهي أقوال السلف واليسرى صفة لموصوف محذوف اى الحالة والخلة اليسرى وهي فعلى من اليسر والاقوال الثلاثة ترجع الى أفضل الاعمال وأفضل الجزاء فمن فسرها بلا اله الا الله فقد فسرها بمفرد يأتي بكل جمع فان التصديق الحقيق بلا اله الا الله يستلزم التصديق بشعبها وفروعها كلها وجميع أصول الدين وفروعه من شعب هذه الكلمة فلا يكون العبد مصدقا بها حقيقة التصديق حتى يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه ولا يكون مؤمنا بالله اله العالمين حتى يؤمن بصفات جلاله ونعوت كماله ولا يكون مؤمنا

بأن الله لا اله الا هو حتى يسلب خصائص الالهية عن كل موجود سواه وسلبها عن اعتقاده وارادته كما هي منفية في الحقيقة والخارج ولا يكون مصدقا بها من نفى الصفات العليا ولا من نفى كلامه وتكليمه ولا من نفى استواءه على عرشه وانه يرفع اليه الكلم الطيب والعمل الصالح وانه رفع المسيح اليه وأسرى برسوله صلى الله عليه وسلم اليه وانه يدبر الأمر من السماء الى الارض ثم يعرج اليه الى سائر ماوصف به نفسه ووصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم ولا يكون مؤمنا بهذه الكلمة مصدقا بها على الحقيقة من نفى عموم خلقه لكل شيء وقدرته على كل شيء وعلمه بكل شيء وبعثه الاجساد من القبور ليوم النشور ولا يكون مصدقا بها من زعم أنه يترك خلقه سدى لم يأمرهم ولم ينههم على ألسنة رسله وكذلك التصديق بها يقتضي الاذعان والاقرار بحقوقها وهي شرائع الاسلام التي هي تفصيل هذه الكلمة بالتصديق بجميع أخباره وامتثال أوامره واجتناب نواهيه هو تفصيل لا اله الا الله فالمصدق بها على الحقيقة الذي يأتي بذلك كله وكذلك لم تحصل عصمة المال والدم على الاطلاق الا بها وبالقيام بحقها وكذلك لا تحصل النجاة من العذاب على الاطلاق الا بها وبحقها فالعقوبة في الدنيا والآخرة على تركها أو ترك حقها ومن فسر الحسنى بالجنة فسرها بأعلى أنواع الجزاء وكماله ومن فسرها بالخلف ذكر نوعا من الجزاء فهذا جزاء دنيوي والجنة الجزاء في الآخرة فرجع التصديق بالحسنى الى التصديق بالايمان وجزائه والتحقيق أنها تتناول الامرين وتأمل ما اشتملت عليه هذه الكلمات الثلاث وهي الاعطاء والتقوى والتصديق بالحسنى من العلم والعمل وتضمنته من الهدى ودين الحق فان النفس لها ثلاث قوى قوة البذل والاعطاء وقوة الكف والامتناع وقوة الادراك والفهم ففيها قوة العلم والشعور ويتبعها قوة الحب والارادة وقوة البغض والنفرة فهذه القوى الثلاثة عليها مدار صلاحها وسعادتها وبفسادها يكون فسادها وشقاوتها ففساد قوة العلم والشعور يوجب له التكذيب بالحسنى وفساد قوة الحب والارادة يوجب له ترك الاعطاء وفساد قوة البغض والنفرة يوجب له ترك الاتقاء فاذا كانت قوة حبه وارادته باعطائه ما أمر به وقوة بغضه ونفرته بانقائه مانهي عنه وقوة علمه وشعوره بتصديقه بكلمة الاسلام وحقوقها وجزائها فقد زكى نفسه وأعدها لكل حالة يسرى فصارت النفس بذلك ميسرة لليسرى ولما كان الدين يدور على ثلاث قواعد فعل المأمور وترك المحظور وتصديق الخبر وان شئت قلت الدين طلب وخبر والطلب نوعان طلب فعل وطلب ترك تضمنت هذه الكلمات الثلاث مراتب الدين أجمعها فالاعطاء فعل المأمور والتقوى ترك المحظور والتصديق بالحسنى تصديق الخبر فانتظم ذلك الدين كله وأكمل الناس من كانت له هذه القوى الثلاث ودخول النقص بحسب نقصانها أو بعضها فمن الناس من يكون قوة اعطائه وبذله أتم من قوة انكفافه وتركه فقوة الترك فيه أضعف من قوة الاعطاء ومن الناس من يكون قوة الترك والانكفاف فيه أتم من قوة الاعطاء والمنع ومن الناس من يكون فيه قوة التصديق أتم من قوة الاعطاء والمنع فقوته العلمية والشعورية أتم من قوته الارادية وبالعكس فيدخل النقص بحسب مانقص من قوة هذه القوى الثلاث ويفوته من التيسير لليسرى بحسب مافاته منها ومن كانت له هذه القوى

يسر لكل يسرى قال ابن عباس فسنيسره لليسرى أن نهيؤه لعمل الخير تيسر عليه أعمال الخير وقال مقاتل والكلبي والفراء نيسره للعود الى العمل الصالح وحقيقة اليسرى أنها الخلة والحالة السهلة النافعة الواقعة له وهي ضد العسرى وذلك يتضمن تيسره للخير وأسبابه فيجري الخير وييسر على قلبه وبدنه ولسانه وجوارحه فتصير خصال الخير ميسرة عليه مذللة له منقادة لا تستعصي عليه ولا تستصعب لانه مهيأ لها ميسر لفعلها يسلك سبلها ذللا وتقاد له علما وعملا فاذا خالته قلت هو الذي قيل فيه

مبارك الطلعة ميمونها * يصلح للدنيا وللدين

وأما من بخل فعطل قوة الارادة والاعطاء عن فعل ما أمر به واستغنى بترك التقوى عن ربه فعطل قوة الانكفاف والترك عن فعل ما نهي عنه وكذب بالحسنى فعطل قوة العلم والشعور عن التصديق بالايمان وجزائه فسنيسره للعسرى قال عطاء سوف أحول بين قلبه وبين الايمان بي وبرسولي وقال مقاتل يعسر عليه أن يعطي خيرا وقال عكرمة عن ابن عباس نيسره للشر قال الواحدي وهذا هو القول لان الشر يؤدي الى العذاب فهو الخلة العسرى والخير يؤدي الى اليسر والراحة في الجنة فهو الخلة اليسرى يقول سنهيؤه للشر بأن نجريه على يديه قال الفراء العرب تقول قد يسرت غنم فلان اذا تهيأت للولادة وكذلك اذا ولدت وغزرت ألبانها اي يسرت ذلك على أصحابها انتهى والتيسر للعسرى يكون بأمرين أحدهما أن يحول بينه وبين أسباب الخير فيجري الشر على قلبه ونيته ولسانه وجوارحه والثاني أن يحول بينه وبين الجزاء الايسر كما حال بينه وبين أسبابه فان قيل كيف قابل اتقى باستغنى وهل يمكن العبد أن يستغني عن ربه طرفة عين قيل هذا من أحسن المقابلة فان المتقي لما استشعر فقره وفاقته وشدة حاجته الى ربه اتقاه ولم يتعرض لسخطه وغضبه ومقته بارتكاب ما نهاه عنه فان من كان شديد الحاجة والضرورة الى شخص فانه يتقي غضبه وسخطه عليه غاية الاتقاء ويجانب ما يكرهه غاية المجانبة ويعتمد فعل ما يحبه ويؤثره فقابل التقوى بالاستغناء تبشيعا لحال تارك التقوى ومبالغة في ذمه بأن فعل المستغني عن ربه لا فعل الفقير المضطر اليه الذي لا ملجأ له الا اليه ولا غنى له من فضله وجوده وبره طرفة عين فلله ما أحلى هذه المقابلة وما أجمع هاتين الآيتين للخيرات كلها وأسبابها والشرور كلها وأسبابها فسبحان من تعرف الى خصائص عباده بكلامه وتجلى لهم فيه فهم لا يطلبون أثرا بعد عين ولا يستبدلون الحق بالباطل والصدق بالمين وقد تضمنت هاتان الآيتان فصل الخطاب في مسئلة القدر وازالة كل لبس واشكال فيها وذلك بين بحمد الله لمن وفق لفهمه ولهذا أجاب بها النبي صلى الله عليه وسلم لمن أورد عليه السؤال الذي لا يزال الناس يلهجون به في القدر فأجاب بفصل الخطاب وأزال الاشكال ففي الصحيحين من حديث علي ابن أبي طالب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ما منكم من أحد الا وقد علم مقعده من الجنة والنار قيل يا رسول الله أفلا ندع العمل ونتكل على الكتاب قال اعملوا فكل ميسر لما خلق له ثم قرأ فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى فقد تضمن هذا الحديث الرد على القدرية والجبرية واثبات القدر والشرع واثبات الكتاب الاول المتضمن لعلم الله سبحانه الاشياء قبل كونها واثبات خلق الفعل الجزائي وهو يبطل أصول القدرية الذين يمنعون خلق الفعل

مطلقا ومن أقر منهم بخلق الفعل الجزاء دون الابتداء هدم أصله ونقض قاعدته والنبي صلى الله عليه وسلم اخبر بمثل ما أخبر به الرب تعالى ان العبد ميسر لما خلق له لا مجبور فالجبر لفظ بدعي والتيسير لفظ القرآن والسنة وفي الحديث دلالة على أن الصحابة كانوا أعلم الناس بأصول الدين فانهم تلقوها من أعلم الخلق بالله على الاطلاق وكانوا اذا استشكلوا شيأ سألوه عنه وكان يجيبهم بما يزيل الاشكال ويبين الصواب فهم العارفون بأصول الدين حقا لا اهل البدع والاهواء من المتكلمين ومن سلك سبيلهم وفي الحديث استدلال النبي صلى الله عليه وسلم على مسائل أصول الدين بالقرآن وارشاده الصحابة لاستنباطها منه خلافا لمن زعم أن كلام الله ورسوله لا يفيد العلم بشيء من أصول الدين ولا يجوز أن تستفاد معرفة الله وأسمائه وصفاته وأفعاله منه وعبر عن ذلك بقوله الادلة اللفظية لا تفيد اليقين وفي الحديث بيان ان من الناس من خلق للسعادة ومنهم من خلق للشقاوة خلافا لمن زعم انهم كلهم خلقوا للسعادة ولكن اختاروا الشقاوة ولم يخلقوا لها وفيه اثبات الاسباب وان العبد ميسر للاسباب الموصلة له الى ما خلق له وفيه دليل على اشتقاق السنة من الكتاب ومطابقتها له فتأمل قوله اعملوا فكل ميسر لما خلق له ومطابقته لقوله تعالى فأما من أعطى واتقى الى آخر الآيتين كيف انتظم الشرع والقدر والسبب والمسبب وهذا الذي أرشد اليه النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي فطر الله عليه عباده بالحيوان البهيم بل مصالح الدنيا وعمارتها بذلك فلو قال كل أحد ان قدر لي كذا وكذا فلا بد أن أناله وان لم يقدر فلا سبيل الى نيله فلا أسعى ولا أتحرك لعد من السفهاء الجهال ولم يمكنه طرد ذلك أبدا وان اتى به في أمر معين فهل يمكنه أن يطرد ذلك في مصالحه جميعها من طعامه وشرابه ولباسه ومسكنه وهروبه مما يضاد بقاءه وينافي مصالحه أم يجد نفسه غير منفكة ألبتة عن قول النبي صلى الله عليه وسلم اعملوا فكل ميسر لما خلق له فاذا كان هذا في مصالح الدنيا وأسباب منافعها فما الموجب لتعطيله في مصالح الآخرة وأسباب السعادة والفلاح ورب الدنيا والآخرة واحد فكيف يعطل ذلك في شرع الرب وأمره ونهيه ويستعمل في ارادة العبد واغراضه وشهواته وهل هذا الا محض الظلم والجهل والانسان ظلوم جهول ظلوم لنفسه جهول بربه فهذا الذي أرشد اليه النبي صلى الله عليه وسلم وتلى عنده هاتين الآيتين موافقا لما جعله الله في عقول العقلاء وركب عليه فطر الخلائق حتى الحيوان البهيم وأرسل به جميع رسله وأنزل به جميع كتبه ولو اتكل العبد على القدر ولم يعمل لتعطلت الشرائع وتعطلت مصالح العالم وفسد أمر الدنيا والدين وانما يستروح الى ذلك معطلوا الشرائع ومن خلع ربقة الاوامر والنواهي من عنقه وذلك ميراث من اخوانهم المشركين الذين دفعوا أمر الله ونهيه وعارضوا شرعه بقضائه وقدره كما حكى الله سبحانه ذلك عنهم في غير موضع من كتابه كقوله تعالى سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى اذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ان تتبعون الا الظن وان انتم الا تخرصون قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين وقال تعالى وقال الذين اشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل الا البلاغ المبين وقال تعالى وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم

(مالهم)

مالهم بذلك من علم ان هم الا يخرصون وقال تعالى واذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ان انتم الا في ضلال مبين فان قيل فالاعطاء والتقوى والتصديق بالحسنى هي من اليسرى بل هي أصل اليسرى من يسرها للعبد أو لا وكذلك أضدادها قيل الله سبحانه هو الذي يسر للعبد أسباب الخير والشر وخلق خلقه قسمين أهل سعادة فيسرهم لليسرى وأهل شقاوة فيسرهم للعسرى واستعمل هؤلاء في الاسباب التي خلقوا لغاياتها لا يصلحون لسواها وهؤلاء في الاسباب التي خلقوا لغاياتها لا يصلحون لسواها وحكمته الباهرة تأبى أن يضع عقوبته في موضع لا تصلح له كما يأبى أن يضع كرامته وثوابه في محل لا يصلح له ولا يليق به بل حكمة آحاد خلقه تأبى ذلك ومن جعل محل المسك والرجيع واحدا فهو من أسفه السفهاء فان قيل فلم جعل هذا لا يليق به الا الكرامة وهذا لا يليق به الا الاهانة قيل هذا سؤال جاهل لا يستحق الجواب كأنه يقول لم خلق الله كذا وكذا فان قيل وعلى هذا فهل لهذا الجاهل من جواب لعله يشفى من جهله قيل نعم شأن الربوبية خلق الاشياء وأضدادها وخلق الملزومات ولوازمها وذلك هو محض الكمال فالعلو لازم وملزوم للسفل والليل لازم وملزوم للنهار وكمال هذا الوجود بالحر والبرد والصحو والغيم ومن لوازم الطبيعة الحيوانية الصحة والمرض واختلاف الارادات والمرادات ووجود اللازم بدون ملزومه ممتنع ولولا خلق المتضادات لما عرف كمال القدرة والمشيئة والحكمة ولما ظهرت احكام الاسماء والصفات وظهور أحكامها وآثارها لابد منه اذ هو مقتضى الكمال المقدس والملك التام واذا اعطيت اسم الملك حقه ولن تستطيع علمت ان الخلق والامر والثواب والعقاب والعطاء والحرمان امر لازم لصفة الملك وان صفة الملك تقتضي ذلك ولابد وان تعطل هذه الصفة أمر ممتنع فالملك الحق يقتضي ارسال الرسل وانزال الكتب وامر العباد ونهيهم وثوابهم وعقابهم واكرام من يستحق الاكرام واهانة من يستحق الاهانة كما تستلزم حياة الملك وعلمه وارادته وقدرته وسمعه وبصره وكلامه ورحمته ورضاه وغضبه واستواءه على سرير ملكه يدبر امر عباده وهذه الاشارة تكفي اللبيب في مثل هذا الموضع ويطلع منها على ارض مونقة وكنوز من المعرفة وبالله التوفيق

﴿ فصل ﴾ ثم قال تعالى ان علينا للهدى وان لنا للآخرة والاولى قيل معناه ان علينا ان نبين طريق الهدى من طريق الضلال قال قتادة على الله البيان بيان حلاله وحرامه وطاعته ومعصيته اختاره ابو اسحق وهو قول مقاتل وجماعة وهذا المعنى حق ولكن مراد الآية شيء آخر وقيل المعنى ان علينا للهدى والاضلال قال ابن عباس رضى الله عنهما في رواية عطاء يريد أرشد اوليائي الى العمل بطاعتي واحول بين اعدائي وبين ان يعملوا بطاعتي قال الفراء فترك ذكر الاضلال كما قال سرابيل تقيكم الحر اى والبرد وهذا اضعف من القول الاول وان كان معناه صحيحا فليس هو معنى الآية قيل المعنى من سلك الهدى فعلى الله سبيله كقوله وعلى الله قصد السبيل وهذا قول مجاهد وهو أصح الاقوال في الآية قال الواحدي علينا للهدى اى ان الهدى يوصل صاحبه الى الله والى ثوابه وجنته وهذا المعنى في القرآن في ثلاث مواضع ههنا وفي النحل قوله وعلى الله قصد السبيل وفي الحجر في قوله هذا صراط علي مستقيم وهو معنى شريف جليل يدل على ان سالك طريق الهدى يوصله طريقه الى الله ولابد والهدى

هو الصراط المستقيم فمن سلكه اوصله الى الله فذكر الطريق والغاية فالطريق الهدى والغاية الوصول الى الله فهذه أشرف الوسائل وغايتها اعلى الغايات ولما كان مطلوب السالك الى الله تحصيل مصالح دنياه وآخرته لم يتم له هذا المطلوب الا بتوحيد طلبه والمطلوب منه فأعلمه سبحانه ان سواه لايملك من الدنيا والآخرة شيئا وأن الدنيا والآخرة جميعا له وحده فاذا تيقن العبد ذلك اجتمع طلبه ومطلوبه على من يملك الدنيا والآخرة وحده فتضمنت الآيتان اربعة امور وهى المطالب العالية ذكر اعلى الغايات وهو الوصول الى الله سبحانه واقرب الطرق والوسائل اليه وهى طريقة الهدى وتوحيد الطريق فلا يعدل عنها الى غيرها وتوحيد المطلوب وهو الحق فلا يعدل عنه الى غيره فاقتبس هذه الامور من مشكاة هذه الكلمات فان هذه غاية العلم والفهم وبالله التوفيق والهدى التام يتضمن توحيد المطلوب وتوحيد الطلب وتوحيد الطريق الموصلة والانقطاع وتخلف الوصول يقع من الشركة فى هذه الامور او فى بعضها فالشركة فى المطلوب تنافى التوحيد والاخلاص والشركة فى الطلب تنافى الصدق والعزيمة والشركة فى الطريق تنافى اتباع الامر فالاول يوقع فى الشرك والرياء والثانى يوقع فى المعصية والبطالة والثالث يوقع فى البدعة ومفارقة السنة فتأمله فتوحيد المطلوب يعصم من الشرك وتوحيد الطلب يعصم من المعصية وتوحيد الطريق يعصم من البدعة والشيطان انما نصب فخه بهذه الطرق الثلاثة ولما أقام سبحانه الدليل وانار السبيل واوضح الحجة وبين المحجة انذر عباده عذابه الذى اعده لمن كذب خبره وتولى عن طاعته وجعل هذا الصنف من الناس هم أشقاهم كما جعل أسعدهم أهل التقوى والاحسان والاخلاص فهذا الصنف هو الذى يجنب عذابه كما قال وسيجنبها الاتقى الذى يؤتى ماله يتزكى فهذا المتقى المحسن لايفعل ذلك الا ابتغاء وجه ربه فهو مخلص فى تقواه واحسانه وفى الآية الارشاد الى ان صاحب التقوى لاينبغى له أن يقبل من الخلق نعمهم وان حصل منهم شيئا بادر الى جزائهم عليه لئلا يبقى لاحد من الخلق عليه نعمة تجزى فيكون بعد ذلك عمله كله لله وحده ليس جزاء المخلوق على نعمته ونبه بقوله تجزى على ان نعمة الاسلام التى لرسول الله صلى الله عليه وسلم على هذا الاتقى لاتجزى فان كل ذى نعمة يمكن جزاء نعمه الا نعمة الاسلام فانها لايمكن المنعم بها عليه أن يجزى بها وهذا يدل على ان الصديق أول وأولى من ذكر فى هذه الآية وانه أحق الامة بها فان عليا رضى الله عنه تربى فى بيت النبى صلى الله عليه وسلم فلرسول الله صلى الله عليه وسلم عنده نعمة غير نعمة الاسلام يمكن أن تجزى ونبه سبحانه بقوله الا ابتغاء وجه ربه الاعلى على ان من ليس لمخلوق عليه نعمة تجزى لايفعل مايفعله الا ابتغاء وجه ربه الاعلى بخلاف من تطرق ذم المخلوقين ومننهم فانه مضطر الى أن يفعل لاجلهم ويترك لاجلهم ولهذا كان من كمال الاخلاص أن لايجعل العبد عليه منة لاحد من الناس لتكون معاملته كلها لله ابتغاء وجهه وطلب مرضاته فكما أن هذه الغايات أعلى وهذا المطلوب أشرف المطالب فهذه الطريق أقصد الطرق اليه وأقربها وأقومها وبالله التوفيق

فصل ومن ذلك اقسامه سبحانه بالضحى والليل اذا سجى على انعامه على رسوله صلى الله عليه وسلم واكرامه له واعطائه مايرضيه وذلك متضمن لتصديقه له فهو قسم على صحة نبوته وعلى جزائه فى الآخرة فهو قسم على النبوة والمعاد وأقسم بآيتين عظيمتين من آياته

دالتين على ربوبيته وحكمته ورحمته وهما الليل والنهار فتأمل مطابقة هذا القسم وهو نور الضحى الذى يوافى بعد ظلام الليل للمقسم عليه وهو نور الوحى الذى وافاه بعد احتباسه عنه حتى قال أعداؤه ودع محمداربه فأقسم بضوء النهار بعد ظلمة الليل على ضوء الوحى ونوره بعد ظلمة احتباسه واحتجابه وأيضافان فالق ظلمة الليل عن ضوء النهار هو الذى فلق ظلمة الجهل والشرك بنور الوحى والنبوة فهذان للحس وهذان للعقل وايضا فان الذى اقتضت رحمته ان لايترك عباده فى ظلمة الليل سرمدا بل هداهم بضوء النهار الى مصالحهم ومعائشهم لايليق به ان يتركهم فى ظلمة الجهل والغى بل يهديهم بنور الوحى والنبوة الى مصالح دنياهم وآخرتهم فتأمل حسن ارتباط المقسم به بالمقسم عليه وتأمل هذه الجزالة والرونق الذى على هذه الالفاظ والجلالة التى على معانيها ونفى سبحانه ان يكون ودع نبيه اوقلاه فالتوديع الترك والقلى البغض فما تركك منذ اعتنى بك واكرمك ولا ابغضك منذ أحبك واطلق سبحانه ان الآخرة خير له من الاولى وهذا يعم كل احواله وان كل حالة يرقيه اليها هى خير له مما قبلها كما ان الدار الآخرة خير له مما قبلها ثم وعده بما تقر به عينه وتفرح به نفسه وينشرح به صدره وهو ان يعطيه فيرضى وهذا يعم مايعطيه من القرآن والهدى والنصر وكثرة الاتباع ورفع ذكره واعلاء كلمته ومايعطيه بعد مماته وما يعطيه فى موقف القيامة ومايعطيه فى الجنة واما مايغتر به الجهال من انه لايرضى وواحد من امته فى النار اولايرضى ان يدخل احد من أمته النار فهذا من غرور الشيطان لهم ولعبه بهم فانه صلوات الله وسلامه عليه يرضى بما يرضى به ربه تبارك وتعالى وهو سبحانه يدخل النار من يستحقها من الكفار والعصاة ثم يحد لرسوله حدا يشفع فيهم ورسوله اعرف به وبحقه من ان يقول لا يرضى ان يدخل احدا من أمتى النار ان يدعه فيها بل ربه تبارك وتعالى يأذن له فيشفع فيمن شاء الله ان يشفع فيه ولايشفع فى غير من اذن له ورضيه ثم ذكر سبحانه نعمه عليه من ايوائه بعد يتمه وهدايته بعد الضلالة واغنائه بعد الفقر فكان محتاجا الى من يؤويه ويهديه ويغنيه فآواه ربه وهداه واغناه فامره سبحانه ان يقابل هذه النعم الثلاث بما يليق بها من الشكر فنهاه ان يقهر اليتيم وان ينهر السائل وان يكتم النعمة بل يحدث بها فأوصاه سبحانه باليتامى والفقراء والمتعلمين قال مجاهد ومقاتل لا تحقر اليتيم فقد كنت يتيما وقال الفراء لاتقهره على ماله فتذهب بحقه لضعفه وكذلك كانت العرب تفعل فى أمر اليتامى تأخذ اموالهم وتظلمهم فغلظ الخطاب فى أمر اليتيم وكذلك من لاناصر له يغلظ فى أمره وهو نهى لجميع المكلفين وأما السائل فلا تنهر قال أكثر المفسرين هو سائل المعروف والصدقة لاتنهره اذا سألك فقد كنت فقيرا فاما أن تطعمه واما أن ترده ردا لينا قال الحسن اما أنه ليس بالسائل الذى يأتيك ولكن طالب العلم وهذا قول يحيى بن آدم قال اذا جاءك طالب العلم فلا تنهره والتحقيق ان الآية تتناول النوعين وقوله وأما بنعمة ربك فحدث قال مجاهد بالقرآن وقال الكلبى يعنى أظهرها والقرآن أعظم ماأنعم الله به عليه فامره أن يقرءه ويعلمه وروى أبو بشر عن مجاهد حدث بالنبوة التى أعطاك الله وقال الزجاج بلغ ما أرسلت به وحدث بالنبوة التى آتاك وهى أجل النعم وقال مقاتل اشكر هذه

النعمة التي ذكرت في هذه السورة والتحقيق ان النعم تم هذا كله فأمر أن لا ينهر سائل المعروف والعلم وان يحدث بنعم الله عليه في الدين والدنيا

﴿ فصل ﴾ ومن ذلك اقسامه سبحانه بالعاديات ضبحا والموريات قدحا فالمغيرات صبحا وقد اختلف الصحابة ومن بعدهم في ذلك فقال علي ابن أبي طالب وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهما هي ابل الحاج تعدو من عرفة الى مزدلفة ومن مزدلفة الى منى وهذا اختيار محمد بن كعب وابن صالح وجماعة من المفسرين وقال عبد الله بن عباس هي خيل الغزاة وهذا قول أصحاب ابن عباس والحسن وجماعة واختاره الفراء والزجاج قال أصحاب الابل السورة مكية ولم يكن ثم جهاد ولا خيل تجاهد وانما اقسم بما يعرفونه ويألفونه وهي ابل الحاج اذا عدت من عرفة الى مزدلفة فهي عاديات والضبح والضبع مد الناقة ضبعها في السير يقال ضبحت وضبعت بمعنى واحد وانشد ابو عبيدة وقد اختار هذا القول

فكان الكم اجرى جمعا واضحت ※ بني البازل الوجناء في الال تضبح

قالوا فهي تعدو ضبحا فتوري باخفافها النار من حك الاحجار بعضها ببعض فتثير النقع وهو الغبار بعدوها فيتوسط جمعا وهو المزدلفة قال أصحاب الخيل المعروف في اللغة ان الضبح اصوات انفاس الخيل اذا عدون والمعنى والعاديات ضابحة فيكون ضبحا مصدرا على الاول وحالا على الثاني قالوا والخيل هي التي تضبح في عدوها ضبحا وهو صوت يسمع من اجوافها ليس بالصهيل والحمحمة ولكن صوت انفاسها في اجوافها من شدة العدو وقال الجرجاني كلا القولين قد جاء في التفسير الا ان السياق يدل على انها الخيل وهو قوله تعالى فالموريات قدحا والايراء لا يكون الا للحافر لصلابته واما الخف ففيه لين واسترخاء انتهى قالوا والضبح في الخيل اظهر منه في الابل والايراء لسنابك الخيل ابين منه لاخفاف الابل قالوا والنقع هو الغبار واثارة الخيل بعدوها له اظهر من اثارة اخفاف الابل والضمير في به عائد على المكان الذي تعدو فيه قالوا واعظم ما يثير الغبار عند الاغارة اذا توسطت الخيل جمع العدو لكثرة حركتها واضطرابها في ذلك المكان واما جمل الآية في اثارة الغبار في وادي محسر عند الافاضة فليس بالبين ولا يثور هناك غبار في الغالب لصلابة المكان قالوا وأما قولكم انه لم يكن بمكة حين نزول الآية جهاد ولا خيل تجاهد فهذا لا يلزم لانه سبحانه أقسم بما يعرفونه من شأن الخيل اذا كانت في غزو فاغارت فأثارت النقع وتوسطت جمع العدو وهذا امر معروف وذكر خيل المجاهدين احق ما دخل في هذا الوصف فذكره على وجه التمثيل لا الاختصاص فان هذا شأن خيل المقاتلة وأشرف انواع الخيل خيل المجاهدين والقسم انما وقع بما تضمنه شأن هذه العاديات من الآيات البينات من خلق هذا الحيوان الذي هو من اكرم البهائم واشرفه وهو الذي يحصل به العز والظفر والنصر على الاعداء فيعدو طالبا للعدو وهاربا منه فيثير بعدوها الغبار لشدته وتوري حوافرها وسنابكها النار من الاحجار لشدة عدوها فتدرك الغارة التي طلبتها حتى يتوسط جمع الاعداء فهذا من اعظم آيات الرب تعالى وادلة قدرته وحكمته فذكرهم بنعمه عليهم في خلق هذا الحيوان الذي ينتصرون به على اعدائهم ويدركون به ثارهم كما ذكرهم سبحانه بنعمه عليهم في خلق الابل التي تحمل اثقالهم من بلد الى بلد فالابل اخص بحمل الاثقال والخيل اخص

بنصرة الرجال فذكرهم بنعمه بهذا وهذا وخص الاغارة بالصبح لان العدو لم ينتشروا اذ ذاك ولم يفارقوا محالهم واصحاب الاغارة حاموا مستريحون يبصرون مواقع الغارة والعدو لم يأخذوا اهبتهم بل هم في غرتهم وغفلتهم ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم اذا اراد الغارة صبر حتى يطلع الفجر فان سمع مؤذنا امسك والا أغار ولما علم اصحاب الابل ان اخفافها ابعد شيء من ورى النار تأولوا الآية على وجوه بعيدة فقال محمد بن كعب هم الحاج اذا أوقدوا نيرانهم ليلة المزدلفة وعلى هذا فيكون التقدير فالجماعات الموريات وهذا خلاف الظاهر وانما الموريات هي العاديات وهي المغيرات وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس هم الذين يغيرون فيورون بالليل نيرانهم لطعامهم وحاجتهم كأنهم اخذوه من قوله تعالى افرايتم النار التي تورون وهذا ان اريد به التمثيل وان الآية تدل عليه فصحيح وان اريد به اختصاص الموريات فليس كذلك لان الموريات هي العاديات بعينها ولهذا عطفها عليها بالفاء التي للتسبب فانها عدت فأورت وقال قتادة الموريات هي الخيل تورى نار العداوة بين المقتتلين وهذا ليس بشيء وهو بعيد من معنى الآية وسياقها واضعف منه قول عكرمة هي الالسنة تورى نار العداوة بعظيم ما تتكلم به واضعف منه ماذكر عنه مجاهد هي افكار الرجال تورى نار المكر والخديعة في الحرب وهذه الاقوال ان اريد ان اللفظ دل عليها وانها هي المراد فغلط وان اريد أنها اخذت من طريق الاشارة والقياس فامرها قريب وتفسير الناس يدور على ثلاثة اصول تفسير على اللفظ وهو الذي ينحو اليه المتأخرون وتفسير على المعنى وهو الذي يذكره السلف وتفسير على الاشارة والقياس وهو الذي ينحو اليه كثير من الصوفية وغيرهم وهذا لا بأس به بأربعة شرائط ان لا يناقض معنى الآية وان يكون معنى صحيحا في نفسه وان يكون في اللفظ اشعار به وان يكون بينه وبين معنى الآية ارتباط وتلازم فاذا اجتمعت هذه الامور الاربعة كان استنباطا حسنا واضعف من ذلك كله قول ابن جريج قدحا يعني فالمنجحات أمر ايريد البالغين بنجحهم فيما طلبوه وعطف قوله فاثرن فوسطن وهما فعلان على العاديات والموريات لما فيه من معنى الفعل وكان ذكر الفعل في أثرن ووسطن احسن من ذكر الاسم لانه سبحانه قسم افعالنا الى قسمين وسيلة وغاية فالوسيلة هي العدو وما يتبعه من الايراء والاغارة والغاية هي توسط الجمع وما يتبعه من اثارة النقع فهن عاديات موريات مغيرات حتى يتوسطن الجمع ويثرن النقع فالاول شأنهن الذي اعددن له والثاني فعلهن الذي انتهين اليه والله اعلم

❊ فصل ❊ فهذا شأن القسم وأما شأن المقسم عليه فهو حال الانسان وهو كون الانسان كنودا بشهادته على نفسه أو شهادة ربه عليه وكونه بخيلا بحبه المال والكنود للنعمة وفعله كند يكند كنودا مثل كفر يكفر كفورا والارض الكنود التي لا تنبت شيأ وامرأة كندى اي كفور للمعاشرة واصل اللفظ منع الحق والخير ورجل كنود اذا كان مانعا لما عليه من الحق وعبارات المفسرين تدور على هذا المعنى قال ابن عباس رضي الله عنهما وأصحابه رحمهم الله تعالى هو الكفور وقيل هو البخيل الذي يمنع رفده ويجيع عبده ولا يعطي في النائبة وقال الحسن هو هو اللوام لربه يعد المصائب وينسى النعم وأما قوله وانه على ذلك لشهيد فقال ابن عباس يريد ان ربه على ذلك لشهيد وقيل ان الانسان لشهيد على ذلك ان أنكر بلسانه شهد ربه عليه حاله ويؤيد هذا القول سياق الضمائر فان قوله وانه لحب الخير لشديد للانسان

فافتتح الخبر عن الانسان بكونه كنودا ثم ثناه بكونه شهيدا على ذلك ثم ختمه بكونه بخيلا بماله لحبه اياه ويؤيده قول ابن عباس رضي الله عنهما انه أي يعلى فقال وانه على ذلك لشهيد اي مطلع عالم به كقوله ثم الله شهيد على مايفعلون ولو اريد شهادة الانسان لأتى بالباء فقيل وانه بذلك لشهيد كما قال تعالى ما كان للمشركين ان يعمروا مساجد الله شاهدين على انفسهم بالكفر فلو أراد شهادة الانسان لقال وانه على نفسه لشهيد فان كنوده المشهود به ونفسه هي المشهود عليها ثم قال تعالى وانه لحب الخير لشديد والخير ههنا المال باتفاق المفسرين والشديد البخيل من أجل حب المال فحب المال هو الذي حمله على البخل هذا قول الاكثرين وقال ابن قتيبة بل المعنى انه لشديد الحب للخير فتكون اللام في قوله لحب الخير متعلقة بقوله لشديد على حد قولك انه لزيد لضارب ومنعت طائفة من النحاة أن يعمل ما بعد اللام فيما قبلها وهذه الآيات حجة على الجواز فان قوله لربه معمول لكنود وقوله على ذلك معمول لشهيد ولا وجه لتكلف البارد في تقدير عامل مقدم محذوف يفسره هذا المذكور فالحق جواز ان لزيد لضارب فوصف سبحانه الانسان بكفران نعم ربه وبخله بما آتاه من الخير فلا هو شكور للنعم ولا محسن الى خلقه بل بخيل بشكره بخيل بماله وهذا ضد المؤمن الكريم فانه مخلص لربه محسن الى خلقه فالمؤمن له الاخلاص والاحسان والفاجر له الكفر والبخل وقد ذم الله سبحانه هذين الخلقين المهلكين في غير موضع من كتابه كقوله فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراؤن ويمنعون الماعون فالاخلاص والاحسان وكذلك قوله تعالى والله لا يحب كل مختال فخور الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله فاختياله وفخره من كفره وكنوده وهذا ضد قوله الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون وقوله واعبدوا الله ولا تشركوا به شيأ وبالوالدين احسانا الآية وكذلك ذكر الخلقين الذميين في قوله الذين ينفقون اموالهم رآء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ونظيره وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله ونظيره ما تقدم في سورة الليل من ذم المستغني البخيل ومدح المعطي المصدق بالحسنى وويل لكل همزة لمزة الذي جمع مالا وعدده فان الهمزة واللمزة من الفخر والكبر وجمع المال وتعديده من البخل وذلك مناف لسر الصلاة والزكاة ومقصودهما ثم خوف سبحانه الانسان الذي هذا وصفه حين يبعثر ما في القبور ويحصل ما في الصدور اي ميز وجمع وبين واظهر ونحو ذلك وجمع سبحانه بين القبور والصدور كما جمع بينهما النبي صلى الله عليه وسلم في قوله ملأ الله أجوافهم وقبورهم نارا فان الانسان يواري صدره ما فيه من الخير والشر ويواري قبره جسمه فيخرج الرب جسمه من قبره وسره من صدره فيصير جسمه بارزا على الارض وسره باديا على وجهه كما قال تعالى يعرف المجرمون بسيماهم وقال سنسمه على الخرطوم

﴿ فصل ﴾ ومفعول العلم ان علقت فيه وكسرت لمكان اللام وقيد سبحانه كونه خبيرا بهم ذلك اليوم وهو خبير بهم في كل وقت ايذانا بالجزاء وانه يجازيهم في ذلك اليوم بما يعلمه منهم فذكر العلم والمراد لازمه والله سبحانه وتعالى اعلم

﴿ فصل ﴾ ومن ذلك اقسامه بالعصر على حال الانسان في الآخرة وهذه السورة على غاية

اختصارها لهاشأن عظيم حتى قال الشافعي رحمه الله لو فكر الناس كلهم فيها لكفتهم والعصر المقسم به قيل هو اول الوقت الذي يلي المغرب من النهار وقيل هو آخر ساعة من ساعاته وقيل المراد صلاة العصر واكثر المفسرين على انه الدهر وهذا هو الراجح وتسمية الدهر عصرا امر معروف في لغتهم قال ولن يلبث العصران يوم وليلة * اذا طلبا ان يدركا ما تيمما
ويوم وليلة بدل من العصران فاقسم سبحانه بالعصر لمكان العبرة والآية فيه فان مرور الليل والنهار على تقدير قدرة العزيز العليم منتظم لمصالح العالم على اكمل ترتيب ونظام وتعاقبهما واعتدالهما تارة واخذ أحدهما من صاحبه تارة واختلافهما في الضوء والظلام والحر والبرد وانتشار الحيوان وسكونه وانقسام العصر الى القرون والسنين والاشهر والايام والساعات وما دونها آية من آيات الرب تعالى وبرهان من براهين قدرته وحكمته فاقسم بالعصر الذي هو زمان افعال الانسان ومحلها على عاقبة تلك الافعال وجزائها ونبه بالمبدأ وهو خلق الزمان والفاعلين وأفعالهم على المعاد وان قدرته كما لم تقصر عن المبدأ لم تقصر عن المعاد وان حكمته التي اقتضت خلق الزمان وخلق الفاعلين وافعالهم وجعلها قسمين خير او شرا تأبى ان يسوي بينهم وان لا يجازي المحسن باحسانه والمسيء باساءته وان يجعل النوعين رابحين او خاسرين بل الانسان من حيث هو انسان خاسر الامن رحمه الله فهداه ووفقه للايمان والعمل الصالح في نفسه وامر غيره به وهذا نظير رده الانسان الى اسفل سافلين واستثناء الذين آمنوا وعملوا الصالحات من هؤلاء المردودين وتأمل حكمة القرآن لما قال ان الانسان لفي خسر ضيق الاستثناء وخصصه فقال الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ولما قال ثم رددناه اسفل سافلين وسع الاستثناء وعممه فقال الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ولم يقل وتواصوا فان التواصي هو امر الغير بالايمان والعمل الصالح وهو قدر زائد على مجرد فعله فمن لم يكن كذلك فقد خسر هذا الربح فصار في خسر ولا يلزم ان يكون في اسفل سافلين فان الانسان قد يقوم بما يجب عليه ولا يأمر غيره فان الامر بالمعروف والنهي عن المنكر مرتبة زائدة وقد تكون فرضا على الاعيان وقد تكون فرضا على الكفاية وقد يكون مستحبا والتواصي بالحق يدخل فيه الحق الذي يجب والحق الذي يستحب والصبر يدخل فيه الصبر الذي يجب والصبر الذي يستحب فهؤلاء اذا تواصوا بالحق وتواصوا بالصبر حصل لهم من الربح ما خسره أولئك الذين قاموا بما يجب عليهم في أنفسهم ولم يأمروا غيرهم به وان كان أولئك لم يكونوا من الذين خسروا أنفسهم وأهليهم فطلق الخسار شيء والخسار المطلق شيء وهو سبحانه انما قال ان الانسان لفي خسر ومن ربح في سلعة وخسر في غيرها قد يطلق عليه انه في خسر وانه ذو خسر كما قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما لقد فرطنا في قراريط كثيرة فهذا نوع تفريط وهو نوع خسر بالسنة الى من حصل ربح ذلك ولما قال في سورة والتين ثم رددناه أسفل سافلين قال الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فقسم الناس في هذين القسمين فقط ولما كان الانسان له قوتان قوة العلم وقوة العمل وله حالتان حالة يأتمر فيها بأمر غيره وحالة يأمر فيها غيره استثنى سبحانه من كل قوته العلمية بالايمان وقوته العملية بالعمل الصالح وانقياد لامر غيره له بذلك وأمر غيره به من الانسان الذي هو في خسر فان العبد له حالتان حالة كمال في نفسه وحالة تكميل لغيره

وكماله وتكميله موقوف على أمر بن علم بالحق وصبر عليه فتضمنت الآية جميع مراتب الكمال الانسانى من العلم النافع والعمل الصالح والاحسان الى نفسه بذلك والى أخيه به وانقياده وقبوله لمن يأمره بذلك وقوله تعالى وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ارشاد الى منصب الامامة فى قوة الدين كقوله تعالى وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون فبالصبر واليقين تنال الامامة فى الدين والصبر نوعان نوع بالمقدور كالمصائب ونوع بالمشروع وهذا النوع أيضا نوعان صبر على الاوامر وصبر عن النواهى فذاك صبر على الارادة والفعل وهذا صبر عن الارادة والفعل فاما النوع الاول من الصبر فمشترك بين المؤمن والكافر والبر والفاجر لا يثاب عليه لمجرده ان لم يقترن به ايمان واختيار قال النبى صلى الله عليه وسلم فى حق ابنته مرها فلتصبر ولتحتسب وقال تعالى الا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير وقال تعالى بلى ان تصبروا وتتقوا وقال وان تصبروا وتتقوا فالصبر بدون الايمان والتقوى بمنزلة قوة البدن الخالى من الايمان والتقوى وعلى حسب اليقين بالمشروع يكون الصبر على المقدور وقال تعالى فاصبر ان وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون فأمره أن يصبر ولا يتشبه بالذين لا يقين عندهم فى عدم الصبر فانهم لعدم يقينهم عدم صبرهم وخفوا واستخفوا قومهم ولو حصل لهم اليقين والحق وخفوا واستخفوا فمن قل يقينه قل صبره ومن قل صبره خف واستخف فالموقن الصابر رزين لانه ذو لب وعقل ومن لا يقين له ولا صبر خفيف طائش تلعب به الاهواء والشهوات كما تلعب الرياح بالشئ الخفيف والله المستعان

﴿فصل﴾ ومن ذلك اقسامه سبحانه بالسماء ذات البروج التى تنزلها الشمس والقمر وفسرت بالنجوم أو نوع منها وفسرت بالقصور العظام وكل ذلك من آيات قدرته وشواهد وحدانيته فان السماء كرة متشابهة الاجزاء والشكل الكرى لا يتميز منه جانب عن جانب بطول ولا قصر ولا وضع بل هو متساوى الجوانب فجعل هذه البروج فى هذه الكرة على اختلاف صورها وأشكالها ومقاديرها يستحيل ان يوجد بغير فاعل ويستحيل ان يكون فاعله غير قادر ولا عالم ولا مريد ولا حى ولا حكيم ولا مباين للمفعول وهذا ونحوه مما هدم قواعد الطبائعية والملاحدة والفلاسفة الذين لا يثبتون للعالم ربا بائنا قادرا فاعلا بالاختيار عالما بتفاصيله حكيما مدبرا له فبروج السماء هى منازلها او منازل السيارة التى فيها من اعظم آياته سبحانه فلهذا أقسم بها مع السماء ثم اقسم باليوم الموعود وهو يوم القيامة وهو المقسم به وعليه كما ان القرآن يقسم به وعليه ودال على وقوع اليوم الموعود باتفاق جميع الرسل عليه وبما عرفه عباده من حكمته وعزته التى تأبى ان يتركهم سدى ويخلقهم عبثا وبغير ذلك من الآيات والبراهين التى يستدل بها سبحانه على امكانه تارة وعلى وقوعه تارة وعلى تنزيهه عما يقول اعداؤه من انه لا يأتى به تارة فالاقسام به عند من آمن بالله كالاقسام بالسماء وغيرها من الموجودات المشاهدة بالعيان ثم اقسم سبحانه بالشاهد والمشهود مطلقين غير معينين واعم المعانى فيه أنه المدرك والمدرك والعالم والمعلوم والرائى والمرئى وهذا أليق المعانى به وما عداه من الاقوال ذكرت على وجه التمثيل لا على وجه التخصيص فان قيل فما وجه الارتباط بين هذه الامور الثلاثة المقسم بها قيل هى بحمد الله فى غاية الارتباط والاقسام بها متناول لكل موجود فى الدنيا والآخرة وكل منها آية مستقلة دالة على ربوبيته وآلهيته

(فاقسم)

فأقسم بالعالم العلوى وهى السماء ومافيهامن البروج التى هى أعظم الامكنة واوسعها ثم أقسم بأعظم الايام واجلها قدرا الذى هو مظهر ملكه وأمره ونهيه وثوابه وعقابه ومجمع اوليائه واعدائه والحكم بينهم بعلمه وعدله ثم اقسم بما هو اعم من ذلك كله وهو الشاهد والمشهود وناسب هذا القسم ذكر اصحاب الاخدود الذين عذبوا اولياءه وهم شهود على مايفعلون بهم والملائكة شهود عليهم بذلك والانبياء وجوارحهم تشهد به عليهم وأيضا فالشاهد هو المطلع والرقيب والخبير والمشهود وهو المطلع عليه المخبر به المشاهد فن نوع الخليقة الى شاهد ومشهود وهو اقدر القادرين كانوعها الى مرئى لنا وغير مرئى كما قال فلا اقسم بما تبصرون ومالاتبصرون كانوعها الى أرض وسماء وليل ونهار وذكر وأنثى وهذا التنويع والاختلاف من آياته سبحانه كذلك نوعها الى شاهد ومشهود وفيه سر آخر وهوان من المخلوقات ماهو مشهود عليه ولايتم نظام العالم الابذلك فكيف يكون المخلوق شاهدا رقيبا حفيظا على غيره ولايكون الخالق تبارك وتعالى شاهدا على عباده مطلعا عليهم رقيبا وأيضا فان ذلك يتضمن القسم بملائكته وأنبيائه ورسله فانهم شاهدون على العباد فيكون من باب اتحاد القسم به والمقسم عليه كما أقسم باليوم الموعود وهو المقسم به وعليه وأيضا فيوم القيامة مشهود كما قال تعالى ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود يشهده الله وملائكته والانس والجن والوحش من آياته والمشهود من آياته وايضا فكلامه مشهود كما قال تعالى وقرآن الفجر ان قرآن الفجر كان مشهودا تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار فالمشهود من أعظم آياته وكذلك الشاهد فكل ماوقع عليه اسم شاهد ومشهود فهو داخل فى هذا القسم فلاوجه لتخصيصه ببعض الانواع اوالاعيان الاعلى سبيل التمثيل وايضا فكتاب الابرار فى عليين يشهده المقربون فالكتاب مشهود والمقربون شاهدون والاحسن ان يكون هذا القسم مستغنيا عن الجواب لان القصد التنبيه على المقسم به وانه من آيات الرب العظيمة ويبعد ان يكون الجواب قتل أصحاب الاخدود الذين فتنوا اولياءه وعذبوهم بالنار ذات الوقود ثم وصف حالهم القبيحة بأنهم قعود على جانب الاخدود شاهدين ما يجرى على عباد الله تعالى واوليائه عيانا ولاتأخذهم بهم رأفة ولارحمة ولايعيبوا عليهم دينا سوى ايمانهم بالله العزيز الحميد الذى له ملك السموات والارض وهذا الوصف يقتضى اكرامهم وتعظيمهم ومحبتهم فعاملوهم بضد مايقتضى ان يعاملوا به وهذا شأن اعداء الله دائما ينقمون على اوليائه ماينبغى ان يحبوا ويكرموا لاجله كما قال تعالى قل ياأهل الكتاب هل تنقمون مناالاان آمنابالله وماانزل الينا وماانزل من قبل وان اكثركم فاسقون وكذلك اللوطية نقموامن عباد الله تنزيههم عن مثل فعلهم فقالوا أخرجوهم من قريتكم انهم اناس يتطهرون وكذلك اهل الاشراك ينقمون من الموحدين تجريدهم التوحيد واخلاص الدعوة والعبودية لله وحده وكذلك اهل البدع ينقمون من اهل السنة تجريد متابعتها وترك ماخالفها وكذلك المعطلة ينقمون من اهل الاثبات اثباتهم لله صفات كماله ونعوت جلاله وكذلك الرافضة ينقمون على اهل السنة محبتهم للصحابة جميعهم وترضيهم عنهم وولايتهم اياهم وتقديم من قدمه رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم وتنزيلهم منازلهم

التي أنزلهم الله ورسوله بها وكذلك أهل الرأي المحدث ينقمون على أهل الحديث وحزب الرسول أخذهم بحديثه وتركهم ماخالفه وكل هؤلاء لهم نصيب وفيهم شبه من أصحاب الاخدود وبينهم نسب قريب أو بعيد ثم أخبر سبحانه انما أعد لهم عذاب جهنم وعذاب الحريق حيث لم يتوبوا وأنهم لو تابوا بعد أن فتنوا أولياءه وعذبوهم بالنار لغفر لهم ولم يعذبهم وهذا غاية الكرم والجود قال الحسن انظروا الى هذا الكرم والجود يقتلون أولياءه ويفتنونهم وهو يدعوهم الى التوبة والمغفرة انظروا الى كرم الرب تعالى يدعوهم الى التوبة وقد فتنوا أولياءه فحرقوهم بالنار فلا ييأس العبد من مغفرته وعفوه ولو كان منه ما كان فلا عداوة أعظم من هذه العداوة ولا أكفر ممن حرق بالنار من آمن بالله وحده وعبده وحده ومع هذا فلو تابوا لم يعذبهم وألحقهم بأوليائه ثم ذكر سبحانه جزاء أوليائه المؤمنين ثم ذكر شدة بطشه وأنه لا يعجزه شيء فانه هو المبدئ المعيد ومن كان كذلك فلا أشد من بطشه وهو مع ذلك الغفور الودود يغفر لمن تاب اليه ويوده ويحبه فهو سبحانه الموصوف بشدة البطش ومع ذلك الغفور الودود المتودد الى عباده بنعمه الذي يود من تاب اليه وأقبل عليه وهو الودود أيضا أي المحبوب قال البخاري في صحيحه الودود الحبيب والتحقيق أن اللفظ يدل على الامرين على كونه وادا لاوليائه مودودا لهم فأحدهما بالوضع والآخر باللزوم فهو الحبيب المحب لاوليائه يحبهم ويحبونه وقال شعيب ان ربي رحيم ودود وما ألطف اقتران اسم الودود بالرحيم وبالغفور فان الرجل قد يغفر لمن أساء ولا يحبه وكذلك قد يرحم من لا يحب والرب تعالى يغفر لعبده اذا تاب اليه ويرحمه ويحبه مع ذلك فانه يحب التوابين واذا تاب اليه عبده أحبه ولو كان منه ما كان ثم قال ذو العرش فأضاف العرش الى نفسه كما يضاف اليه الاشياء العظيمة الشريفة وهذا يدل على عظمة العرش وقربه منه سبحانه واختصاصه به بل يدل على غاية القرب والاختصاص كما يضيف الى نفسه بذو صفاته القائمة به كقوله ذو القوة ذو الجلال والاكرام ويقال ذو العزة وذو الملك وذو الرحمة ونظائر ذلك فلو كان حظ العرش منه حظ الارض السابعة لكان لافرق أن يقال ذو العرش وذو الارض ثم وصف نفسه بالمجيد وهو المتضمن لكثرة صفات كماله وسعتها وعدم احصاء الخلق لها وسعة أفعاله وكثرة خيره ودوامه وأما من ليس له صفات كمال ولا افعال حميدة فليس له من المجد شيء والمخلوق انما يصير مجيدا بأوصافه وأفعاله فكيف يكون الرب تبارك وتعالى مجيدا وهو معطل عن الاوصاف والافعال تعالى الله عما يقول المعطلون علوا كبيرا بل هو المجيد الفعال لما يريد والمجد في لغة العرب كثرة أوصاف الكمال وكثرة أفعال الخير واحسن ماقرن اسم المجيد الى الحميد كما قالت الملائكة لبيت الخليل رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت انه حميد مجيد وكما شرع لنا في آخر الصلاة ان نثني على الرب تعالى بأنه حميد مجيد وشرع في آخر الركعة عند الاعتدال أن نقول ربنا ولك الحمد أهل الثناء والمجد فالحمد والمجد على الاطلاق لله الحميد المجيد فالحميد الحبيب المستحق لجميع صفات الكمال والمجيد العظيم الواسع القادر الغني ذو الجلال والاكرام ومن قرأ المجيد بالكسر فهو صفة لعرشه سبحانه واذا كان عرشه مجيدا فهو سبحانه أحق بالمجد وقد استشكل هذه القراءة بعض الناس وقال لم يسمع في صفات الخلق مجيد ثم

خرجها على أحد الوجهين اما على الجواز واما أن يكون صفة لربك وهذا من قلة بضاعة هذا القائل فان الله سبحانه وصف عرشه بالكرم وهو نظير المجد ووصفه بالعظمة فوصفه سبحانه مطابق لوصفه بالعظمة والكرم بل هو أحق المخلوقات أن يوصف بذلك لسعته وحسنه وبهاء منظره فانه أوسع كل شئ في المخلوقات وأجله واجمعه لصفات الحسن وبهاء المنظر وعلو القدر والرتبة والذات ولا يقدر قدر عظمته وحسنه وبهاء منظره الا الله ومجده مستفاد من مجد خالقه ومبدعه والسموات السبع والارضون السبع في الكرسي الذي بين يديه كحلقة ملقاة في أرض فلاة والكرسي فيه كتلك الحلقة في الفلاة قال ابن عباس السموات السبع في العرش كسبعة دراهم جعلن في ترس فكيف لا يكون مجيدا وهذا شأنه فهو عظيم كريم مجيد وأما تكلف هذا المتكلف جره الى الجواز أو انه صفة لربك فتكلف شديد وخروج عن المألوف في اللغة من غير حاجة الى ذلك وقوله فعال لما يريد دليل على أمور أحدها انه سبحانه يفعل بارادته ومشيئته الثاني انه لم يزل كذلك لانه ساق ذلك في معرض المدح والثناء على نفسه وأن ذلك من كماله سبحانه فلا يجوز أن يكون عادما لهذا الكمال في وقت من الاوقات وقد قال تعالى أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون وما كان من أوصاف كماله ونعوت جلاله لم يكن حادثا بعد أن لم يكن الثالث أنه اذا اراد شيئا فعله فان ما موصولة عامة اي يفعل كل ما يريد أن يفعله وهذا في ارادته المتعلقة بفعله واما ارادته المتعلقة بفعل العبد فتلك لها شأن آخر فان أراد فعل العبد ولم يرد من نفسه ان يعينه ويجعله فاعلا لم يوجد الفعل وان اراده حتى يريده من نفسه ان يجعله فاعلا وهذه هي النكتة التي خفيت على القدرية والجبرية وخبطوا في مسئلة القدر لغفلتهم عنها فان هنا ارادتين ارادة أن يفعل العبد وارادة أن يجعله الرب فاعلا وليستا متلازمتين وان لزم من الثانية الاولى من غير عكس فمتى أراد من نفسه أن يعين عبده وان يخلق له أسباب الفعل فقد أراد فعله وقد يريد فعله ولا يريد من نفسه ان يخلق له أسباب الفعل فلا يوجد الفعل فان اعتاص عليك فهم هذا الموضع وأشكل عليك فانظر الى قول النبي صلى الله عليه وسلم حاكيا عن ربه قوله للعبد يوم القيامة قد أردت منك أهون من هذا وأنت في صلب أبيك أن لا تشترك بي شيئا ولم يقع هذا المراد لانه لم يرد من نفسه اعانته عليه وتوفيقه له الرابع ان فعله سبحانه وارادته متلازمان فما أراد أن يفعله فعله وما فعله فقد أراده بخلاف المخلوق فانه يريد ما لا يفعل وقد يفعل ما لا يريد فما ثم فعال لما يريد الا الله وحده الخامس اثبات ارادة متعددة بحسب الافعال وان كل فعل له ارادة تخصه وهذا هو المعقول في الفطر وهو الذي يعقله الناس من الارادة فشأنه تعالى انه يريد على الدوام ويفعل ما يريد السادس أن كل ما صح أن يتعلق به ارادته جاز فعله فاذا أراد أن ينزل كل ليلة الى سماء الدنيا وأن يجئ يوم القيامة لفصل القضاء وان يرى نفسه لعباده وأن يتجلى لهم كيف شاء وأن يخاطبهم ويضحك اليهم وغير ذلك مما يريد سبحانه لم يمتنع عليه فعله فانه فعال لما يريد وانما يتوقف صحة ذلك على اخبار الصادق به فاذا أخبر به وجب التصديق به وكان رده ردا لكماله الذي أخبر به عن نفسه وهذا عين الباطل وكذلك اذا أمكن ارادته سبحانه محو ما شاء واثبات ما شاء أمكن فعله وكانت الارادة والفعل من مقتضيات كماله المقدس وقد

اشتملت هذه السورة على اختصارها من التوحيد على وصفه سبحانه بالعزة المتضمنة للقدرة والقوة وعدم النظير والحمد المتضمن لصفات الكمال والتنزيه عن أضدادها مع محبته والهيته وملكه السموات والارض المتضمن لكمال غناه وسعة ملكه وشهادته على كل شيء المتضمن لعموم اطلاعه على ظواهر الامور وبواطنها واحاطة بصره بمرئياتها وسمعه بمسموعاتها وعلمه بمعلوماتها ووصفه شدة البطش المتضمن لكمال القوة والعزة والقدرة وتفرده بالابداء والاعادة المتضمن لتوحيد ربوبيته وتصرفه فى المخلوقات بالابداء والاعادة وانقياده لقدرته فلا يستعصى عليه منها شيء ووصفه بالمغفرة المتضمن لكمال جوده واحسانه وغناه ورحمته ووصفه بالودود المتضمن لكونه حبيبا الى عباده محبا لهم ووصفه بأنه ذو العرش الذى لايقدر قدره سواه وأن عرشه المختص به الذى لايليق بغيره أن يستوى عليه ووصفه بالمجد المتضمن لسعة العلو والقدرة والملك والغنى والجود والاحسان والكرم وكونه فعالا لما يريد المتضمن لحياته وعلمه وقدرته ومشيئته وحكمته وغير ذلك من أوصاف كماله فهذه السورة كتاب مستقل فى أصول الدين تكفى من فهمها فالحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب وتبارك الذى نزل الفرقان على عبده ثم ختمها بذكر فعله وعقوبته عن اشرك به وكذب رسله تحذيرا لعباده من سلوك سبيلهم وان من فعل فعلهم فعل به كما فعل بهم ثم أخبر عن أعدائه بأنهم مكذبون بتوحيده ورسالاته مع كونهم فى قبضته وهو محيط بهم ولا أسوء حالا عن عادى من هو فى قبضته ومن هو قادر عليه من كل وجه وبكل اعتبار فقال بل الذين كفروا فى تكذيب والله من ورائهم محيط فهذا أعجب ممن كفر عن هو محيط به وآخذ بناصيته قادر عليه ثم وصف كلامه بأنه مجيد وهو أحق بالمجد من كل كلام كان المتكلم به له المجد كله فهو المجيد وكلامه مجيد وعرشه مجيد قال ابن عباس رضي الله عنهما قرآن مجيد كريم لان كلام الرب ليس هو كما يقول الكافرون شعر وكهانة وسحر وقد تقدم ان المجد السعة وكثرة الخير وكثرة خير القرآن لايعلمها الا من تكلم به وقوله فى لوح محفوظ أكثر القراء على الجر صفة للوح وفيه اشارة الى ان الشياطين لايمكنهم التنزل به لان محله محفوظ أن يصلوا اليه وهو فى نفسه محفوظ أن يقدر الشيطان على الزيادة فيه والنقصان فوصفه سبحانه بأنه محفوظ فى قوله انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون ووصف محله بالحفظ فى هذه السورة فالله سبحانه حفظ محله وحفظه من الزيادة والنقصان والتبديل وحفظ معانيه من التحريف كما حفظ ألفاظه من التبديل وأقام له من يحفظ حروفه من الزيادة والنقصان ومعانيه من التحريف والتغيير

❁ فصل ❁ ومن ذلك اقسامه سبحانه بالسماء والطارق وقد فسره بأنه النجم الثاقب الذى يثقب ضوؤه والمراد به الجنس لانجم معين ومن عينه بأنه الثريا أو زحل فان أراد التمثيل فصحيح وان أراد التخصيص فلا دليل عليه والمقصود انه سبحانه أقسم بالسماء ونجومها المضيئة وكل منها آية من آياته الدالة على وحدانيته وسمى النجم طارقا لانه يظهر بالليل بعد اختفائه بضوء الشمس فشبه بالطارق الذى يطرق الناس أو أهله ليلا قال الفراء ما أتاك ليلا فهو طارق وقال الزجاج والمبرد لايكون الطارق نهارا ولهذا تستعمل العرب الطروق

فى صفة الخيال كثيرا كما قال ذو الرمة

ألا طرقت مى هيوما بذكرها * وأيدى الثريا جنح بالمغارب

وقال جرير

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا * وقت الزيارة فارجعى بسلام

ولهذا قيل أول من رد الطيف جرير فلم يزل الناس على قبوله وإكرامه كالضيف فالطيف والضيف كلاهما لا يرد وقال الآخر

ألا طرقت من آخر الليل زينب * عليك سلام هل لما فات مطلب

﴿ فصل ﴾ والمقسم عليه ههنا حال النفس الانسانية والاعتناء بها وإقامة الحفظة عليها وانها لم تترك سدى بل قد ارصد عليها من يحفظ عليها أعمالها ويحصيها فأقسم سبحانه انه ما من نفس الا عليها حافظ من الملائكة يحفظ عملها وقولها ويحصى ما تكسب من خير أو شر واختلف القراء فى لما فشددها بعضهم وخففها بعضهم فمن قرأها بالتشديد جعلها بمعنى الا وهى تكون بمعنى الا فى موضعين احدهما بعد ان المخففة مثل هذا الموضع أو المثقلة مثل قوله وان كلا لما ليوفينهم ربك أعمالهم والثانى فى باب القسم نحو سألتك بالله لما فعلت قال أبو على الفارسى من خفف كانت عنده هى المخففة من الثقيلة واللام فى خبرها هى الفارقة بين ان النافية والخفيفة وما زائدة وان هى التى يتلقى بها القسم كما يتلقى بالمثقلة ومن قرأها مشددة كانت ان عنده نافية بمعنى ما ولما فى معنى الا قال سيبويه عن الخليل فى قولهم نشدتك بالله لما فعلت قال المعنى الا فعلت ثم نبه سبحانه الانسان على دليل المعاد بما يشاهده من حال مبدئه على طريقة القرآن فى الاستدلال على المعاد بالمبدأ فقال فلينظر الانسان مم خلق اى فلينظر نظر الفكر والاستدلال ليعلم ان الذى ابتدأ أول خلقه من نطفة قادر على اعادته ثم اخبر سبحانه أنه خلقه من ماء دافق والدفق صب الماء يقال دفقت الماء فهو مدفوق ودافق ومندفق فالمدفوق الذى وقع عليه فعلك كالمكسور والمضروب والمندفق المطاوع لفعل الفاعل يقول دفقته فاندفق كما تقول كسرته فانكسر والدافق قيل انه فاعل بمعنى مفعول كقولهم سر كاتم وعيشة راضية وقيل هو على النسب لا على الفعل أى ذى دفق وذات ولم يرد الجريان على الفعل وقيل وهو الصواب انه اسم فاعل على بابه ولا يلزم من ذلك أن يكون هو فاعل الدفق فان اسم الفاعل هو من قام به الفعل سواء فعله هو أو غيره كما يقال ماء جار ورجل ميت وان لم يفعل الموت بل لما قام به من الموت نسب اليه على جهة الفعل وهذا غير منكر فى لغة أمة من الامم فضلا عن أوسع اللغات وأفصحها وأما العيشة الراضية فالوصف بها أحسن من الوصف بالمرضية فانها اللائقة بهم فشبه ذلك برضاها بهم كما رضوا بها كأنها رضيت بهم ورضوا بها وهذا أبلغ من مجرد كونها مرضية فقط فتأمله واذا كانوا يقولون الوقت الحاضر والساعة الراهنة وان لم يفعلا ذلك فكيف يمتنع ان يقولوا ماء دافق وعيشة راضية ونبه سبحانه بكونه دافقا على انه ضعيف غير متماسك ثم ذكر محله الذى يخرج منه وهو بين الصلب والترائب قال ابن عباس صلب الرجل وترائب المرأة وهو موضع القلادة من صدرها والولد يخلق من الماءين جميعا وقيل صلب الرجل وترائبه وهى صدره فيخرج من صلبه وصدره وهذه

الآية الدالة على قدرة الخالق سبحانه فنظير اخراجه اللبن الخالص من بين الفرث والدم ثم ذكر الامر المستدل عليه والمعاد بقوله انه على رجعه لقادر اى على رجعه اليه يوم القيامة كما هو قادر على خلقه من ماء هذا شأنه هذا هو الصحيح فى معنى الآية وفيها قولان ضعيفان أحدهما قول مجاهد على رد الماء فى الاحليل لقادر والثانى قول عكرمة والضحاك على رد الماء فى الصلب وفيها قول ثالث قال مقاتل ان شئت رددته من الكبر الى الشباب ومن الشباب الى الصبا الى النطفة والقول الصواب هو الاول لوجوه أحدها انه هو المعهود من طريقة القرآن من الاستدلال بالمبدأ على المعاد الثانى ان ذلك أدل على المطلوب من القدرة على رد الماء فى الاحليل الثالث انه لم يأت لهذا المعنى فى القرآن نظير فى موضع واحد ولا انكره أحد حتى يقيم سبحانه الدليل عليه الرابع انه قيد الفعل بالظرف وهو قوله يوم تبلى السرائر وهو يوم القيامة اى ان الله قادر على رجعه اليه حيا فى ذلك اليوم الخامس ان الضمير فى رجعه هو الضمير فى قوله فماله من قوة ولا ناصر وهذا للانسان قطعا لا للماء السادس انه لا ذكر للاحليل حتى يتعين كون المرجع اليه فلو قال قائل على رجعه الى الفرج الذى صب فيه لم يكن فرق بينه وبين هذا القول ولم يكن أولى منه السابع ان رد الماء الى الاحليل أو الصلب بعد خروجه منه غير معروف ولا هو أمر معتاد جرت به القدرة وان كان مقدورا للرب تعالى ولكن هو لم يجره ولم تجر به العادة ولا هو مما تكلم الناس فيه نفيا أو اثباتا ومثل هذا لا يقرره الرب ولا يستدل عليه ويبينه على منكريه وهو سبحانه انما يستدل على أمر واقع ولا بد اما قد وقع ووجد أو سيقع فان قيل فقد قال تعالى أيحسب الانسان أن لن نجمع عظامه بلى قادرين على ان نسوى بنانه أن نجعله كخف البعير قيل هذه ايضا فيها قولان أحدهما هذا والثانى وهو الارجح أن تسوية بنانه اعادتها كما كانت بعد ما فرقها البلى فى التراب الثامن أنه سبحانه دعى الانسان الى النظر فيما خلق منه ليرده نظره عن تكذيبه بما أخبر به وهو لم يخبره بقدرة خالقه على رد الماء فى احليله بعد مفارقته له حتى يدعوه الى النظر فيما خلق منه ليستفتح منه صحة امكان رد الماء التاسع انه لا ارتباط بين النظر فى مبدأ خلقه ورد الماء فى الاحليل بعد خروجه ولا تلازم بينهما حتى يجعل احدهما دليلا على امكان الآخر بخلاف الارتباط الذى بين المبدأ والمعاد والخلق الاول والخلق الثانى والنشأة الاولى والنشأة الثانية فانه ارتباط من وجوه عديدة ويلزم من امكان احدهما امكان الآخر ومن وقوعه صحة وقوع الآخر فحسن الاستدلال باحدهما على الآخر العاشر انه سبحانه نبه بقوله ان كل نفس لما عليها حافظ على انه قد وكل عليه من يحفظ عليه عمله ويحصيه فلا يضيع منه شئ ثم نبه بقوله انه على رجعه لقادر على بعثه لجزائه على العمل الذى حفظ واحصى عليه فذكر شأن مبدأ عمله ونهايته فبدؤه محفوظ عليه ونهايته الجزاء عليه ونبه على هذا بقوله يوم تبلى السرائر أى تختبر وقال مقاتل تظهر وتبدو وبلوت الشئ اذا خبرته ليظهر لك باطنه وما خفى منه والسرائر جمع سريرة وهى سرائر الله التى بينه وبين عبده فى ظاهره وباطنه لله فالايمان من السرائر وشرائعه من السرائر فتختبر ذلك اليوم حتى يظهر خيرها من شرها ومؤداها من مضيعها وما كان لله مما لم يكن له قال عبد الله ابن عمر رضى الله عنهما يبدى الله يوم

القيامة كل سر فيكون زينا في الوجوه وشينا فيها والمعنى تختبر السرائر باظهارها واظهار مقتضياتها من الثواب والعقاب والحمد والذم وفي التعبير عن الاعمال بالسر لطيفة وهو ان الاعمال نتائج السرائر الباطنة فمن كانت سريرته صالحة كان عمله صالحا فتبدو سريرته على وجهه نورا واشراقا وحياء ومن كانت سريرته فاسدة كان عمله تابعا لسريرته لا اعتبار بصورته فتبدو سريرته على وجهه سوادا وظلمة وشينا وان كان الذى يبدو عليه في الدنيا انما هو عمله لا سريرته فيوم القيامة تبدو عليه سريرته ويكون الحكم والظهور لها قال الشاعر

ستبلى لها في مضمر القلب والحشا * سريرة حب يوم تبلى السرائر

ثم اخبر سبحانه عن حال الانسان في يوم القيامة أنه غير ممتنع من عذاب الله لا بقوة منه ولا بقوة من خارج وهو الناصر فان العبد اذا وقع في شدة فاما ان يدفعها بقوته او قوة من ينصره وكلاهما معدوم في حقه ونظيره قوله سبحانه لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم منا يصحبون ثم أقسم سبحانه بالسماء ذات الرجع والارض ذات الصدع فاقسم بالسماء ورجعها بالمطر والارض وصدعها بالنبات قال الفراء تبتدي بالمطر ثم ترجع به في كل عام وقال أبو اسحق الرجع المطر لانه يجيء ويرجع ويتكرر وكذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما يعني بالمطر ثم ترجع به في كل عام والتحقيق أن هذا على وجه التمثيل ورجع السماء هو اعطاء الخير الذى يكون من جهتها حالا بعد حال على مرور الأزمان ترجعه رجعا اى تعطيه مرة بعد مرة والخير كله من قبل السماء يجيء ولما كان اظهر الخير المشهود بالعيان المطر فسر الرجع به وحسن تفسيره به مقابلته بصدع الارض عن النبات وفسر الصدع بالنبات لانه يصدع الارض اى يشقها فاقسم سبحانه بالسماء ذات المطر والارض ذات النبات وكل من ذلك آية من آيات الله تعالى الدالة على ربوبيته واقسم على كون القرآن حقا وصدقا فقال انه لقول فصل وما هو بالهزل كما أقسم في اول السورة على حال الانسان في مبدئه ومعاده والقول الفصل هو الذى يفصل بين الحق والباطل فيميز هذا من هذا ويفصل بين الناس فيما اختلفوا فيه ومصيب الفصل الذى ينفصل عنده المراد ويتميز من غيره كما يقال اصاب الفصل واصاب المرء اذا اصاب بكلامه نفس المعنى المراد ومنه فصل الخطاب وأيضا فالقول الفصل بيان المعنى ضد الاجمال فكون القرآن فصلا يتضمن هذه المعاني كلها ويتضمن كونه حقا ليس بالباطل وجدا ليس بالهزل ولما كان الهزل هو الذى لا حقيقة له وهو الباطل واللعب قابل بين الفصل والهزل وانما يكيد المكذبون ويحتالون ويخادعون لردهم ولا يردونه بحجة والله يكيدهم كما يكيدون دينه ورسوله وعباده وكيده سبحانه استدراجهم من حيث لا يعلمون والاملاء لهم حتى يأخذهم على غرة كما قال تعالى وأملي لهم ان كيدي متين فالانسان اذا أراد أن يكيد غيره يظهر له اكرامه واحسانه اليه حتى يطمئن اليه فيأخذه كما يفعل الملوك فاذا فعل ذلك أعداء الله بأوليائه ودينه كان كيد الله لهم حسنا لاقبح فيه فيعطيهم ويعافيهم وهو يستدرجهم حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذهم بغتة ثم قال فمهل الكافرين أمهلهم رويدا أى أنظرهم قليلا ولا تستعجل لهم والرب تعالى هو الذى يمهلهم وانما خرج الخطاب للرسول على جهة التهديد والوعيد لهم او على معنى انتظر بهم قليلا ورويد في كلامهم يكون اسم فعل فينتصب بها الاسم نحو رويدا زيدا أى خله وأمهله وارفق به

الثانى ان يكون مصدرا مضافا الى المفعول نحو ورويد زيد أى امهال زيد نحو ضرب الرقاب الثالث ان يكون نعتا منصوبا نحو قولك ساروا رويدا تقول العرب ضعه رويدا أى وضعا رويدا وفى حديث عائشة فى خروج النبى صلى الله عليه وسلم بالليل من عندها الى البقيع فخرج رويدا واجاف الباب رويدا ويجوز فى هذا الوجه وجهان احدهما ان يكون حالا والثانى ان يكون نعتا لمصدر محذوف فان اظهرت المنعوت تعين الوجه الثانى ورويد فى هذه الآية هو من هذا النوع الثالث والله أعلم

﴿ فصل ﴾ ومن ذلك اقسامه بالشفق والليل وما وسق والقمر اذا اتسق فأقسم بثلاثة أشياء متعلقة بالليل أحدها الشفق وهو فى اللغة الحمرة بعد غروب الشمس الى وقت صلاة العشاء الآخرة وكذلك هو فى الشرع قال الفراء والليث والزجاج وغيرهم الشفق الحمرة فى السماء وأصل موضوع الحرف لرقة الشئ ومنه شئ شفق لا تماسك له لرقته ومنه الشفقة وهو الرقة وأشفق عليه اذا رق له وأهل اللغة يقولون الشفق بقية ضوء الشمس وحمرتها ولهذا كان الصحيح أن الشفق الذى يدخل وقت العشاء الآخرة بغيبوبته هو الحمرة فان الحمرة لما كانت بقية ضوء الشمس جعل بقاؤها حد الوقت المغرب فاذا ذهبت الحمرة بعدت الشمس عن الافق فدخل وقت العشاء وأما البياض فانه يتمد وقته بطول لبثه ويكون حاصلا مع بعد الشمس عن الافق ولهذا صح عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه قال الشفق الحمرة والعرب تقول ثوب مصبوغ كأنه الشفق اذا كان احمر حكاه الفراء وكذلك قال الكلبى الشفق الحمرة التى تكون فى المغرب وكذلك قال مقاتل هو الذى يكون بعد غروب الشمس فى الافق قبل الظلمة وقال عكرمة هو بقية النهار وهذا يحتمل ان يريد به ان تلك الحمرة بقية ضوء الشمس التى هى آية النهار وقال مجاهد هو النهار كله وهذا ضعيف جدا وكأنه لما رآه قابله بالليل وما وسق ظن انه النهار وهذا ليس بلازم الثانى قسمه بالليل وما وسق أى وما ضم وحوى وجمع والليل وما ضمه وحواه آية أخرى والقمر آية واتساقه آية أخرى والشفق يتضمن ادبار النهار وهو آية واقبال الليل وهو آية أخرى فان هذا اذا أدبر خلفه الآخر يتما قبان لمصالح الخلق فادبار النهار آية واقبال الليل آية وتعقب أحدهما الآخر آية والشفق الذى هو متضمن الامرين آية والليل آية وما حواه آية والهلال آية وتزايده كل ليلة آية واتساقه وهو امتلاؤه نورا آية ثم اخذه فى النقص آية وهذه وامثالها آيات دالة على ربوبيته مستلزمة للعلم بصفات كماله ولهذا شرع عند اقبال الليل وادبار النهار ذكر الرب تعالى بصلاة المغرب وفى الحديث اللهم هذا اقبال ليلك وادبار نهارك وأصوات دعاتك وحضور صلواتك كما شرع ذكر الله بصلاة الفجر عند ادبار الليل واقبال النهار ولهذا يقسم سبحانه بهذين الوقتين كقوله والليل اذا أدبر والصبح اذا أسفر وهو يقابل اقسامه بالشفق ونظير اقسامه بالليل اذا عسعس والصبح اذا تنفس ولما كان الرب تبارك وتعالى يحدث عند كل واحد من طرفى اقبال الليل والنهار وادبارهما ما يحدثه ويبث من خلقه ماشاء فينتشر الارواح الشيطانية عند اقبال الليل وينتشر الارواح الانسانية عند اقبال النهار فيحدث هذا الانتشار فى العالم اثره شرع سبحانه فى هذين الوقتين

هاتين الصلاتين العظيمتين مع مافى ذلك من ذكره عندهاتين الآيتين المتعاقبتين وعنداصرام احداهما واتصال الاخرى بها مع مابينهما من التضاد والاختلاف وانتقال الحيوان عندذلك من حال الى حال ومن حكم الى حكم وذلك مبدأ ومعاد يومى مشهود للخليقة كل يوم وليلة فالحيوان والنبات فى مبدأ ومعاد وزمان العالم فى مبدأ ومعاد أولم يروا كيف يبدأ الله الخلق ثم يعيده ان ذلك على الله يسير

﴿ فصل ﴾ وقوله لتركبن طبقا عن طبق الظاهر انه جواب القسم ويجوز ان يكون من القسم المحذوف جوابه ولتركبن ومابعده مستأنف وقرئ لتركبن بضم الباء للجمع وبفتحها فمن فتحها فالخطاب عنده للانسان اى لتركبن أيها الانسان وقيل هو النبى صلى الله عليه وسلم خاصة وقيل ليست الباء للخطاب ولكنها للغيبة أى لتركبن السماء طبقا عن طبق ومن ضمها فالخطاب للجماعة ليس الا فمن جعل الكناية للسماء قال المعنى لتركبن السماء حالا بعد حال من حالاتها التى وصفها الله تعالى من الانشقاق والانفطار والطى وكونها كالمهل مرة وكالدهان مرة ومورانها وتفضها وغير ذلك من حالاتها وهذا قول عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ودل على السماء ذكر الشفق والقمر وعلى هذا فيكون قسما على المعاد وتغيير العالم ومن قال الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم فله ثلاث معان لتركبن سماء بعد سماء حتى تنتهى الى حيث يصعدك الله هذا قول ابن عباس فى رواية مجاهد وقول مسروق والشعبى قالوا والسماء طبق ولهذا يقال للسموات السبع الطباق والمعنى الثانى لتصعدن درجة بعد درجة ومنزلة بعد منزلة ورتبة بعد رتبة حتى تنتهى الى محل القرب والزلفى من الله والمعنى الثالث لتركبن حالا بعد حال من الاحوال المختلفة التى نقل الله فيها رسوله صلى الله عليه وسلم من الهجرة والجهاد ونصره على عدوه وادالة العدو عليه تارة وغناه وفقره وغير ذلك من حالاته التى تنقل فيها الى أن بلغ ما بلغه اياه ومن قال الخطاب للانسان أو لجملة الناس فالمعنى واحد وهو تنقل الانسان حالا بعد حال من حين كونه نطفة الى مستقره من الجنة او النار فكم بين هذين من الاطباق والاحوال للانسان واقوال المفسرين كلها تدور على هذا قال ابن عباس رضى الله عنهما لتصيرن الامور حالا بعد حال وقيل لتركبن ايها الانسان حالا بعد حال من النطفة الى العلقة الى المضغة الى كونه حيا الى خروجه الى هذه الدار ثم ركوبه طبق التمييز بين ما ينفعه ويضره ثم ركوبه بعد ذلك طبقا آخر وهو طبق البلوغ ثم ركوبه طبق الاشد ثم طبق الشيخوخة ثم طبق الهرم ثم ركوبه طبق ما بعد فى البرزخ وركوبه فى أثناء هذه الاحوال اطباقا عديدة لايزال ينتقل فيها حالا بعد حال الى دار القرار فذلك آخر أطباقه التى يعلمها العباد ثم يفعل الله سبحانه بعد ذلك ما يشاء واختار ابو عبيدة قراءة الضم وقال المعنى بالناس اشبه منه بالنبى صلى الله عليه وسلم فانه ذكر قبل الآية من يؤتى كتابه بيمينه وشماله ثم ذكر بعدها قوله فالهم لايؤمنون فذكر كونهم طبقا بعد طبق قال الواحدى وهذا قول اكثر المفسرين قالوا لتركبن حالا بعد حال ومنزلا بعد منزل وامرا بعد امر قال سعيد بن جبير وابن زيد لتكونن فى الآخرة بعد الاولى ولتصيرن اغنياء بعد الفقر وفقراء بعد الغناء وقال عطاء شدة بعد شدة وقال ابو عبيدة لتركبن سنة من كان قبلكم فى التكذيب والاختلاف على الرسل وانت اذا تأملت هذا القسم به

والمقسم عليه وجدته من اعظم الآيات الدالة على الربوبية وتغيير الله سبحانه العالم وتصريفه له كيف اراد ونقله اياه من حال الى حال وهذا محال ان يكون بنفسه من غير فاعل مدبر له ومحال ان يكون فاعله غير قادر ولا حي ولا مريد ولا حكيم ولا عليم وكلاهما في الامتناع سواء فالمقسم به وعليه من اعظم الادلة على ربوبيته وتوحيده وصفات كماله وصدقه وصدق رسله وعلى المعاد ولهذا عقب ذلك بقوله فما لهم لا يؤمنون انكارا على من لم يؤمن بعد ظهور هذه الآيات المستلزمة لمدلولها أتم استلزام وانكر عليهم عدم خضوعهم وسجودهم للقرآن المشتمل على ذلك بأفصح عبارة وأبينها واجزلها وأوجزها فالمعنى اشرف معنى والعبارة أشرف عبارة غاية الحق بغاية البيان والفصاحة بل الذين كفروا يكذبون ولا يصدقون بالحق جحودا وعنادا والله أعلم بما يضمرون في صدورهم ويكتمونه وما يسرونه من أعمالهم وما يجمعونه فيجازيهم عليه بعلمه وعدله الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم اجر غير ممنون

﴿ فصل ﴾ ومن ذلك قوله سبحانه فلا اقسم بالخنس الجوار الكنس والليل اذا عسعس والصبح اذا تنفس اقسم سبحانه بالنجوم في احوالها الثلاثة من طلوعها وجريانها وغروبها هذا قول علي وابن عباس وعامة المفسرين وهو الصواب والخنس جمع خانس الانقباض والاختفاء ومنه سمي الشيطان خناسا لانقباضه وانكماشه حين يذكر العبد ربه ومنه قول ابي هريرة فانخنست والكنس جمع كانس وهو الداخل في كناسه اي في بيته ومنه تكنست المرأة اذا دخلت في هودجها ومنه كنست الظباء اذا أوت الى اكناسها والجواري جمع جارية كغاشية وغواش قال علي ابن ابي طالب رضي الله عنه النجوم تخنس بالنهار وتظهر بالليل وهذا قول مقاتل وعطاء وقتادة وغيرهم قالوا الكواكب تخنس بالنهار فتختفي ولا ترى وتكنس في وقت غروبها ومعنى تخنس على هذا القول تتأخر عن البصر وتتوارى عنه باخفاء النهار لها وفيه قول آخر وهو ان خنوسها رجوعها وهي حركتها الشرقية فان لها حركتين حركة بفعلها وحركة بنفسها فخنوسها حركتها بنفسها راجعة وعلى هذا فهو قسم بنوع من الكواكب وهي السيارة وهذا قول الفراء وفيه قول ثالث وهو ان خنوسها وكنوسها اختفاؤها وقت مغيبها فتغيب في مواضعها التي تغيب فيها وهذا قول الزجاج ولما كان للنجوم حال ظهور وحال اختفاء وحال جريان وحال غروب أقسم سبحانه بها في احوالها كلها ونبه بخنوسها حال ظهورها لان الخنوس هو الاختفاء بعد الظهور ولا يقال لم لا يزال مختفيا انه قد خنس فذكر سبحانه جريانها وغروبها صريحا وخنوسها وظهورها واكتفى من ذكر طلوعها بجريانها الذي مبدؤه الطلوع فالطلوع اول جريانها فتضمن القسم طلوعها وغروبها وجريانها واختفاءها وذلك من آياته ودلائل ربوبيته وليس قول من فسرها بالظباء وبقر الوحش بالظاهر لوجوه احدها ان هذه الاحوال في الكواكب السيارة أعظم آية وعبرة الثاني اشتراك أهل الارض في معرفته بالمشاهدة والعيان الثالث ان البقر والظباء ليست لها حالة تختفي فيها عن العيان مطلقا بل لا تزال ظاهرة في الفلوات الرابع ان الذين فسروا الآية بذلك قالوا ليس خنوسها من الاختفاء قال الواحدي هو من الخنس في الانف وهو تأخر الارنبة وقصر القصبة والبقر والظباء أنوفهن خنس والبقرة خنساء والظبي أخنس ومنه سميت الخنساء لخنس أنفها ومعلوم ان هذا أمر خفي

يحتاج الى تأمل وأكثر الناس لا يعرفونه وآيات الرب التي يقسم بها لا تكون الا ظاهرة جلية يشترك في معرفتها الخلائق وليس الخنس في أنف البقرة والظباء بأعظم من الاستواء والاعتدال في أنف ابن آدم فالآية فيه أظهر الخامس ان كنوسها في اكنتها ليس بأعظم من دخول الطير وسائر الحيوانات في بيته الذي يأوي فيه ولا أظهر منه حتى تعين للقسم السادس انه لو كان جمعا للظبي لقال الخنس بالتسكين لانه جمع أخنس فهو كأحمر وحمر ولو أريد به جمع بقرة خنساء لكان على وزن فعلاء ايضا كحمراء وحمر فلما جاء جمعه على فعل بالتشديد استحال أن يكون جمعا لواحد من الظباء والبقر وتعين ان يكون جمعا لخانس كشاهد وشهد وصائم وصوم وقائم وقوم ونظائرها السابع انه ليس بالبين اقسام الرب تعالى بالبقر والغزلان وليس هذا عرف القرآن ولا عادته وانما يقسم سبحانه من كل جنس بأعلاه كما أنه لما أقسم بالنفوس أقسم بأعلاها وهي النفس الانسانية ولما أقسم بكلامه أقسم بأشرفه وأجله وهو القرآن ولما اقسم بالعلويات أقسم بأشرفها وهي السماء وشمسها وقمرها ونجومها ولما أقسم بالزمان اقسم بأشرفه وهو الليالي العشر واذا أراد سبحانه ان يقسم بغير ذلك ادرجه في العموم كقوله فلا اقسم بما تبصرون وما لا تبصرون وقوله والذكر والانثى في قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحو ذلك الثامن ان اقتران القسم بالليل والصبح يدل على انها النجوم والاليس بالائق اقتران البقر والغزلان والليل والصبح في قسم واحد وبهذا احتج ابو اسحق على انها النجوم فقال هذا أليق بذكر النجوم منه بذكر الوحش التاسع انه لو اراد ذلك سبحانه لبينه وذكر مايدل عليه كما انه لما اراد بالجواري السفن قال ومن آياته الجوار في البحر كالاعلام وهنا ليس في اللفظ ولا في السياق مايدل على انها البقر والظباء وفيه مايدل على انها النجوم من الوجوه التي ذكرناها وغيرها العاشر ان الارتباط الذي بين النجوم التي هي هداية للسالكين ورجوم للشياطين وبين المقسم عليه وهو القرآن الذي هو هدى للعالمين وزينة للقلوب وداحض لشبهات الشيطان اعظم من الارتباط الذي بين البقر والظباء والقرآن والله اعلم

﴿ فصل ﴾ واختلف في عسعسة الليل هل هي اقباله ام ادباره فالاكثرون على ان عسعس بمعنى ولى وذهب وادبر هذا قول علي وابن عباس واصحابه وقال الحسن اقبل بظلامه وهو احدى الروايتين عن مجاهد فمن رجح الاقبال قال اقسم الله سبحانه وتعالى باقبال الليل واقبال النهار فقوله والصبح اذا تنفس مقابل لليل اذا عسعس قالوا ولهذا أقسم الله بالليل اذا يغشى والنهار اذا تجلى وبالضحى قالوا فغشيان الليل نظير عسعسته وتجلي النهار نظير تنفس الصبح اذ هو مبدؤه وأوله ومن رجح انه ادباره احتج بقوله تعالى كلا والقمر والليل اذ أدبر والصبح اذا أسفر فأقسم بادبار الليل واسفار الصبح وذلك نظير عسعسة الليل وتنفس الصبح قالوا والاحسن أن يكون القسم بانصرام الليل واقبال النهار فانه عقيبه من غير فصل فهذا اعظم في الدلالة والعبرة بخلاف اقبال الليل واقبال النهار فانه لم يعرف القسم في القرآن بهما ولان بينهما زمنا طويلا فالآية في انصرام هذا ومجئ الآخر عقيبه بغير فصل ابلغ فذكر سبحانه حالة ضعف هذا وادباره وحالة قوة هذا وتنفسه واقباله بطرد ظلمة الليل بتنفسه فكلما تنفس هرب الليل وادبر بين يديه وهذا هو القول والله أعلم

﴿ فصل ﴾ ثم ذكر سبحانه المقسم عليه وهو القرآن وأخبر انه قول رسول كريم وهو ههنا جبريل قطعا لانه ذكر صفته بعد ذلك بما يعينه به واما الرسول الكريم فى الحاقة فهو محمد صلى الله عليه وسلم لانه نفى بعده ان يكون قول من زعم من أعدائه انه قوله فقال وماهو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلا ماتذكرون فاضافه الى الرسول الملكى تارة والى البشرى تارة واضافته الى كل واحد من الرسولين اضافة بتبليغ الاضافة انشاء من عنده والا تناقضت النسبتان ولفظ الرسول يدل على ذلك فان الرسول هو الذى يبلغ كلام من أرسله وهذا صريح فى انه كلام من ارسل جبريل ومحمدا صلى الله عليه وسلم وان كلا منهما بلغه عن الله فهو قوله مبلغا وقول الله الذى تكلم به حقا فلا راحة لمن انكر ان يكون الله متكلما بالقرآن وهو كلامه حقا فى هاتين الآيتين بل هما من اظهر الادلة على كونه كلام الرب تعالى وانه ليس للرسولين الكريمين منه الا التبليغ فجبريل سمعه من الله ومحمد صلى الله عليه وسلم سمعه من جبريل ووصف رسوله الملكى فى هذه السورة بأنه كريم قوى مكين عند الرب تعالى مطاع فى السموات أمين فهذه خمس صفات تتضمن تزكية سند القرآن وانه سماع محمد من جبريل وسماع جبريل من رب العالمين فناهيك بهذا السند علوا وجلالة قول الله سبحانه بنفسه تزكيته الصفة الاولى كون الرسول الذى جاء به الى محمد صلى الله عليه وسلم كريما ليس كما يقول اعداؤه ان الذى جاء به شيطان فان الشيطان خبيث مخبث لئيم قبيح المنظر عديم الخير باطنه اقبح من ظاهره وظاهره اشنع من باطنه وليس فيه ولا عنده خير فهو ابعد شئ عن الكرم والرسول الذى القى القرآن الى محمد صلى الله عليه وسلم كريم جميل المنظر بهى الصورة كثير الخير طيب مطيب معلم الطيبين وكل خير فى الارض من هدى وعلم ومعرفة وايمان وبر فهو مما اجراه ربه على يده وهذا غاية الكرم الصورى والمعنوى الوصف الثانى انه ذو قوة كما قال فى موضع آخر علمه شديد القوى وفى ذلك تنبيه على امور احدها انه بقوته يمنع الشياطين ان تدنو منه وان ينالوا منه شيئا وان يزيدوا فيه وينقصوا منه بل اذا رآه الشيطان هرب منه ولم يقرب به الثانى انه موال لهذا الرسول الذى كذبتموه ومعاضد له وموادله وناصر كما قال تعالى وان تظاهرا عليه فان الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير ومن كان هذا القوى وليه ومن انصاره واعوانه ومعلمه فهو المهدى المنصور والله هاديه وناصره الثالث ان من عادى هذا الرسول فقد عادى صاحبه ووليه جبريل ومن عادى ذا القوة والشدة فهو عرضة للهلاك الرابع انه قادر على تنفيذ ما امر به لقوته فلا يعجز عن ذلك مؤدله كما أمر به لامانته فهو القوى الامين واحد كما اذا انتدب غيره فى امر من الامور لرسالة أو ولاية او وكالة او غيرها فانما ينتدب لها القوى عليه الامين على فعله وان كان ذلك الامر من اهم الامور عنده انتدب له قويا امينا معظما ذا مكانة عنده مطاعا فى الناس كما وصف عبده جبريل بهذه الصفات وهذا يدل على عظمة شأن المرسل والرسول والرسالة والمرسل اليه حيث انتدب له الكريم القوى المكين عنده المطاع فى الملأ الاعلى الامين حق الامين فان الملوك لاترسل فى مهماتها الا الاشراف ذوى الاقدار والرتب العالية وقوله عند ذى العرش مكين اى له مكانة ووجاهة عنده وهو أقرب الملائكة اليه وفى قوله عند ذى العرش اشارة الى علو منزلة جبريل اذ كان قريبا من ذى العرش سبحانه وفى قوله مطاع ثم اشارة

الى أن جنوده واعوانه يطيعونه اذا ندبهم لنصر صاحبه وخليله محمد صلى الله عليه وسلم وفيه اشارة أيضا الى أن هذا الذى تكذبونه وتعادونه سيصير مطاعا فى الارض كما أن جبريل مطاع فى السماء وان كلا من الرسولين مطاع فى محله وقومه وفيه تعظيم له بأنه بمنزلة الملوك المطاعين فى قومهم فلم ينتدب لهذا الامر العظيم الا مثل هذا الملك المطاع وفى وصفه بالامانة اشارة الى حفظه ما حمله وأدائه له على وجهه ثم نزه رسوله البشرى وزكاه عما يقول فيه أعداؤه فقال وما صاحبكم بمجنون وهذا أمر يعلمونه ولا يشكون فيه وان قالوا بألسنتهم خلافه فهم يعلمون انهم كانوا كاذبين ثم أخبر عن رؤيته صلى الله عليه وسلم لجبريل وهذا يتضمن انه ملك موجود فى الخارج يرى بالعيان ويدرك بالبصر لا كما يقوله المتفلسفة ومن قلدهم انه العقل الفعال وانه ليس مما يدرك بالبصر وحقيقته عندهم انه خيال موجود فى الاذهان لا فى الاعيان وهذا مما خالفوا به جميع الرسل وأتباعهم وخرجوا به عن جميع الملل ولهذا كان تقرير رؤية النبى صلى الله عليه وسلم لجبريل أهم من تقرير رؤيته لربه تعالى فان رؤيته لجبريل هى أصل الايمان الذى لا يتم الا باعتقادها ومن أنكرها كفر قطعا وأما رؤيته لربه تعالى فغايتها أن تكون مسئلة نزاع لا يكفر جاحدها بالاتفاق وقد صرح جماعة من الصحابة بأنه لم يره وحكى عثمان بن سعيد الدارمى اتفاق الصحابة على ذلك فنحن الى تقرير رؤيته لجبريل احوج منا الى تقرير رؤيته لربه تعالى وان كانت رؤية الرب أعظم من رؤية جبريل ومن دونه فان النبوة لا يتوقف ثبوتها عليها ألبتة ثم نزه رسوليه كليهما احدهما بطريق النطق والثانى بطريق اللزوم عما يضاد مقصود الرسالة من الكتمان الذى هو الضنة والبخل والتبديل والتغيير الذى يوجب التهمة فقال وما هو على الغيب بضنين فان الرسالة لا يتم مقصودها الا بأمرين اداؤها من غير كتمان واداؤها على وجهها من غير زيادة ولا نقصان والقراءتان كالآيتين فتضمنت أحداهما وهى قراءة الضاد تنزيهه عن البخل فان الضنين البخيل يقال ضننت به اضن بوزن بخلت به ابخل ومعناه ومنه قول جميل بن معمر

أجود بمضنون التلاد واننى * بسرك عمن سالنى لضنين

قال ابن عباس رضى الله عنهما ليس ببخيل بما انزل الله وقال مجاهد لا يضن عليهم بما يعلم وأجمع المفسرون على ان الغيب ههنا القرآن والوحى وقال الفراء يقول تعالى يأتيه غيب السماء وهو منفوس فيه فلا يضن به عليكم وهذا معنى حسن جدا فان عادة النفوس الشح بالشئ النفيس ولا سيما عمن لا يعرف قدره ويذمه ويذم من هو عنده ومع هذا فهذا الرسول لا يبخل عليكم بالوحى الذى هو أنفس شئ وأجله وقال ابو على الفارسى المعنى يأتيه الغيب فيبينه ويخبر به ويظهره ولا يكتمه كما يكتم الكاهن ما عنده ويخفيه حتى يأخذ عليه حلوانا وفيه معنى آخر وهو أنه على ثقة من الغيب الذى يخبر به فلا يخاف ان ينتقض ويظهر الامر بخلاف ما اخبر به كما يقع للكهان وغيرهم ممن يخبر بالغيب فان كذبهم اضعاف صدقهم واذا اخبر احدهم بخبر لم يكن على ثقة منه بل هو خائف من ظهور كذبه فاقدام هذا الرسول على الاخبار بهذا الغيب العظيم الذى هو اعظم الغيب واثباته مقيما عليه مبديا له فى كل مجمع ومعيدا مناديا به على صدقه مستجلبا به لاعدائه من اعظم الادلة على صدقه واما قرأ من قرأ بظنين بالظاء فمعناه المتهم يقال ظننت زيدا بمعنى اتهمته وليس من الظن

الذي هو الشعور والادراك فان ذلك يتعدى الى مفعولين ومنه ما انشده ابو عبيدة

اما وكتاب الله لا عن شناءة * هجرت ولكن المحب ظنين

والمعنى وما هذا الرسول على القرآن بمتهم بل هو أمين لا يزيد فيه ولا ينقص وهذا يدل على ان الضمير يرجع الى محمد صلى الله عليه وسلم لانه قد تقدم وصف الرسول الملكي بالامانة ثم قال وما صاحبكم بمجنون ثم قال وما هو أي وما صاحبكم بمتهم ولا بخيل واختار ابو عبيدة قراءة الظاء لمعنيين احدهما ان الكفار لم يبخلوه وانما اتهموه فنفي التهمة اولى من نفي البخل الثاني انه قال على الغيب ولو كان المراد البخل لقال بالغيب لانه يقال فلان ضنين بكذ او قل ما يقال على كذا قلت ويرجحه انه وصفه بما وصف به رسوله الملكي من الامانة فنفى عنه التهمة كما وصف جبريل بأنه أمين ويرجحه ايضا انه سبحانه نفي اقسام الكذب عن كلها عما جاء به من الغيب فان ذلك لو كان كذبا فاما ان يكون منه او من علمه وان كان منه فاما ان يكون تعمده أو لم يتعمده فان كان من معلمه فليس هو بشيطان رجيم وان كان منه مع التعمد فهو المتهم ضد الامين وان كان عن غير تعمد فهو المجنون فنفى سبحانه عن رسوله ذلك كله وزكى سند القرآن أعظم تزكية فلهذا قال سبحانه وما هو بقول شيطان رجيم اي ليس تعليم الشيطان ولا يقدر عليه ولا يحسن منه كما قال تعالى وما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم وما يستطيعون فنفى فعله وابتغاءه منهم وقدرتهم عليه وكل من له ادنى خبرة بأحوال الشياطين والجانين والمتهمين واحوال الرسل يعلم علما ضروريا لا يمارى فيه ولا يشك بل علما ضروريا كسائر الضروريات منافاة أحدهما للآخر ومضادته له كمنافاة أحد الضدين لصاحبه بل ظهور المنافاة بين الامرين للعقل ابين من ظهور المنافاة بين النور والظلمة للبصر ولهذا اوبخ سبحانه من كفر بعد ظهور هذا الفرق المبين بين دعوة الرسل ودعوة الشياطين فقال أين تذهبون قال ابو اسحق فأي طريق تسلكون أبين من هذه الطريقة التي بينت لكم قلت هذا من احسن اللازم وابينه ان تبين للسامع الحق ثم تقول له ايش تقول خلاف هذا واين تذهب خلاف هذا قال تعالى فبأي حديث بعده يؤمنون وقال فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون فالامر منحصر في الحق والباطل والهدى والضلال فاذا صد لتم عن الهدى والحق فأين العدول واين المذهب ونظير هذا قوله فهل عسيتم ان توليتم ان تفسدوا في الارض وتقطعوا ارحامكم أي ان أعرضتم عن الايمان بالقرآن والرسول وطاعته فليس الا الفساد في الارض والشرك والمعاصي وقطيعة الرحم ونظيره قوله تعالى بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريج لما تركوا الحق وعدلوا عنه مرج عليهم امرهم والتبس فلا يدرون ما يقولون وما يفعلون بل لا يقولون شيئا الا كان باطلا ولا يفعلون شيئا الا كان ضائعا غير نافع لهم وهذا شأن كل من خرج عن الطريق الموصل الى المقصود ونظيره قوله تعالى فان لم يستجيبوا لك فاعلم انما يتبعون أهواءهم وقد كشف هذا المعنى كل الكشف بقوله عزوجل فذلكم الله ربكم الحق فاذا بعد الحق الا الضلال فأنى تصرفون

﴿ فصل ﴾ ثم اخبر تعالى عن القرآن بأنه ذكر للعالمين وفي موضع آخر تذكرة للمتقين وفي موضع آخر ذكر لرسوله صلى الله عليه وسلم ولقومه وفي موضع آخر ذكر مطلق

وفي موضع آخر ذكر مبارك وفي موضع آخر وصفه بأنه ذو الذكر ويجمع هذه المواضع تبين المراد من كونه ذكرا عاما وخاصا وكونه ذا ذكر فانه يذكر العباد بمصالحهم في معاشهم ومعادهم ويذكرهم بالمبدأ والمعاد ويذكرهم بالرب تعالى واسمائه وصفاته وافعاله وحقوقه على عباده ويذكرهم بالخير ليقصدوه وبالشر ليجتنبوه ويذكرهم بنفوسهم واحوالها وآفاتها وماتكمل به ويذكرهم بعدوهم ومايريد منهم وبماذا يحترزون من كيده ومن اى الابواب والطرق يأتي اليهم ويذكرهم بفاقتهم وحاجتهم اليه وانهم مضطرون اليه لايستغنون عنه نفسا واحدا ويذكرهم بنعمه عليهم ويدعوهم بها الى نعم أخرى اكبر منها ويذكرهم بأسه وشدة بطشه وانتقامه ممن عصى أمره وكذب رسله ويذكرهم بثوابه وعقابه ولهذا يأمر سبحانه عباده أن يذكروا مافي كتابه كما قال خذوا ماآتيناكم بقوة واذكروا مافيه لعلكم تتقون واذا كان كذلك فأحق واولى واول من كان ذكرا له من انزل عليه ثم لقومه ثم لجميع العالمين وحيث خص به المتقين فلانهم الذين انتفعوا بذكره واماما وصفه بأنه ذو الذكر فلانه مشتمل على الذكر فهو صاحب الذكر ومنه الذكر فهو ذكر وفيه الذكر كما أنه هدى وفيه الهدى وشفاء وفيه الشفاء ورحمة وفيه الرحمة وقوله سبحانه لمن شاء منكم ان يستقيم بدل من العالمين وهو بدل بعض من كل وهذا من احسن مايستدل به على ان البدل في قوة ذكر عاملين مقصودين فان جهة كونه ذكرا للعالمين كلهم غير جهة كونه ذكرا لاهل الاستقامة فانه ذكر للعموم بالصلاحية والقوة وذكر لاهل الاستقامة بالحصول والنفع فكما ان البدل اخص من المبدل منه فالعامل المقدر فيه اخص من العامل الملفوظ في المبدل منه ولابد من هذا فتأمله وقوله لمن شاء منكم رد على الجبرية القائلين بأن العبد لامشيئة له أو ان مشيئته مجرد علامة على حصول الفعل لاارتباط بينها وبينه الامجرد اقتران عادي من غير ان يكون سببا فيه وقوله وماتشاؤن الاان يشاء الله رد على القدرية القائلين بأن مشيئة العبد مستقلة بايجاد الفعل من غير توقف على مشيئة الله بل متى شاء العبد الفعل وجد ويستحيل عندهم تعلق مشيئة الله بفعل العبد بل هو يفعله بدون مشيئة الله فالآيتان مبطلتان لقول الطائفتين فان قال الجبري هو سبحانه لم يقل ان الفعل واقع بمشيئة العبد بل اخبر ان الاستقامة تحصل عند المشيئة ونحن قائلون بذلك وقال القدري قوله وماتشاؤن الا أن يشاء الله متعلقة بمشيئة العبد هي الموجبة للفعل التي بها يقع ومشيئة الله لفعله هو أمره بذلك ونحن لاننكر ذلك فالجواب ان هذا من تحريف الطائفتين اما الجبري فيقال له اقتران الفعل عندك بمشيئة العبد بمنزلة اقترانه بكونه وشكله وسائر اعراضه التي لاتأثير لها في الفعل فان نسبة جميع اعراضه الى الفعل في عدم التأثير نسبة ارادية عندك والاقتران حاصل بجميع أعراضه فما الذي أوجب تخصيص المشيئة وهل سوى الله سبحانه في فطر الناس أو عقولهم أو شرائعهم بين نسبة المشيئة والا رادة الى الفعل ونسبة سائر اعراض الحي اذا كان عندك ليس الامجرد الاقتران عادة والاقتران العادي حاصل مع الجميع واما القدري فتحريفه أشد لانه حمل المشيئة على الامر وقال المعنى وماتشاؤن الا ان يأمر الله وهذا باطل قطعا فان المشيئة في القرآن لم تستعمل في ذلك وانما استعملت في مشيئة التكوين كقوله ولو شاء ربك مافعلوه وقوله ولو شاء الله مااقتتلوا وقوله ولو شئنا لآتينا كل نفس

هداها وقوله أفلم ييأس الذين آمنوا ان لو يشاء الله لهدى الناس جميعا ونظائر ذلك مما لا يصح فيه حمل المشيئة على الامر البتة والذى دلت عليه الآية مع سائر ادلة التوحيد وادلة العقل الصريح ان مشيئة العباد من جملة الكائنات التى لا توجد الا بمشيئة الله سبحانه وتعالى فما لم يشأ لم يكن البتة كما ان ما شاءه كان ولا بد ولكن ههنا امر يجب التنبيه عليه وهو ان مشيئة الله سبحانه تارة تتعلق بفعله وتارة تتعلق بفعل العبد فتعلقها بفعله وهو ان يشاء من نفسه اعانة عبده وتوفيقه وتهيئته للفعل فهذه المشيئة تستلزم فعل العبد ومشيئته ولا يكفى فى وقوع الفعل مشيئة الله لمشيئة عبده دون ان يشاء فعله فانه سبحانه قد يشاء من عبده المشيئة وحدها فيشاء العبد الفعل ويريده ولا يفعله لانه لم يشأ من نفسه اعانته عليه وتوفيقه له وقد دل على هذا قوله تعالى وما تشاؤون الا ان يشاء الله رب العالمين وقوله وما يذكرون الا ان يشاء الله وهاتان الآيتان متضمنتان اثبات الشرع والقدر والاسباب والمسببات وفعل العبد واستناده الى فعل الرب ولكل منهما عبودية تختص بها فعبودية الآية الاولى الاجتهاد واستفراغ الوسع والاختيار والسعى وعبودية الثانية الاستعانة بالله والتوكل عليه واللجأ اليه واستنزال التوفيق والعون منه والعلم بأن العبد لا يمكنه ان يشاء ولا يفعل حتى يجعله الله كذلك وقوله رب العالمين ينتظم ذلك كله ويتضمنه لمن عطل احد الامرين فقد جحد كمال الربوبية وعطلها وبالله التوفيق

❊ فصل ❊ ومن ذلك قوله تعالى والنازعات غرقا والناشطات نشطا والسابحات سبحا فالسابقات سبقا فالمدبرات امرا * فهذه خمسة امور وهى صفات الملائكة واقسم سبحانه بالملائكة الفاعلة لهذه الافعال اذ ذلك من اعظم آياته وحذف مفعول النزع والنشط لانه لو ذكر ما تنزع وتنشط لاوهم التقييد به وان القسم على نفس الافعال الصادرة من هؤلاء الفاعلين لم يتعلق الغرض بذكر المفعول كقوله فأما من اعطى واتقى ونظائره فكان نفس النزع هو المقصود لا عين المنزوع واكثر المفسرين على انها الملائكة التى تنزع ارواح بنى آدم من اجسامهم وهم جماعة كقوله توفته رسلنا وقوله ان الذين توفاهم الملائكة واما قوله قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم فاما ان يكون واحدا وله اعوان واما ان يكون المراد الجنس لا الوحدة كقوله وصدقت بكلمات ربها وكتبه وقوله وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها والنزع هو اجتذاب الشئ بقوة والاغراق فى النزع هو ان يجتذبه الى آخره ومنه اغراق النزع فى جذب القوة بأن يبلغ بها غاية المد فيقال أغرق فى النزع ثم صار مثلا لكل من بالغ فى فعل حتى وصل الى آخره والغرق اسم مصدر اقيم مقامه كالعطاء والكلام أقيم مقامه الاعطاء والتكلم واختلف الناس على النازعات متعد ولازم فعلى القول الذى حكيناه يكون متعديا وهذا قول علىّ ومسروق ومقاتل وابى صالح وعطية عن ابن عباس وقال ابن مسعود هى أنفس الكفار وهو قول قتادة والسدى وعطاء عن ابن عباس وعلى هذا فهو فعل لازم وغرقا على هذا معناه نزعا شديدا أبلغ ما يكون وأشده وفى هذا القول ضعف من وجوه أحدها أن عطف ما بعده عليه يدل على أنها الملائكة فهى السابحات والمدبرات والنازعات الثانى ان الاقسام بنفوس الكفار خاصة ليس بالبين ولا فى اللفظ ما يدل عليه الثالث ان النزع مشترك بين نفوس بنى آدم والاغراق لا يختص بالكافر وقال

الحسن النازعات هى النجوم تنزع من المشرق الى المغرب وغرقا هو غروبها قال تنزع من ههنا وتغرق ههنا واختاره الاخفش وأبو عبيدة وقال مجاهد هى شدائد الموت وأهواله التى تنزع الارواح نزعا شديدا وقال عطاء وعكرمة هى القسى والنازعات على هذا القول بمعنى النسب أى ذوات النزع التى ينزع بها الرامى فهو النازع قلت النازعات اسم فاعل من نزع ويقال نزع كذا اذا اجتذبه بقوة ونزع عنه اذا خلاه وتركه بعد ملابسته له ونزع اليه اذا ذهب اليه ومال اليه وهذا انما توصف به النفوس التى لها حركة ارادية للميل الى الشئ أو الميل عنه واحق ما صدق عليه هذا الوصف الملائكة لان هذه القوة فيها أكمل وموضع الآية فيها أعظم فهى التى تغرق فى النزع اذا طلبت ما تنزع عنه أو تنزع اليه والنفس الانسانية أيضا لها هذه القوة والنجوم أيضا تنزع من أفق الى أفق فالنزع حركة شديدة سواء كانت من ملك أو نفس انسانية أو نجم والنفوس تنزع الى أوطانها والى مألفها وعند الموت تنزع الى ربها والمنايا تنزع النفوس والقسى تنزع بالسهام والملائكة تنزع من مكان الى مكان وتنزع ما وكلت بنزعه والخيل تنزع فى أعنتها نزعا تغرق فيه الاعنة لطول أعناقها فالصفة واقعة على كل من له هذه الحركة التى هى آية من آيات الرب تعالى فانه هو الذى خلقها وخلق محلها وخلق القوة والنفس التى بها تحرك ومن ذكر صورة من هذه الصور فانما أراد التمثيل وان كانت الملائكة أحق من تناوله هذا الوصف فأقسم بطوائف الملائكة وأصنافهم فهم النازعات التى تنزع الارواح من الاجساد والناشطات التى تنشطها أى تخرجها بسرعة وخفة من قولهم نشط الدلو من البئر اذا أخرجها وأنا أنشط بكذا أى أخف له وأسرع والسابحات التى تسبح فى الهواء فى طريق ممرها الى ما أمرت به كما تسبح الطير فى الهواء فالسابقات التى تسبق وتسرع الى ما أمرت به لا تبطئ عنه ولا تتأخر فالمدبرات أمور العباد التى أمرها بتدبيرها وهذا أولى الاقوال وقد روى عن ابن عباس أن النازعات الملائكة تنزع نفوس الكفار بشدة وعنف والناشطات الملائكة التى تنشط أرواح المؤمنين بيسر وسهولة واختار الفراء هذا القول فقال هى الملائكة تنشط نفس المؤمن فتقبضها وتنزع نفس الكافر قال الواحدى انما اختار ذلك لما بين النشط والنزع من الفرق فى الشدة واللين فالنزع الجذب بشدة والنشط الجذب برفق ولين والناشطات هى النفوس التى تنشط لما أمرت به والملائكة أحق الخلق بذلك ونفوس المؤمنين ناشطة لما أمرت به وقيل السابحات هى النجوم تسبح فى الفلك كما قال تعالى كل فى فلك يسبحون وقيل هى السفن تسبح فى الماء وقيل هى نفوس المؤمنين تسبح بعد المفارقة صاعدة الى ربها قلت والصحيح انها الملائكة والسياق يدل عليه وأما السفن والنجوم فانما تسمى جارية وجوارى كما قال تعالى ومن آياته الجوار فى البحر كالاعلام وقال حملنا كم فى الجارية وقال الجوارى الكنس ولم يسمها سابحات وان أطلق عليها فعل السباحة كقوله كل فى فلك يسبحون ويدل عليه ذكره السابقات بعدها والمدبرات بالفاء وذكره الثلاثة الاول بالواو ولان السبق والتدبير مسبب عن المذكور قبله فانها نزعت ونشطت وسبحت فسبقت الى ما أمرت به فدبرته ولو كان السابحات هى السفن أو النجوم أو النفوس الآدمية لما عطف عليها فعل السبق والتدبير بالفاء فتأمله قال مسروق ومقاتل والكلبى فالسابقات سبقا هى الملائكة قال مجاهد وأبو روق

سبقت ابن آدم بالخير والعمل الصالح والايمان والتصديق قال مقاتل تسبق بأرواح المؤمنين الى الجنة وقال الفراء والزجاج هى الملائكة تسبق الشياطين بالوحى الى الانبياء اذ كانت الشياطين تسترق السمع وهذا القول خطأ لايخفى فساده اذ يقتضى الاشتراك بين الملائكة والشياطين فى القائهم الوحى وان الملائكة تسبقهم به الى الانبياء وهذا ليس بصحيح فان الوحى الذى تأتى به الملائكة الى الانبياء لاتسترقه الشياطين وهم معزولون عن سماعه وان استرقوا بعض مايسمعونه من ملائكة السماء الدنيا من أمور الحوادث فالله سبحانه صان وحيه الى الانبياء أن تسترق الشياطين شيئا منه وعزلهم عن سمعه ولو ان قائل هذا القول فسر السابقات بالملائكة التى تسبق الشياطين بالرجم بالشهب قبل القاء الكلمة التى استرقها لكان له وجه فان الشيطان يبدر مسرعا بالقائه الى وليه فتسبقه الملائكة فى نزوله بالشهب الثواقب فتهلكه وربما ألقى الكلمة قبل ادراك الشهاب له وفسرت السابقات سبقا بالانفس السابقات الى طاعة الله ومرضاته وأما المدبرات أمرا أجمعوا على انها الملائكة قال مقاتل هم جبريل وميكائيل واسرافيل وملك الموت يدبرون أمر الله تعالى فى الارض وهم المقسمات أمرا قال عبد الرحمن بن سابط جبريل موكل بالرياح وبالجنود وميكائيل موكل بالقطر والنبات وملك الموت موكل بقبض الانفس واسرافيل ينزل بأمر الله عليهم وقال ابن عباس هم الملائكة وكلهم الله بأمور عرفهم العمل بها والوقوف عليها بعضهم لبنى آدم يحفظون ويكتبون وبعضهم وكلوا بالامطار والنبات والخسف والمسخ والرياح والسحاب انتهى وقد أخبر ان الله وكل بالرحم ملكا وبالرؤيا ملك موكل بها وللجنة ملائكة موكلون بعمارتها وعمل آلاتها وأوانيها وغراسها وفرشها ونمارقها وأرائكها وللنار ملائكة موكلة بعمل مافيها وايقادها وغير ذلك فالدنيا ومافيها والجنة والنار والموت وأحكام البرزخ قد وكل الله بذلك كله ملائكة يدبرون ماشاء الله من ذلك ولهذا كان الايمان بالملائكة احد أركان الايمان الذى لايتم الايمان الابه وأما من قال انها النجوم فليس هذا من قول أهل الاسلام ولم يجعل الله النجوم تدبر شيئا من الخلق بل هى مدبرة مسخرة كما قال تعالى والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره فالله سبحانه هو المدبر بملائكته لامر العالم العلوى والسفلى قال الجرجانى وذكر السابقات والمدبرات بالفاء وماقبلها بالواو لان ماقبلها اقسام مستأنفة وهذان القسمان منشآن عن الذى قبلهما كأنه قال فاللاتى سبحن فسبقن كما تقول قام فذهب أوجب الفاء ان القيام كان سببا للذهاب ولو قلت قام وذهب لم تجعل القيام سببا للذهاب واعترض عليه الواحدى فقال هذا غير مطرد فى هذه الآية لانه يبعد أن يجعل السبق سببا للتدبير مع أن السابقات ليست الملائكة فى قول المفسرين قلت الملائكة داخلون فى السابقات قطعا وأما اختصاص السابقات بالملائكة فهذا محتمل وأما قوله يبعد أن يكون السبق سببا للتدبير فليس كما زعم بل السبق المبادرة الى تنفيذ مايؤمر به الملك فهو سبب الفعل الذى أمر به وهو التدبير مع أن الفاء دالة على التعقيب وأن التدبير يتعقب السبق بلا تراخ بخلاف الاقسام الثلاثة والله أعلم وجواب القسم محذوف يدل عليه السياق وهو البعث المستلزم لصدق الرسول وثبوت القرآن أو انه من القسم الذى اريد به التنبيه على الدلالة والعبرة بالمقسم به دون أن يراد به مقسما عليه بعينه وهذا القسم يتضمن الجواب

المقسم عليه وان لم يذكر لفظا ولعل هذا مراد من قال انه محذوف للعلم به لكن هذا الوجه ألطف مسلكا فان المقسم به اذا كان دالا على المقسم عليه مستلزما استغنى عن ذكره بذكره وهذا غير كونه محذوفا لدلالة مابعده عليه فتأمله ولعل هذا قول من قال انه انما أقسم رب هذه الاشياء وحذف المضاف فان معناه صحيح لكن على غير الوجه الذي قدروه فان اقسامه سبحانه بهذه الاشياء لظهور دلالتها على ربوبيته ووحدانيته وعلمه وقدرته وحكمته فالاقسام بها فى الحقيقة اقسام بربوبيته وصفات كماله فتأمله ثم قرر سبحانه بعد هذا القسم أمر المعاد ونبوة موسى المستلزمة لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم اذ من المحال أن يكون موسى نبيا ومحمد ليس نبيا مع أن ماثبت نبوة موسى فلمحمد نظيره أو أعظم منه وقرر سبحانه تكليمه لموسى بندائه له بنفسه فقال اذناداه ربه فأثبت المستلزم للكلام والتكليم وفى موضع آخر اثبت النجا والنداء والنجا نوع من التكليم ومحال ثبوت النوع بدون الجنس ثم امره ان يخاطبه بألين خطاب فيقول له هل لك الى أن تزكى وأهديك الى ربك فتخشى ففي هذا من لطف الخطاب ولينه وجوه أحدها اخراج الكلم مخرج العرض ولم يخرجه مخرج الامر والالزام وهو ألطف ونظيره قول ابراهيم لضيفه المكرمين ألا تأكلون ولم يقل كلوا الثانى قوله الى أن تزكى والتزكى النماء والطهارة والبركة والزيادة فعرض عليه أمرا يقبله كل عاقل ولا يرده الا كل أحمق جاهل الثالث قوله تزكى ولم يقل أزكيك فأضاف التزكية الى نفسه وعلى هذا يخاطب الملوك الرابع قوله واهديك اى أكون دليلا لك وهاديا بين يديك فنسب الهداية اليه والتزكى الى المخاطب اى أكون دليلا لك وهاديا فتتزكى انت كما تقول للرجل هل لك ان ادلك على كنز تأخذ منه ماشئت وهذا احسن من قوله اعطيك الخامس قوله الى ربك فان فى هذا مايوجب قبول مادل عليه وهو انه يدعوه ويوصله الى ربه فاطره وخالقه الذى اوجده ورباه بنعمه جنينا وصغيرا وكبيرا وآتاه الملك وهو نوع من خطاب الاستعطاف والالزام كما تقول لمن خرج عن طاعة سيده ألا تطيع سيدك ومولاك ومالكك وتقول للولد الا تطيع أباك الذى رباك السادس قوله فتخشى أى اذا اهتديت اليه وعرفته خشيته لان من عرف الله خافه ومن لم يعرفه لم يخفه فخشيته تعالى مقرونة بمعرفته وعلى قدر المعرفة تكون الخشية السابع ان فى قوله هل لك فائدة لطيفة وهى ان المعنى هل لك فى ذلك حاجة أوارب ومعلوم ان كل عاقل يبادر الى قول ذلك لان الداعى انما يدعو الى حاجته ومصلحته لا الى حاجة الداعى فكأنه يقول الحاجة لك وانت المتزكى وانا الدليل لك والمرشد لك الى أعظم مصالحك فقابل هذا بغاية الكفر والعناد وادعى أنه رب العباد هذا وهو يعلم أنه ليس بالذى خلق فسوى ولا قدر فهدى فكذب الخبر وعصى الامر ثم أدبر يسعى بالخديعة والمكر فحشر جنوده فأجابوه ثم نادى فيهم بأنه ربهم الاعلى واستخفهم فأطاعوه فبطش به جبار السموات والارض بطشة عزيز مقتدر وأخذه نكال الآخرة والاولى ليعتبر بذلك من يعتبر فاعتبر بذلك من خشى ربه من المؤمنين وحق القول على الكافرين ثم أقام سبحانه حجته على العالمين بخلق ماهو أشد منهم وأكبر وأعظم وأعلى وأرفع وهو خلق السماء وبناؤها ورفع سمكها وتسويتها واظلام ليلها واخراج ضحاها وخلق الارض ومدها وبسطها

وتهيئتهـا لـمـا يراد منها وأخرج منها شراب الحيوان وأقواتهم وأرسى الجبال فجعلهـا رواسي للارض لئلا تميد بأهلهـا وأودعهـا من المنافع مايتم به مصـالح الحيوان النـاطق والبهيم فمن قدر على ذلك كله كيف يعجز عن اعادتكم خلقـا جديدا فتأمل دلالة المقسم به المذكور في أول السورة على المعـاد والتوحيد وصدق الرسل كدلالة هذا الدليل المذكور واذا كان هذا هو المقصود لم يكن محتاجا الى جواب والله أعلم

﴿ فصل ﴾ ومن ذلك قوله تعـالى والمرسلات عرفا فالعاصفات عصفا والنـاشرات نشرا فالفارقات فرقا فالملقيات ذكرا عذرا أو نذرا انما توعدون لواقع فسرت المرسلات بالملائكة وهو قول أبي هريرة وابن عبـاس في رواية مقاتل وجماعة وفسرت بالرياح وهو قول ابن مسعود واحدى الروايتين عن ابن عباس وقول قتـادة وفسرت بالسحاب وهو قول الحسن وفسرت بالانبيـاء وهو رواية عطـاء عن ابن عباس قلت الله سبحانه يرسل الملائكة ويرسل الانبياء ويرسل الرياح ويرسل السحاب فيسوقه حيث يشاء ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء فارساله واقع على ذلك كله وهو نوعان ارسال دين يحبه ويرضاه كارسال رسله وأنبيائه وارسال كون وهو نوعان نوع يحبه ويرضاه كارسال ملائكته في تدبير أمر خلقه ونوع لا يحبه بل يسخطه ويبغضه كارسال الشيطان على الكفار فالارسال المقسم به هـهنـا مقيـد بالعرف فاما أن يكون ضـد المنكر فهو ارسال رسله من الملائكـة ولا يدخل في ذلك ارسال الرياح ولا الصواعـق ولا الشياطين وأما ارسال الانبياء فلو أريد لقال والمرسلين وليس بالفصيح تسمية الانبياء مرسلات وتكلف الجماعات المرسلات خلاف المعهود من استعمال اللفظ فلم يطلق في القرآن جمـع ذلك الاجمع تذكير لاجمع تأنيث وأيضا فاقتران اللفظ بما بعدها من الاقسام لا ينـاسب تفسيرهـا بالانبياء وأيضا فان الرسل مقسم عليهم في القرآن لامقسم بهم كقوله تالله لقد أرسلنا الى أمم من قبلك وقوله وانك لمن المرسلين وقوله يس والقرآن الحكيم انك لمن المرسلين وان كان العرف من التابع كعرف الفرس وعرف الديك والناس الى فلان عرف واحد أي سابقون في قصده والتوجه اليه جاز ان تكون المرسلات الرياح ويؤيده عطف العاصفات عليه والناشرات وجاز أن تكون الملائكة وجاز أن يعم النوعين لوقع الارسال عرفا عليهما ويؤيده أن الرياح موكل بها ملائكة تسوقها وتصرفها ويؤيد كونها الرياح عطف العـاصفات عليها بفاء التعقيب والتسبب فكأنها أرسلت فعصفت ومن جعل المرسلات الملائكة قال هي تعصف في مضيها مسرعة كما تعصف الرياح والاكثرون على انها الرياح وفيها قول ثالث انها تعصف بروح الكافر يقال عصف بالشئ اذا أباده وأهلكه قال الاعشى * تعصف بالدارع والحاسر * حكاه أبو اسحاق وهو قول متكلف فان المقسم به لابد ان يكون آية ظاهرة تدل على الربوبية وأما الامور الغـائبة التي يؤمن بهـا فانما يقسم عليه وانما يقسم سبحـانه بملائكته وكـتابه لظهور شأنهما ولقيام الادلة والاعلام الظاهرة الدالة على ثبوتهما وأما الناشرات نشرا فهو استئنـاف قسم آخر ولهذا أتى به بالواو وماقبله معطوف على القسم الاول بالفاء قال ابن مسعود والحسن ومجاهـد وقتادة هي الرياح تأتي بالمطر ويدل على صحة قولهم قوله تعـالى وهو الذي يرسل الرياح بشرا بـين يدي رحمته يعني انها تنشر السحـاب نشرا وهو ضد الطي وقال مقاتل هي الملائكة تنشر كتب

بنى آدم وصحائف أعمالهم وقاله مسروق وعطاء عن ابن عباس وقالت طائفة هى الملائكة تنشر اجنحتها فى الجو عند صعودها ونزولها وقيل تنشر أوامر الله فى الارض والسماء وقيل تنشر النفوس فتحييها بالايمان وقال أبو صالح هى الامطار تنشر الارض اى تحييها قلت ويجوز ان تكون الناشرات لازما لا مفعول له ولا يكون المراد انهن نشرن كذا فانه يقال نشر الميت حيي وأنشره الله اذا أحياه فيكون المراد بها الانفس التى حييت بالعرف الذى أرسلت به المرسلات أو الاشباح والارواح والبقاع التى حييت بالرياح المرسلات فان الرياح سبب لنشور الابدان والنبات والوحى سبب لنشور الارواح وحياتها لكن هنا أمر ينبغى التفطن له وهو انه سبحانه جعل الاقسام فى هذه السورة نوعين وفصل احدهما من الآخر وجعل العاصفات معطوفا على المرسلات بفاء التعقيب فصارا كأنهما نوع واحد ثم جعل الناشرات كأنه قسم مبتدأ فأتى فيه بالواو ثم عطف عليه الفارقات والملقيات بالفاء فأوهم هذا ان الفارقات والملقيات مرتبط بالناشرات وان العاصفات مرتبط بالمرسلات وقد اختلف فى الفارقات والاكثرون على انها الملائكة ويدل عليه عطف الملقيات ذكرا عليها بالفاء وهى الملائكة بالاتفاق وعلى هذا فيكون القسم بالملائكة التى تنشر اجنحتها عند النزول ففرقت بين الحق والباطل فألقت الذكر على الرسل اعذارا وانذرا ومن جعل الناشرات الرياح جعل الفارقات صفة لها وقال هى تفرق السحاب ههنا وههنا ولكن يأبى ذلك عطف الملقيات بالفاء عليها ومن قال الفارقات اى القرآن يفرق بين الحق والباطل فقوله يلتئم مع كون الناشرات الملائكة اكثر من التئامه اذا قيل انها الرياح ومن قال هى جماعات الرسل فان اراد الرسل من الملائكة فظاهر وان اراد الرسل من البشر فقد تقدم بيان ضعف هذا القول ويظهر والله اعلم بما اراد من كلامه ان القسم فى هذه الآية وقع على النوعين الرياح والملائكة ووجه المناسبة ان حياة الارض والنبات وابدان الحيوان بالرياح فانها من روح الله وقد جعلها الله تعالى نشورا وحياة القلوب والارواح بالملائكة فبهذين النوعين يحصل نوعا الحياة ولهذا والله اعلم فصل احد النوعين من الآخر بالواو وجعل ماهو تابع لكل نوع بعده بالفاء وتأمل كيف وقع القسم فى هذه السورة على المعاد والحياة الدائمة الباقية وحال السعداء والاشقياء فيها وقررها بالحياة الاولى فى قوله ألم نخلقكم من ماء مهين فذكر فيها المبدأ والمعاد واخلص السورة لذلك فحسن الاقسام بما يحصل به نوعا الحياة المشاهدة وهو الرياح والملائكة فكان فى القسم بذلك ابين دليل واظهر آية على صحة ما أقسم عليه وتضمنته السورة ولهذا كان المكذب بعد ذلك فى غاية الجحود والعناد والكفر فاستحق الويل بعد الويل فتضاعف عليه الويل كما تضاعف منه الكفر والتكذيب فلا احسن من هذا التكرار فى هذا الموضع ولا أعظم موقعا فانه تكرر عشر مرات ولم يذكر الا فى اثر دليل أو مدلول عليه عقيب مايوجب التصديق ومايوجب التصديق به فتأمله

❁ فصل ❁ ومن ذلك قوله تعالى لاأقسم بيوم القيمة ولاأقسم بالنفس اللوامة وقد تقدم ذكر هذين القسمين ومناسبة الجمع بينهما فى الذكر وكون الجواب غير مذكور وأنه يجوز ان يكون مما حذف لدلالة السياق عليه والعلم به ويجوز ان يكون من القسم المقصود به التنبيه

على دلالة المقسم به وكونه آية ولم يقصد به مقسما عليه معينا فكأنه يقول اذكر يوم القيمة والنفس اللوامة مقسما بها لكونهامن آياتنا وادلة ربوبيتنا ثم انكر على الانسان بعدهذه الآية حسبانه وظنه ان الله لايجمع عظامه بعدما فرقها البلى ثم اخبر سبحانه عن قدرته على جمع غيرها من عظامه وعلى هذا فيكون سبحانه قداحتج على فعله لما انكره اعداؤه بقدرته عليه واخبر عن فعله بانه لايلزمهم من القدرة وقوع المقدور والمعنى بل نجمعها قادرين على تسوية بنانه ودل على هذا المعنى المحذوف قوله بلى فانها حرف ايجاب للمتقدم من النفى فلهذا يستغنى عن ذكر الفعل بذكر الحرف الدال عليه فدلت الآية على الفعل وذكرت القدرة لابطال قول المكذبين وفى ذكر البنان لطيفة أخرى وهى أنها اطرافه وآخر مايتم به خلقه فمن قدر على جمع أطرافه وآخر مايتم به خلقه مع دقتها وصغرها ولطافتها فهو على مادون ذلك اقدر فالقوم لما استبعدوا جمع العظام بعد الفناء والارمام قيل انا نجمع ونسوى اكثرمنها تفرقا وادقها اجزاء وأخر اطراف البدن وهى عظام الانامل ومفاصلها وقالت طائفة المعنى نحن قادرون على أن نسوى اصابع يديه ورجليه ونجعلها مستوية شيأ واحدا كخف البعير وحافر الحمار لانفرق بينهما ولايمكنه ان يعمل بها شيأ مما يعمل بأصابعه المفرقة ذات المفاصل والانامل من فنون الاعمال والبسط والقبض والتانى لمايريد من الحوائج وهذا قول ابن عباس وكثير من المفسرين والمعنى على هذا القول انا فى الدنيا قادرون على أن نجعل عظام بنانه مجموعة دون تفرق فكيف لانقدر على جمعها بعد تفريقها فهذا وجه من الاستدلال غير الاول وهو الاستدلال بقدرته سبحانه على جمع العظام التى فرقها ولم يجمعها والاول استدلال بقدرته سبحانه على جمع عظامه بعد تفريقها وهما وجهان حسنان وكل منهما له الترجيح من وجه فيرجح الاول أنه هو المقصود وهو الذى انكره الكفار وهو اجراء على نسق الكلام والمراد ولان الكلام لم يسق لجمع العظام وتفريقها فى الدنيا وانما سيق لجمعها فى الآخرة بعد تفرقها بالموت ويرجح القول الثانى ولعله قول جمهور المفسرين حتى أن فيهم من لم يذكر غيره وأنه استدلال بآية ظاهرة مشهورة وهى تفريق البنان مع انتظامها فى كف واحد وارتباط بعضها ببعض فهى متفرقة فى عضو واحد يقبض منها واحدة ويبسط اخرى ويحرك واحدة والاخرى ساكنة ويعمل بواحدة والاخرى معطلة وكلها فى كف واحد قد جمعها ساعد واحد فلو شاء سبحانه لسواها فجعلها صفة واحدة كباطن الكف ففاته هذه المنافع والمصالح التى حصلت بتفريقها ففى هذا أعظم الادلة على قدرته سبحانه على جمع عظامه بعد الموت ثم أخبر سبحانه عن سوء حال الانسان واصراره على المعصية والفجور وانه لايرعوى ولايخاف يوما يجمع الله فيه عظامه ويبعثه حيا بل هو مريد للفجور ماعاش فيعجز فى الحال ويريد الفجور فى غد ومابعده وهذا ضد الذى يخاف الله والدار الآخرة فهذا لايندم على مامضى منه ولايقلع فى الحال ولايعزم فى المستقبل على الترك بل هو عازم على الاستمرار وهذا ضد التائب المنيب ثم نبه سبحانه على الحامل له على ذلك وهو استبعاده ليوم القيامة وليس هذا استبعادا لزمنه مع اقراره بوقوعه بل هو استبعاد لوقوعه كما حكى عنه فى موضع آخر قوله ذلك رجع بعيد اى بعيد وقوعه ليس المراد انه واقع ببعيد زمنه هذا قول جماعة من المفسرين منهم ابن عباس وأصحابه قال

ابن عباس يقدم الذنب ويؤخر التوبة وقال قتادة وعكرمة قدما قدما فى معاصى الله لاينزع عن فجوره وفى الآية قول آخر وهو أن المعنى بل يريد الانسان ليكذب بما أمامه من البعث ويوم القيامة وهذا قول ابن زيد واختيار ابن قتيبة وأبى اسحق قال هؤلاء ودليل ذلك قوله يسئل أيان يوم القيامة ويرجح هذا القول لفظة بل فانها تعطى ان الانسان لم يؤمن بيوم القيامة مع هذا البيان والحجة بل هو مريد للتكذيب به ويرجحه أيضا ان السياق كله فى ذم المكذب بيوم القيامة لافى ذم العاصى والفاجر وأيضا فان ماقبل الآية ومابعدها يدل على المراد فانه قال أيحسب الانسان ان لن نجمع عظامه بلى قادرين على أن نسوى بنانه فأنكر سبحانه عليه حسبانه ان الله لايجمع عظامه ثم قرر عليه قدرته على ذلك ثم انكر عليه ارادة التكذيب بيوم القيامة فالاول حسبان منه أن لايحييه بعد موته والثانى تكذيب منه بيوم البعث وانه يريد أن يكذب بما وضح وبان دليل وقوعه وثبوته فهو مريد للتكذيب به ثم أخبر عن تصريحه بالتكذيب فقال يسئل أيان يوم القيامة فالاول ارادة التكذيب والثانى نطق بالتكذيب وتكلم به وهذا قول قوى كما ترى لكن ينبغى افراغ هذه الالفاظ فى قوالب هذا المعنى فان لفظة يفجر انما تدل على عمل الفجور لاعلى التكذيب وحذف الموصول مع ماجره وابقاء الصلة خلاف الاصل فان اصحاب هذا القول قالوا تقديره ليكفر بما امامه وهذا المعنى صحيح لكن دلالة هذا اللفظ عليه ليست بالبينة فالجواب ان الامر كذلك لكن الفعل اذا ضمن معنى فعل آخر لم يلزم اعطاؤه حكمه من جميع الوجوه بل من جلالة هذه اللغة العظيمة الشان وجزالتها ان يذكر المتكلم فعلا وما يضمنه معنى فعل آخر ويجرى على المضمن احكامه لفظا واحكام الفعل الآخر معنى فيكون فى قوة ذكر الفعلية مع غاية الاختصار ومن تدبر هذا وجده كثيرا فى كلام الله تعالى فلفظ يفجر اقتضت امامه بلا واسطة حرف ولا اسم موصول فأعطيت ما اقتضته لفظا واقتضى ماتضمنته من الفعل ذكر الحرف والموصول فأعطيته معنى فهذا وجه هذا القول لفظا ومعنى والله اعلم ثم اخبر سبحانه عن حال هذا الانسان اذا شاهد اليوم الذى كذب به فقال فاذا برق البصر وخسف القمر وجمع الشمس والقمر يقول الانسان يومئذ أين المفر فيبرق بصره اى يشخص لمايشاهده من العجائب التى كان يكذب بها وخسف القمر ذهب ضوؤه وانمحى وجمع الشمس والقمر ولم يجتمعا قبل ذلك بل يجمعهما الذى يجمع عظام الانسان بعد مافرقها البلى ومزقها ويجمع الانسان يومئذ جميع عمله الذى قدمه وأخره من خير أو شر ويجمع ذلك من جمع القرآن فى صدر رسوله ويجمع المؤمنين فى دار الكرامة فيكرم وجوههم بالنظر اليه ويجمع المكذبين فى دار الهوان وهو قادر على ذلك كله كما جمع خلق الانسان من نطفة من منى يمنى ثم جعله علقة مجتمعة الاجزاء بعدما كانت نطفة متفرقة فى جميع بدن الانسان وكما يجمع بين الانسان وملك الموت ويجمع بين الساق والساق اما ساق الميت أو ساق من يجهز بدنه من البشر ومن يجهز روحه من الملائكة أو يجمع عليه شدائد الدنيا والآخرة فكيف هذا الانسان أن يجمع بينه وبين عمله وجزائه وأن يجمع مع بنى جنسه ليوم الجمع وأن يجمع عليه بين أمر الله ونهيه وعبوديته فلايترك سدى مهملا معطلا لايؤمر ولاينهى ولايثاب ولايعاقب فلايجمع عليه

ذلك فأجمع هذه السورة لمعان الجمع والضم وقد افتتحت بالقسم بيوم القيمة الذى يجمع الله فيه بين الاولين والآخرين وبالنفس اللوامة التى اجتمع فيها همومها وغمومها وارادتها واعتقاداتها وتضمنت ذكر المبدأ والمعاد والقيامة الصغرى والكبرى وأحوال الناس فى المعاد وانقسام وجوههم الى ناظرة منعمة وباسرة معذبة وتضمنت وصف الروح بأنها جسم ينتقل من مكان الى مكان فتجمع من تفاريق البدن حتى تبلغ التراق ويقول الحاضرون من راق اى من يرقى من هذه العلة التى أعيت على الحاضرين أى التمسوا له من يرقيه والرقية آخر الطب وقيل من يرقى بها ويصعد أملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب فعلى الاول تكون من رقى يرقى كرمى يرمى وعلى الثانى من رقى يرقى كشقى يشقى ومصدره الرقاء ومصدر الاول الرقية والقول الاول أظهر لوجوه احدها انه ليس كل ميت يقول حاضروه من يرقى بروحه وهذا انما يقوله من يؤمن برقى الملائكة بروح الميت وانهم ملائكة رحمة وملائكة عذاب بخلاف التماس الرقية وهى الدعاء فانه قل ما يخلو منه المحتضر الثانى ان الروح انما يرقى بها الملك بعد مفارقتها وحينئذ يقال من يرقى بها وأما قبل المفارقة فطلب الرقية للمريض من الحاضرين أنسب من طلب علم من يرقى بها الى الله الثالث ان فاعل الرقية يمكن العلم به فيحسن السؤال عنه ويفيد السامع واما الراقى الى الله فلا يمكن العلم بتعيينه حتى يسئل عنه ومن انما يسئل بها عن تعيين ما يمكن السائل أن يصل الى العلم بتعيينه الرابع ان مثل هذا السؤال انما يراد به تخصيص واثارة همم الى فعل مايقع بعده من قوله من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا او يراد به انكار فعل مايذكر بعدها كقوله من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه وفعل الراقى الى الله لا يحسن فيه واحد من الامرين هنا بخلاف فاعل الرقية فانه يحسن فيه الاول الخامس ان هذا خرج على عادة العرب وغيرهم فى طلب الرقية لمن وصل الى مثل تلك الحال فحكى الله سبحانه ماجرت عادتهم بقوله وحذف فاعل القول لانه ليس الغرض متعلقا بالقائل بالقول ولم تجر عادة المخاطبين بأن يقولوا من يرقى بروحه فكان حمل الكلام على ما ألف وجرت العادة بقوله اولى اذ هو نذكيرلهم بما يشاهدونه ويسمعونه السادس انه لو اريد هذا المعنى لكان وجه الكلام ان يقال من هو الراقى ومن الراقى لا وجه للكلام غير ذلك كما يقال من هو القائل منكما كذا وكذا فى الحديث من القائل كلمة كذا السابع ان كلمة من انما يسئل بها عن التعيين كما يقول من الذى فعل كذا ومن ذا الذى قاله فيعلم ان فاعلا وقائلا فعل وقال ولا يعلم تعيينه فيسأل عن تعيينه بمن تارة وبأى تارة وهم لم يسألوا عن تعيين الملك الراقى بالروح الى الله فان قيل بل علموا ان ملك الرحمة والعذاب صاعد بروحه ولم يعلموا تعيينه فيسألوا عن تعيين أحدهما قيل هم يعلمون ان تعيينه غير ممكن فكيف يسألون عن تعيين مالا سبيل للسامع الى تعيينه ولا الى الكلمة بالعلم به الثامن ان الآية انما سيقت لبيان يأسه من نفسه ويأس الحاضرين معه وتحقق اسباب الموت وأنه قد حضر ولم يبق شئ يجمع فيه ولا يخلص منه بل هو قد ظن أنه مفارق لامحالة فالحاضرون قد علموا أنه لم يبق لاسباب الحياة المعتادة تأثير فى بقائه فطلبوا اسبابا خارجة عن المقدور تستجلب الراقى والدعوات فقالوا من راق أى من يرقى هذا العليل من اسباب الهلاك والرقية عندهم كانت مستعملة حيث لا يجدى الدواء

التاسع ان مثل هذا انما يراد به النفي والاستبعاد وهو أحد التقديرين في الآية أي لا أحد يرقى من هذه العلة بعدما وصل صاحبها الى هذه الحال فهو استبعاد لنفي الرقية لا طلب لوجود الراقي كقوله قال من يحيي العظام وهي رميم أي لا أحد يحييها وقد صارت الى هذه الحال فان أريد بها هذا المعنى استحال ان يكون من الرقي وان أريد بها الطلب استحال أيضا ان يكون منه وقد بينا أنها في مثل هذا انما تستعمل للطلب أولا نكار وحينئذ فنقول في الوجه العاشر انها اما ان يراد بها الطلب أو الاستبعاد والطلب اما ان يراد به طلب الفعل أو طلب التعيين ولا سبيل الى حمل واحد من هذه المعاني على الرقي لما بيناه والله أعلم

﴿ فصل ﴾ ومن أسرار هذه السورة أنه سبحانه جمع فيها لأوليائه بين جمال الظاهر والباطن فزين وجوههم بالنضرة وبواطنهم بالنظر اليه فلا أجمل لبواطنهم ولا أنعم ولا أحلى من النظر اليه ولا أجمل لظواهرهم من نضرة الوجه وهي اشراقه وتحسينه وبهجته وهذا كما قال في موضع آخر ولقاهم نضرة وسرورا ونظيره قوله يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوآتكم وريشا فهذا جمال الظاهر وزينته ثم قال ولباس التقوى ذلك خير فهذا جمال الباطن ونظيره قوله انا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب فهذا جمال ظاهرها ثم قال وحفظا من كل شيطان مارد فهذا جمال باطنها ونظيره قوله عن امرأة العزيز بعد ان قالت ليوسف اخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشرا ان هذا الا ملك كريم قالت فذلكن الذي لمتنني فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم فذكرها لهذا هو من تمام وصفها لمحاسنه وأنه في غاية المحاسن ظاهرا وباطنا وينظر الى هذا المعنى ويناسبه قوله ان لك ان لا تجوع فيها ولا تعرى وانك لا تظمأ فيها ولا تضحى فقابل بين الجوع والعري لان الجوع ذل الباطن والعري ذل الظاهر وقابل بين الظمأ وهو حر الباطن والضحى وهو حر الظاهر بالبروز للشمس وقريب من هذا قوله وتزودوا فان خير الزاد التقوى في ذكر الزاد الظاهر الحسي والزاد الباطن المعنوي فهذا زاد سفر الدنيا وهذا زاد سفر الآخرة ويلم به قول هود يا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة الى قوتكم فالاول القوة الظاهرة المنفصلة عنهم والثاني الباطنة المتصلة بهم ويشبهه قوله فما له من قوة ولا ناصر فنفى عنهم الدافعين الدافع من أنفسهم والدافع من خارج وهو الناصر

﴿ فصل ﴾ ومن أسرارها أنها تضمنت اثبات قدرة الرب على ما علم أنه لا يكون ولا يفعله وهذا على أحد القولين في قوله بلى قادرين على أن نسوي بنانه فاخبر أنه قادر عليه ولم يفعله ولم يرده وأصرح من هذا قوله تعالى وأنزلنا من السماء ماء بقدر فاسكناه في الارض وانا على ذهاب به لقادرون وهذا أيضا على أحد القولين أي تغور العيون في الارض فلا يقدر على الماء قال ابن عباس يريد ان يغيض فيذهب فلا يكون من هذا الباب بل يكون من باب القدرة على ما يفعله وأصرح من هذين الموضعين قوله تعالى قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت ارجلكم وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال عند نزول هذه الآية اعوذ بوجهك ولكن قد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم

انه لابد ان يقع في امته خسف ولكن لايكون عاما وهذا عذاب من تحت الارجل وروى انه كان في الامة قذف ايضا وهذا عذاب من فوق فيكون هذا من باب الاخبار بقدرته على ما يفعله وان اريد به القدرة على عذاب الاستئصال فهو من القدرة على مالا يريده وقد صرح سبحانه بانه لو شاء لفعل مالم يفعله في غير موضع من كتابه كقوله ولو شاء ربك لآمن من في الارض كلهم جميعا وقوله ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ونظائره وهذا مما لاخفاء فيه بين أهل السنة وبه تبين فساد قول من قال ان القدرة لاتكون الا مع الفعل لاقبله وان الصواب التفصيل بين القدرة الموجبة والمصححة فنفي القدرة عن الفاعل قبل الملابسة مطلقا خطأ والله أعلم

﴿ فصل ﴾ ومن أسرارها انها تضمنت التأني والتثبت في تلقي العلم وان لايحمل السامع شدة محبته وحرصه وطلبه على مبادرة المعلم بالاخذ قبل فراغه من كلامه بل من آداب الرب التي أدب بها نبيه صلى الله عليه وسلم امره بترك الاستعجال على تلقي الوحي بل يصبر الى ان يفرغ جبريل من قراءته ثم يقرأه بعد فراغه عليه فهكذا ينبغي لطالب العلم ولسامعه ان يصبر على معلمه حتى يقضي كلامه ثم يعيده عليه اويسأل عما اشكل عليه منه ولايبادره قبل فراغه وقد ذكر الله تعالى هذا المعنى في ثلاثة مواضع من كتابه هذا احدها والثاني قوله وكذلك انزلناه حكما عربيا وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون اويحدث لهم ذكرا فتعالى الله الملك الحق ولاتعجل بالقرآن من قبل ان يقضى اليك وحيه وقل رب زدني علما والثالث قوله سنقرئك فلا تنسى الا ماشاء الله فضمن لرسوله ان لاينسى ماأقرأه اياه وهذا يتناول القراءة ومابعدها وقد ذم الله سبحانه في هذه السورة من يؤثر العاجلة على الآجلة وهذا لاستعجاله بالتمتع بما يفنى وايثاره مايبقى ورتب كل ذم ووعيد في هذه السورة على هذا الاستعجال ومحبة العاجلة فارادته ان يفجر امامه هو من استعجاله وحب العاجلة وتكذيبه بيوم القيامة من فرط حب العاجلة وايثاره لها واستعجاله بنصيبه وتمتعه به قبل أوانه واولا حب العاجلة وطلب الاستعجال لتمتع به في الآجلة اكمل مايكون وكذلك تكذيبه وتوليه وترك الصلاة هو من استعجاله ومحبته العاجلة والرب سبحانه وصف نفسه بضد ذلك فلم يعجل على عبده بل امهله الى ان بلغت الروح التراقي وأيقن بالموت وهو الى هذه الحال مستمر على التكذيب والتولي والرب تعالى لايعاجله بل يمهله ويحدث له الذكر شيئا بعد شيء ويصرف له الآيات ويضرب له الامثال وينبهه على مبدئه من كونه نطفة من مني يمنى ثم علقة ثم خلقا سويا فلم يعجل عليه بالخلق وهلة واحدة ولا بالعقوبة اذ كذب خبره وعصى امره بل كان خلقه وامره وجزاؤه بعد تمهيل وتدريج واناءة ولهذ ذم الانسان بالعجلة بقوله وكان الانسان عجولا وقال خلق الانسان من عجل سأريكم آياتي فلا تستعجلون

﴿ فصل ﴾ ومن أسرارها ان اثبات النبوة والمعاد يعلم بالعقل وهذا احد القولين لاصحابنا وغيرهم وهو الصواب فان الله سبحانه انكر على من حسب انه يترك سدى فلا يؤمر ولاينهى ولايثاب ولايعاقب ولم ينف سبحانه ذلك بطريق الخبر المجرد بل نفاه نفي مالا يليق نسبته اليه

ونفى منكر على من حكم به وظنه ثم استدل سبحانه على فساد ذلك وبين ان خلقه الانسان في هذه الاطوار وتنقله فيها طورا بعد طور حتى يبلغ نهايته يأبى ان يتركه سدى فانه ينزه عن ذلك كما ينزه عن العبث والعيب والنقص وهذه طريقة القرآن في غير موضع كما قال تعالى أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون فتعالى الله الملك الحق لا اله الا هو رب العرش الكريم فجعل كمال ملكه وكونه سبحانه الحق وكونه لا اله الا هو وكونه رب العرش المستلزم لربوبيته لكل ما دونه مبطلا لذلك الظن الباطل والحكم الكاذب وانكار هذا الحسبان عليهم مثل انكاره عليهم حسبانهم انه لا يسمع سرهم ونجواهم وحسبان انه لا يراهم ولا يقدر عليهم وحسبان انه يسوى بين أوليائه وبين اعدائه في محياهم ومماتهم وغير ذلك مما هو منزه عنه تنزيهه عن سائر العيوب والنقائص وان نسبة ذلك كنسبة ما يتعالى عنه مما لا يليق من اتخاذ الولد والشريك ونحو ذلك مما ينكره سبحانه على من حسبه أشد الانكار فدل على أن ذلك قبيح ممتنع نسبته اليه كما يمتنع أن ينسب اليه سائر ما ينافى كماله المقدس ولو كان نفى تركه سدى انما يعلم بالسمع المجرد لم يقل بعد ذلك ألم يك نطفة الى آخره ومما يدل ان تعطيل اسمائه وصفاته ممتنع وكذلك تعطيل موجبها ومقتضاها فان ملكه الحق يستلزم امره ونهيه وثوابه وعقابه وكذلك يستلزم ارسال رسله وانزال كتبه وبعث المعاد ليوم يجزى فيه المحسن باحسانه والمسيء باساءته فمن انكر ذلك فقد انكر حقيقة ملكه ولم يثبت له الملك الحق ولذلك كان منكر ذلك كافرا بربه وان زعم انه يقر بصانع العالم فلم يؤمن بالملك الحق الموصوف بصفات الجلال والمستحق لنعوت الكمال كما ان المعطل لكلامه وعلوه على خلقه لم يؤمن به سبحانه فانه آمن برب لا يتكلم ولا يأمر ولا ينهى ولا يصعد اليه قول ولا عمل ولا ينزل من عنده ملك ولا أمر ولا نهى ولا ترفع اليه الايدى ومعلوم ان هذا الذى آمن به رب مقدر في ذهنه ليس هو رب العالمين واله المرسلين وكذلك اذا اعتبرت اسمه الحى وجدته مقتضيا الصفات كماله من علمه وسمعه وبصره وقدرته وارادته ورحمته وفعله ما يشاء واسمه القيوم مقتض لتدبير امر العالم العلوى والسفلى وقيامه بمصالحه وحفظه له فمن انكر صفات كماله لم يؤمن بأنه الحى القيوم وان اقر بذلك الحد في اسمائه وعطل حقائقها حيث لم يمكنه تعطيل الفاظها وبالله التوفيق

❁ فصل ❁ ومن ذلك قوله تعالى كلا والقمر والليل اذ أدبر والصبح اذا أسفر انها لاحدى الكبر نذيرا للبشر لمن شاء منكم ان يتقدم او يتأخر اقسم سبحانه بالقمر الذى هو آية الليل وفيه من الآيات الباهرة الدالة على ربوبية خالقه وباريه وحكمته وعلمه وعنايته بخلقه ما هو معلوم بالمشاهدة وهو سبحانه اقسم بالسماء وما فيها مما لا تراه من الملائكة وما فيها مما تراه من الشمس والقمر والنجوم وما يحدث بسبب حركات الشمس والقمر من الليل والنهار وكل ذلك آية من آياته ودلالة من دلائل ربوبيته ومن تدبر امر هذين النيرين العظيمين وجدهما من اعظم الآيات في خلقهما وجرمهما ونورهما وحركتهما على نهج واحد لا ينيان ولا يفترقان دائبين ولا يقع في حركتهما اختلاف بالبطء والسرعة والرجوع والاستقامة والانخفاض والارتفاع ولا يجرى احدهما في فلك صاحبه ولا يدخل عليه في سلطانه ولا تدرك الشمس القمر ولا يجيء الليل قبل انقضاء النهار بل لكل حركة مقدرة ونهج معين لا يشركه فيه الآخر كما أن له تأثيرا

ومنفعة لا يشركه فيها الآخر وذلك مما يدل من له أدنى عقل على انه بتسخير مسخر وامر آمر وتدبير مدبر بهرت حكمته العقول واحاط علمه بكل دقيق وجليل وفرق ماعلمه الناس من الحكم الذى فى خلقهما مالا تصل اليه عقولهم ولا تنتهى الى مباديها اوهامهم فغايتنا الاعتراف بجلال خالقهما كمال حكمته ولطف تدبيره وان نقول ماقاله اولوا الالباب قبلنا ربنا ماخلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار ولوان العبد وصف له جرم اسود مستدير عظيم الخلق يبدو فيه النور كخيط متصعن ثم يتزايد كل ليلة حتى يتكامل نوره فيصير اضوأ شئ واحسنه واجمله ثم يأخذ فى النقصان حتى يعود الى حاله الاول فيحصل بسبب ذلك معرفة الاشهر والسنين وحساب آجال العالم من مواقيت حجهم وصلاتهم ومواقيت اجارتهم ومداينا تهم ومعاملتهم التى لاتقوم مصالحهم الابها فصالح الدنيا والدين متعلقة بالاهلة وقدذكر سبحانه ذلك فى ثلاث آيات من كتابه احدها قوله يسألونك عن الاهلة قل هى مواقيت للناس والحج والثانية قوله هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ماخلق الله ذلك الا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون والثالثة قوله وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شئ فصلناه تفصيلا فلولا ما يحدثه الله سبحانه فى آية الليل من زيادة ضوئها ونقصانه لم يعلم ميقات الحج والصوم والعدد ومدة الرضاع ومدة الحمل ومدة الاجارة ومدة آجال الحاملات فان قيل كان يمكن هذا بحركة الشمس والايام التى تحفظ بطلوع الشمس وغروبها كما يعرف أهل الكتابين مواقيت صيامهم وأعيادهم بحساب الشمس قيل هذا وان كان ممكنا الا انه يعسر ضبطه ولا يقف عليه الا الآحاد من الناس ولا ريب ان معرفة اوائل الشهور واوساطها وأواخرها بالقمر امر يشترك فيه الناس وهو أسهل من معرفة ذلك بحساب الشمس واقل اضطرابا واختلافا ولا يحتاج الى تكلف حساب وتقليد من لا يعرفه من الناس لمن يعرفه فالحكمة البالغة التى فى تقدير السنين والشهور بسير القمر اظهر وأنفع وأصلح واقل اختلافا من تقديرها بسير الشمس فالرب جل جلاله دبر الاهلة بهذا التدبير العجيب لمنافع خلقه فى مصالح دينهم ودنياهم مع ما يتصل به من الاستدلال به على وحدانية الرب وكمال حكمته وعلمه وتدبيره فشهادة الحق بتغير الاجرام الفلكية وقيام أدلة الحدوث والخلق عليها فهى آيات ناطقة بلسان الحال على تكذيب الدهرية وزنادقة الفلاسفة والملاحدة القائلين بأنها ازلية ابدية لا يتطرق اليها التغيير ولا يمكن عدمها فاذا تأمل البصير القمر مثلا وافتقاره الى محل يقوم به وسيره دائبا لا يفتر مسير مسخر مدبر وهبوطه تارة وارتفاعه تارة وأفوله تارة وظهوره تارة وذهاب نوره شيئا فشيئا ثم عوده اليه كذلك وذهاب ضوئه جملة واحدة حتى يعود قطعة مظلمة بالكسوف علم قطعا انه مخلوق مربوب مسخر تحت امر خالق قاهر مسخر له كما يشاء وعلم أن الرب سبحانه لم يخلق هذا باطلا وان هذه الحركة فيه لابد أن تنتهى الى الانقطاع والسكون وان هذا الضوء والنور لابد أن ينتهى الى ضده وأن هذا السلطان لابد أن ينتهى الى العزل وسيجمع بينهما جامع المتفرقات بعد أن لم يكونا مجتمعين ويذهب بهما حيث شاء ويرى المشركين من عبدتهما حال آلهتهم التى عبدوها من دونه كما يرى عباد الكواكب انتشارها وعباد السماء انفطارها

وعباد الشمس تكويرها وعباد الاصنام اهانتها والقاءها في النار احقر شيء واذله واصغره كما ارى عباد العجل في الدنيا حاله ومبادر عباده تسحقه وتحقه والريح تمزقه وتذروه وتنسفه في اليم وكما أرى الاصنام في الدنيا صورها مكسرة مخردلة ملقاة بالامكنة القذرة ومعاول الموحدين قد هشمت منها تلك الوجوه وكسرت تلك الرؤس وقطعت تلك الايدي والارجل التي كانت لايوصل اليها بغير التقبيل والاستلام وهذه سنة الله التي لاتبدل وعادته التي لاتحول انه يرى عابد غيره حال معبوده في الدنيا والآخرة وان كان المعبود غير راض بعبادة غيره ارادة تبريه منه ومعاداته له احوج مايكون اليه ليهلك من هلك عن بينة ويحيي من حي عن بينة وبعلم الذين كفروا انهم كانوا كاذبين

تأمل سطور الكائنات فانها ❁ من الملك الاعلى اليك رسائل

وقد خط فيها لوتأملت خطها ❁ ألا كل شيء ماخلا الله باطل

ولو شاء تعالى لابقى القمر على حالة واحدة لايتغير وجعل التغيير في الشمس ولو شاء لغيرهما معا ولو شاء لابقاهما على حالة واحدة ولكن يرى عباده آياته في انواع تصاريفها ليدلهم على انه الله الذي لااله الا هو الملك الحق المبين الفعال لما يريد ألا له الخلق والامر تبارك الله رب العالمين واما تأثير القمر في ترطيب ابدان الحيوان والنبات وفي المياه وجزر البحر ومده وبحرانات الامراض ونقلها من حال الى حال وغير ذلك من المنافع فأمر ظاهر

❁ فصل ❁ واما اقسامه سبحانه بالليل اذ أدبر فلما في ادباره واقبال النهار من أبين الدلالات الظاهرة على المبدأ والمعاد فانه مبدأ ومعاد يومي مشهود بالعيان بينما الحيوان في سكون الليل قد هدأت حركاتهم وسكنت اصواتهم ونامت عيونهم وصاروا اخوان الاموات اذ قبل من النهار داعيه واسمع الخلائق مناديه فانتشرت منهم الحركات وارتفعت منهم الاصوات حتى كأنهم قاموا احياء من القبور يقول قائلهم الحمد لله الذي احيانا بعد ما اماتنا واليه النشور فهو معاد جديد ابدأه وأعاده الذي يبدي ويعيد فمن ذهب بالليل وجاء بالنهار سوى الواحد القهار فمن تأمل حال الليل اذا عسعس وادبر والصبح اذا تنفس وأسفر فهزم جيوش الظلام بنفسه واضاء أفق العالم بقبسه وفل كتائب المواكب بعساكره واضحك نواحي الارض بتباشيره وبشائره فيا لهما آيتان شاهدتان بوحدانية منشيهما وكمال ربوبيته وعظم قدرته وحكمته فتبارك الذي جعل طلوع الشمس وغروبها مقيما لسلطان الليل والنهار فلولا طلوعها ليطل امر العالم كله فكيف كان الناس يسعون في معاشهم ويتصرفون في امورهم والدنيا مظلمة عليهم وكيف كانت تهنيهم الحياة مع فقد لذة النور وروحه وأي ثمار ونبات وحيوان كان يوجد وكيف كانت تتم مصالح ابدان الحيوان والنبات ولولا غروبها لم يكن للناس هدو ولا قرار مع عظم حاجتهم الى الهدو لراحة أبدانهم وجموم حواسهم فلولا جثوم هذا الليل عليهم بظلمته ماهدأوا ولاقروا ولاسكنوا بل جعله احكم الحاكمين سكنا ولباسا كما جعل النهار ضياء ومعاشا ولولا الليل وبرده لاحترقت ابدان النبات والحيوان من دوام شروق الشمس عليها وكان يحرق ماعليها من نبات وحيوان فاقتضت حكمة احكم الحاكمين ان جعلها سراجا يطلع على العالم في وقت حاجتهم اليه ويغيب في وقت استغنائهم عنه فطلوعه لمصلحتهم وغيبته لمصلحتهم وصار النور والظلمة على تضادهما متعاونين

متعاونين متظاهرين على مصلحة هذا العالم وقوامه فلو جعل الله سبحانه النهار سرمدا الى يوم القيامة والليل سرمدا الى يوم القيامة لفاتت مصالح العالم واشتدت الضرورة الى تغييرذلك وازالته بضده وتأمل حكمته سبحانه في ارتفاع الشمس وانخفاضها لاقامة هذه الازمنة الاربعة من السنة وما في ذلك من مصالح الخلق ففي الشتاء تغور الحرارة في الشجر والنبات فيتولد منها مواد الثمار ويكثف الهواء فينشأ منه السحاب وينعقد فيحدث المطر الذي به حياة الارض ونماء ابدان الحيوان والنبات وحصول الافعال والقوى وحركات الطبائع وفي الصيف يحتدم الهواء فينضج الثمار وتشتد الحبوب ويجف وجه الارض فيتهيأ العمل وفي الخريف يصفو الهواء وتبرد الحرارة ويمتد الليل وتستريح الارض والشجر للحمل والنبات مرة ثانية بمنزلة راحة الحامل بين الحملين ففي هذه الازمنة مبدأ ومعاد مشهود وشاهد بالمبدأ والمعاد الغيبي والمقصود ان بحركة هذين النيرين تتم مصالح العالم وبذلك يظهر الزمان فان الزمان مقدار الحركة فالسنة الشمسية مقدار سير الشمس من نقطة الحمل الى مثلها والسنة القمرية مقدرة بسير القمر وهو اقرب الى الضبط واشترك الناس في العلم به وقدر احكم الحاكمين تنقلهما في منازلهما لما في ذلك من تمام الحكمة ولطف التدبير فان الشمس لو كانت تطلع وتغرب في موضع واحد لا تتعداه لما وصل ضوؤها وشعاعها الى كثير من الجهات فكان نفعها يفقده هناك فجعل الله سبحانه طلوعها دولا بين الارض لينال نفعها وتأثيرها البقاع فلا يبقى موضع من المواضع التي يمكن ان تطلع عليها الا اخذ بقسطه من نفعها واقتضى هذا التدبير المحكم ان وقع مقدار الليل والنهار على اربعة وعشرين ساعة ويأخذ كل منهما من صاحبه ومنتهى كل منهما اذا امتد خمسة عشر ساعة فلو زاد مقدار النهار على ذلك الى خمسين ساعة مثلا او اكثر لاختل نظام العالم وفسد اكثر الحيوان والنبات ولو نقص مقداره عن ذلك لاختل النظام ايضا وتعطلت المصالح ولو استويا دائما لما اختلفت فصول السنة التي باختلافها مصالح العباد والحيوان فكان في هذا التقدير والتدبير المحكم من الآيات والمصالح والمنافع مايشهد بأن ذلك تقدير العزيز العليم ولهذا يذكر سبحانه هذا التقدير ويضيفه الى عزته وعلمه كما قال تعالى وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فاذاهم مظلمون والشمس تجري لمستقرلها ذلك تقدير العزيز العليم وقال تعالى قل ائنكم لتكفرون بالذي خلق الارض في يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها اقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللارض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين فقضاهن سبع سموات في يومين واوحى في كل سماء امرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم وقال تعالى فالق الاصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم فهذه ثلاثة مواضع يذكر فيها ان تقدير حركات الشمس والقمر والاجرام العلوية ومانشأ عنها كان من مقتضى عزته وعلمه وأنه قدره بهاتين الصفتين وفي هذا تكذيب لاعداء الله الملاحدة الذين ينفون قدرته واختياره وعلمه بالمغيبات

﴿ فصل ﴾ واقسم سبحانه بهذه الاشياء الثلاثة وهي القمر والليل اذ أدبر والصبح اذا أسفر على المعاد لما في القسم من الدلالة على ثبوت المقسم عليه فانه يتضمن كمال قدرته

وحكمته وعنايته بخلقه وابداء الخلق واعادته كما هو مشهود فى ابداء النهار والليل واعادتهما وفى ابداء النور واعادته فى القمر وفى ابداء الزمان واعادته الذى هو حاصل بسير الشمس والقمر وابداء الحيوان والنبات واعادتهما وابداء فصول السنة واعادتها وابداء ماتحدث فى تلك الفصول واعادته فكل ذلك دليل ظاهر على المبدأ والمعاد الذى أخبرت به الرسل كلهم عنه فصرف سبحانه الآيات الدالة على صدق رسله ونوعها وجعلها للفطر تارة وللسمع تارة وللمشاهدة تارة فجعلها آفاقية ونفسية ومنقولة ومعقولة ومشهودة بالعيان ومذكورة بالجنان فأبى الظالمون الا كفورا واتخذوا من دونه آلهة لايخلقون شيئا وهم يخلقون ولايملكون لانفسهم ضرا ولانفعا ولايملكون موتا ولاحياة ولانشورا ولما اقام الحجة وبين المحجة ارتهن كل نفس بكسبها وواخذها بذنبها واستثنى من أولئك من قبل هداه واتبع رضاه وهم أصحاب اليمين الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين وسلكوا غير سبيل المجرمين الذين ليسوا من المصلين ولامن مطعمى المسكين وهم من اهل الخوض مع الخائضين المكذبين بيوم الدين فهذه اربع صفات أخرجتهم من زمرة المفلحين وادخلتهم فى جملة الهالكين الاولى ترك الصلاة وهى عمود الاخلاص للمعبود الثانية ترك اطعام المسكين الذى من هو من اعلى مراتب الاحسان للعبيد فلا اخلاص للخالق ولا احسان للمخلوق كما قال تعالى الذين هم يراؤن ويمنعون الماعون وقال لايأتون الصلاة الا وهم كسالى ولاينفقون الا وهم كارهون وهذا ضد ماوصف به أصحاب اليمين بقوله الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون وقال تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون وقرن سبحانه بين هذين الاصلين فى غير موضع فى كتابه فأمر بهما تارة وأثنى على فاعلهما تارة وتوعد بالويل والعقاب تاركهما تارة فان مدار النجاة عليهما ولا فلاح لمن اخل بهما الصفة الثالثة والرابعة الخوض بالباطل والتكذيب بالحق فاجتمع لهم عدم الاخلاص والاحسان والخوض بالباطل والتكذيب بالحق واجتمع لاصحاب الاخلاص والاحسان والتصديق بالحق والتكلم به فاستقام اخلاصهم واحسانهم ويقينهم وكلامهم واستبدل اصحاب الشمال بالاخلاص شركا وبالاحسان اساءة وباليقين شكا وتكذيبا وبالكلام النافع خوضا فى الباطل فلذلك لم تنفعهم شفاعة الشافعين أى لم يكن لهم من شفيع فيهم لان الشفاعة تقع فيهم ولاتنفع وهذا لما أعرضوا عن التذكرة ولم يرفعوا بها رأسا وجفلوا عن سماعها كما تجفل حمر الوحش من الاسد أو من الرماة ثم ختم السورة بأنه جمع فيها بين شرعه وقدره واقامة الحجة عليهم باثبات المشيئة لهم وبيان مقتضى التوحيد والربوبية وان ذلك اليه لا اليهم فالاول عدله والثانى فضله فالاول يوجب السعى والطلب والحرص على ماينجيهم كما يفعلون ذلك فى مصالح دنياهم بل أشد والثانى يوجب الاستعانة والتوكل والتفويض والرغبة الى من ذلك بيده ليسهل ويوفقهم والله المستعان وعليه التكلان

﴿ فصل ﴾ ومن ذلك قوله فلا اقسم بما تبصرون ومالا تبصرون انه لقول رسول كريم الى آخرها قال مقاتل بما تبصرون من الخلق ومالا تبصرون منه وقال قتادة اقسم بالاشياء كلها بما يبصر منها ومالا يبصر وقال الكلبى تبصرون من شئ ومالا تبصرون من شئ وهذا أعم قسم وقع فى

القرآن فانه يعم العلويات والسفليات والدنيا والآخرة وما يرى ويدخل في ذلك الملائكة كلهم والجن والانس والعرش والكرسي وكل مخلوق وكل ذلك من آيات قدرته وربوبيته وهو سبحانه يصرف الاقسام كما يصرف الآيات ففي ضمن هذا القسم ان كل ما يرى وما لا يرى آية ودليل على صدق رسوله وان ما جاء به هو من عند الله وهو كلامه لا كلام شاعر ولا مجنون ولا كاهن ومن تأمل المخلوقات ما يراه منها وما لا يراه واعتبر ما جاء به الرسول بها ونقل فكرته في مجاري الخلق والامر ظهر له ان هذا القرآن من عند الله وانه كلامه وهو اصدق الكلام وانه حق ثابت كما ان سائر الموجودات ما يرى منها وما لا يرى حق كما قال تعالى فورب السماء والارض انه لحق مثل ما انكم تنطقون اى ان كان نطقكم حقيقة وهو امر موجود لا تمارون فيه ولا تشكون فهكذا ما اخبرتكم به من التوحيد والمعاد والنبوة حق كما في الحديث انه لحق مثل ما انك ههنا فكأنه سبحانه يقول ان القرآن حق كما ان ما شاهدوه من الخلق وما لا يشاهدونه حق موجود بل لو فكرتم فيما تبصرون وما لا تبصرون لدلكم ذلك على ان القرآن حق ويكفي الانسان من جميع ما لا يبصره وما لا يبصره بعينه ومبدأ خلقه ونشأته وما يشاهده من احواله ظاهرا وباطنا ففي ذلك ابين دلالة على وحدانية الرب وثبوت صفاته وصدق ما اخبر به رسوله وما لم يباشره قلبه ذلك حقيقة لم تخالط بشاشة الايمان قلبه ثم ذكر سبحانه المقسم عليه فقال انه لقول رسول كريم وهذا رسوله البشري محمد صلى الله عليه وسلم وفي اضافته اليه باسم الرسالة بين ذلك انه كلام المرسل فمن انكر ان يكون الله قد تكلم بالقرآن فقد انكر حقيقة الرسالة ولو كانت اضافته اليه اضافة انشاء وابتداء لم يكن رسولا ولناقض ذلك اضافته الى رسوله الملكي في سورة التكوير ثم بين سبحانه كذب اعدائه وبهتهم في نسبة كلامه تعالى الى غيره وانه لم يتكلم به بل قال من تلقاء نفسه كما بين كذب من قال ان هذا الا قول البشر فمن زعم انه قول البشر فقد كفر وسيصليه الله سقر ثم اخبر سبحانه انه تنزيل من رب العالمين وذلك يتضمن امورا احدها أنه تعالى فوق خلقه كلهم وان القرآن نزل من عنده والثاني انه تكلم به حقيقة لقوله من رب العالمين ولو كان غيره هو المتكلم به لكان من ذلك الغير ونظيره هذا قوله ولكن حق القول مني ونظيره قوله قل نزله روح القدس من ربك بالحق وقوله تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم تنزيل من حكيم حميد وما كان من الله فليس بمخلوق ولا ينتقض هذا بأن الرزق والمطر وما في السموات والارض جميعا منه وهو مخلوق لان ذلك كله أعيان قائمة بنفسها وصفات وافعال لتلك الاعيان فاضافتها الى الله سبحانه وانها منه اضافة خلق كاضافة بيته وعبده وناقته وروحه وبابه اليه بخلاف كلامه فانه لا بد أن يقوم بمتكلمه اذ كلام من غير متكلم كسمع من غير سامع وبصر من غير مبصر وذلك عين المحال فاذا اضيف الى الرب كان بمنزلة اضافة سمعه وبصره وحياته وقدرته وعلمه ومشيئته اليه ومن زعم ان هذه اضافة مخلوق الى خالق فقد زعم ان الله لا سمع له ولا بصر ولا حياة ولا قدرة ولا مشيئة تقوم به وهذا هو التعطيل الذي هو شر من الاشراك وان زعم ان اضافة السمع والبصر والعلم والحياة والقدرة اضافة صفة الى موصوف فاضافة الكلام اليه اضافة مخلوق الى خالق فقد تناقض وخرج عن موجب العقل والفطرة والشرع ولغات الامم وفرق بين متماثلين حقيقة وعقلا وشرعا وفطرة ولغة وتأمل كيف اضافه سبحانه

(الى)

الى الرسول بلفظ القول واضافه الى نفسه بلفظ الكلام فى قوله حتى يسمع كلام الله فان الرسول يقول للمرسل اليه ما امر بقوله فيقول قلت كذا وكذا وقلت لهم ما امرتني ان أقوله كما قال المسيح ماقلت لهم الا ما أمرتنى به والمرسل يقول للرسول قل لهم كذا وكذا كما قال تعالى قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة وقل لعبادى يقولوا التي هى أحسن قل للمؤمنين يغضوا من ابصارهم ونظائره فاذا بلغ الرسول ذلك صح ان يقال قال الرسول كذا وهذا قول الرسول أى قاله مبلغا وهذا قوله مبلغا عن مرسله ولا يجئ فى شئ من ذلك تكلم لهم بكذا وكذا ولا تكلم الرسول بكذا وكذا ولا أنه بكلام رسول كريم ولا فى موضع واحد بل قيل للصديق وقد تلى آية هذا كلامك وكلام صاحبك فقال ليس بكلامى ولا كلام صاحبي هذا كلام الله

﴿ فصل ﴾ الامر الثالث ماتضمنه قوله تنزيل من رب العالمين ان ربوبيته الكاملة لخلقه تأبى أن يتركهم سدى لا يأمرهم ولا ينهاهم ولا يرشدهم الى ماينفعهم ويحذرهم ما يضرهم بل يتركهم هملا بمنزلة الانعام السائمة فمن زعم ذلك لم يقدر رب العالمين قدره ونسبه الى ما لا يليق به تعالى فتعالى الله الملك الحق لا اله الا هو رب العرش الكريم ثم أقام سبحانه البرهان القاطع على صدق رسوله وأنه لم يتقول عليه فيما قاله وأنه لو تقول عليه لما أقره ولعاجله بالاهلاك فان كمال علمه وقدرته وحكمته تأبى أن يقر من تقول عليه وافترى عليه وأضل عباده واستباح دماء من كذبه وحريمهم وأموالهم وأظهر فى الارض الفساد والجور والكذب وخالف الحق فكيف يليق بأحكم الحاكمين وأرحم الراحمين وأقدر القادرين أن يقره على ذلك بل كيف يليق به أن يؤيده وينصره ويعليه ويظهره ويظفره بأهل الحق يسفك دماءهم ويستبيح أموالهم وأولادهم ونساءهم قائلا ان الله أمرنى بذلك وأباحه لى بل كيف يليق به أن يصدقه بأنواع التصديق كلها فيصدقه باقراره وبالآيات المستلزمة لصدقه التى دلالتها على التصديق كدلالة التصديق بالقول وأظهر ثم يصدقه بأنواعها كلها على اختلافها فكل آية على انفرادها مصدقة له ثم يحصل باجتماع تلك الآيات تصديق فوق تصديق كل آية بمفردها ثم يعجز الخلق عن معارضته ثم يصدقه بكلامه وقوله ثم يقيم الدلالة القاطعة على أن هذا قوله وكلامه فيشهد له باقراره وفعله وقوله فمن أعظم المحال وأبطل الباطل وأبين البهتان أن يجوز على أحكم الحاكمين ورب العالمين أن يفعل ذلك بالكاذب المفترى عليه الذى هو شر الخلق على الاطلاق فمن جوز على الله أن يفعل هذا بشر خلقه وأكذبهم فما آمن بالله قطعا ولا عرف الله ولا هذا هو رب العالمين ولا يحسن نسبة ذلك الى من له مسكة من عقل وحكمة وحجى ومن فعل ذلك فقد أزرى بنفسه ونادى على جهله وأذكر فى هذا مناظرة جرت لى مع بعض اليهود قلت له بعد أن أفضى فى نبوة النبى صلى الله عليه وسلم الى أن قلت له انكار نبوته يتضمن القدح فى رب العالمين وتنقصه بأقبح التنقص فكان الكلام معكم فى الرسول والكلام الآن فى تنزيه الرب تعالى فقال كيف تقول مثال هذا الكلام فقلت له بيانه على فاسمع الآن أنتم تزعمون أنه لم يكن رسولا وانما كان ملكا قاهرا قهر الناس بسيفه حتى دانوا له ومكث ثلاثا وعشرين سنة

يكذب على الله ويقول أوحى الىّ ولم يوح اليه وأمرنى ولم يأمره ونهانى ولم ينهه وقال الله كذا ولم يقل ذلك وأحل كذا وحرم كذا وأوجب كذا وكره كذا ولم يحل ذلك ولا حرمه ولا أوجبه بل هو فعل ذلك من تلقاء نفسه كاذبا مفتريا على الله وعلى أنبيائه وعلى رسله وملائكته ثم مكث من ذلك ثلاث عشرة سنة يستعرض عباده بسفك دماءهم ويأخذ أموالهم ويسترق نساءهم وأبناءهم ولا ذنب لهم الا الرد عليه ومخالفته وهو فى ذلك كله يقول الله أمرنى بذلك ولم يأمره ومع ذلك فهو ساع فى تبديل أديان الرسل ونسخ شرائعهم وحل نواميسهم فهذه حاله عندكم فلا يخلو اما أن يكون الرب تعالى عالما بذلك مطلعا عليه من حاله يراه ويشاهده أم لا فان قلتم ان ذلك جميعه غائب عن الله لم يعلم به قدحتم فى الرب تعالى ونسبتموه الى الجهل المفرط اذ لم يطلع على هذا الحادث العظيم ولا علمه ولا رآه وان قلتم بل كان ذلك بعلمه واطلاعه ومشاهدته قيل لكم فهل كان قادرا على ان يغير ذلك ويأخذ على يده ويحول بينه وبينه أم لا فان قلتم ليس قادرا على ذلك نسبتموه الى العجز المنافى للربوبية وكان هذا الانسان هو وأتباعه أقدر منه على تنفيذ اراداتهم وان قلتم بل كان قادرا ولكن مكنه ونصره وسلطه على الخلق ولم ينصر أولياءه واتباع رسله نسبتموه الى أعظم السفه والظلم والاخلال بالحكمة هذا لو كان مخلى بينه وبين ما فعله فكيف وهو فى ذلك كله ناصره ومؤيده ومجيب دعواته ومهلك من خالفه وكذبه ومصدقه بأنواع التصديق ومظهر الآيات على يديه التى لو اجتمع أهل الارض كلهم على أن يأتوا بواحدة منها لما أمكنهم ولعجزوا عن ذلك وكل وقت من الاوقات يحدث له من أسباب النصر والتمكين والظهور والعلو وكثرة الاتباع أمرا خارجا عن العادة فظهر ان من أنكر كونه رسولا نبيا فقد سب الله وقدح فيه ونسبه الى الجهل والعجز والسفه قلت له ولا ينتقض هذا بالملوك الظلمة الذين مكنهم فى الارض وقتا ما ثم قطع دابرهم وأبطل سنتهم ومحا آثارهم وجورهم فان أولئك لم يعيدوا شيئا من هذا ولا أيدوا ونصروا وظهرت على أيديهم الآيات ولا صدقهم الرب تعالى باقراره ولا بفعله ولا بقوله بل أمرهم كان بالضد من أمر الرسول كفرعون ونمرود وأضرابهما ولا ينتقض هذا بمن ادعى النبوة من الكذابين فان حاله كانت ضد حال الرسول من كل وجه بل حالهم من أظهر الادلة على صدق الرسول ومن حكمة الله سبحانه أن أخرج مثل هؤلاء الى الوجود ليعلم حال الكذابين وحال الصادقين وكان ظهورهم من أبين الادلة على صدق الرسل والفرق بين هؤلاء وبينهم فبضدها تتبين الاشياء والضد يظهر حسنه الضد فمعرفة أدلة الباطل وشبهه من أنواع أدلة الحق وبراهينه فلما سمع ذلك قال معاذ الله لانقول انه ملك ظالم بل نبى كريم من اتبعه فهو من السعداء وكذلك من اتبع موسى فهو كمن اتبع محمدا قلت له بطل كل ما تموهون به بعد هذا فانكم اذا أقررتم انه نبى صادق فلابد من تصديقه فى جميع ما أخبر به وقد علم اتباعه وأعداؤه بالضرورة انه دعى الناس كلهم الى الايمان وأخبر أن من لم يؤمن به فهو كافر مخلد فى النار وقاتل من لم يؤمن به من أهل الكتاب وأستحل عليهم بالكفر واستباح أموالهم ودماءهم ونساءهم وأبناءهم فان كان ذلك عدوانا منه وجورا لم يكن نبيا وعاد الامر الى القدح فى الرب تعالى وان كان ذلك بأمر الله ووحيه

(لم يسم)

لم يسع مخالفته وترك اتباعه ولزم تصديقه فيما أخبر به وطاعته فيما أمر وقد أرشد سبحانه الى هذا المسلك في غير موضع من كتابه فقال ولو تقول علينا بعض الاقاويل لاخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين يقول سبحانه لو تقول علينا قولا واحدا من تلقاء نفسه لم نقله ولم نوحه اليه لما أقررناه ولاخذنا بيمينه ثم أهلكناه هذا احد القولين قال ابن قتيبة في هذا قولان أحدهما ان اليمين القوة والقدرة وأقام اليمين مقام القوة لان قوة كل شئ في ميامنه قلت وعلى هذا تكون اليمين من صفة الاخذ وهذا قول ابن عباس في اليمين قال ولاهل اللغة في هذا مذهب آخر وهو ان الكلام ورد على ما اعتاده الناس من الاخذ بيد من يعاقب وهو قولهم اذا ارادوا عقوبة رجل خذ بيده وأكثر ما يقوله السلطان والحاكم بعد وجوب الحكم خذ بيده واسفع بيده فكأنه قال لو كذب علينا في شئ اليكم عنا لاخذنا بيمينه ثم عاقبناه بقطع الوتين والى هذا المعنى ذهب الحسن انتهى فقد أخبر سبحانه انه لو تقول عليه شيأ من الاقاويل لما أقره ولعاجله بالعقوبة فان كذبا على الله ليس ككذب على غيره ولا يليق به ان يقر الكاذب عليه فضلا عن أن ينصره ويؤيده ويصدقه وقوله ثم لقطعنا منه الوتين والوتين نياط القلب وهو عرق يجري في الظهر حتى يتصل بالقلب اذا انقطع بطلت القوى ومات صاحبه هذا قول جميع أهل اللغة قال ابن قتيبة ولم يرد أنا نقطع ذلك العرق بعينه ولكنه أراد لو كذب علينا لامتناه او قتلناه فكان كمن قطع وتينه قال ومثله قوله صلى الله عليه وسلم مازالت اكلة خيبر تعاودني وهذا أوان قطعت ابهري والابهر عرق يتصل بالقلب فاذا انقطع مات صاحبه فكأنه قال هذا أوان قتلني السم فكنت كمن انقطع ابهره ثم قال تعالى فما منكم من أحد عنه حاجزين اي لا يحجزه مني احد ولا يمنعه مني الموضع الثاني قوله تعالى ام يقولون افترى على الله كذبا فان يشأ الله يختم على قلبك ويمحو الله الباطل ويحق الحق بكلماته انه عليم بذات الصدور وفي معنى الآية للناس قولان أحدهما قول مجاهد ومقاتل ان يشأ الله يربط على قلبك بالصبر على أذاهم حتى لا يشق عليك والثاني قول قتادة ان يشأ الله ينسيك القرآن ويقطع عنك الوحي وهذا القول دون الاول لوجوه أحدها ان هذا خرج جوابا لهم وتكذيبا لقولهم ان محمدا كذب على الله وافترى عليه هذا القرآن فأجابهم بأحسن جواب وهو أن الله تعالى قادر لا يعجزه شئ فلو كان كما تقولون لختم على قلبه فلا يمكنه أن يأتي بشئ منه بل يصير القلب كالشئ المختوم عليه فلا يوصل الى ما فيه فيعود المعنى الى انه لو افترى علي لم امكنه ولم أقره ومعلوم أن مثل هذا الكلام لا يصدر من قلب مختوم عليه فان فيه من علوم الاولين والآخرين وعلم المبدأ والمعاد والدنيا والآخرة والعلم الذي لا يعلمه الا الله والبيان التام والجزالة والفصاحة والجلالة والاخبار بالغيوب مالم يكن من ختم على قلبه أن يأتي به ولا ببعضه فلولا اني أنزلته على قلبه ويسرته بلسانه لما أمكنه ان يأتيكم بشئ منه فأين هذا المعنى الى المعنى الذي ذكره الآخرون وكيف يلتئم معنى حكاية قولهم وكيف يتضمن الرد عليهم الوجه الثاني أن مجرد الربط على قلبه بالصبر على أذاهم يصدر من المحق والمبطل فلا يدل ذلك على التمييز بينهما ولا يكون فيه رد لقولهم فان الصبر على أذى المكذب لا يدل بمجرده على صدق المخبر الثالث أن الرابط على قلب العبد لا يقال له ختم على قلبه ولا

هكذا بياض في الا

يعرف هذا في عرف المخاطب ولا لغة العرب ولا هو المعهود في القرآن بل المعهود استعمال الختم على القلب في شأن الكفار في جميع موارد اللفظ في القرآن كقوله ختم الله على قلوبهم وقوله أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة ونظائره وأما ربطه على قلب العبد بالصبر فكقوله وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والارض وقوله وأصبح فؤاد أم موسى فارغا ان كادت لتبدي به لولا ان ربطنا على قلبها والانسان يسوغ له في الدعاء أن يقول اللهم اربط على قلبي ولا يحسن ان يقول اللهم اختم على قلبي الرابع انه سبحانه حيث يحكي اقوالهم انه افتراه لا يجيبهم على هذا الجواب بل يجيبهم بأنه لو افتراه لم يملكوا له من الله شيأ بل كان يأخذه ولا يقدرون على تخليصه كقوله أم يقولون افتراه قل ان افتريته فلا تملكون لي من الله شيأ وتارة يجيبهم بالمطالبة بمعارضة بمثله او شيء منه وتارة باقامة الادلة القاطعة على أنه الحق وأنهم هم الكاذبون المفترون وهذا هو الذي يحسن في جواب هذا السؤال لا مجرد الصبر الخامس أن هذه الآية نظير ما نحن فيه وأنه لو شاء لما أقره ولا مكنه وتفسير القرآن بالقرآن من أبلغ التفاسير السادس أنه لا دلالة في سياق الآية على الصبر بوجه ما لا بالمطابقة ولا التضمين ولا اللزوم فمن أين يعلم أنه أراد ذلك ولم يستقر هذا المعنى في غير هذا المعنى فيحمل عليه بخلاف كونه يحول بينه وبينه ولا يمكنه من الافتراء عليه فقد ذكره في مواضع السابع أنه سبحانه أخبر أنه لو شاء لما تلاه عليهم ولا أدراهم به وأن ذلك انما هو بمشيئته واذنه وعلمه كما قال تعالى ولو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به وهذا من أبلغ الحجج وأظهرها أي هذا الكلام ليس من قبلي ولا من عندي ولا أقدر أن أفتريه على الله ولو كان ذلك مقدورا لي لكان مقدورا لمن هو من أهل العلم والكتابة ومخالفة الناس والتعلم منهم ولكن الله بعثني به ولو شاء سبحانه لم ينزله ولم يبصره بلساني فلم يدعني أتلوه عليكم وان أعلمكم به ألبتة لا على لساني ولا على لسان غيري ولكنه أوحاه الي وأذن لي في تلاوته عليكم وأدراكم به بعد أن لم تكونوا دارين به فلو كان كذبا وافتراء كما تقولون لامكن غيري أن يتلوه عليكم وتدرون به من جهته لان الكذب لا يعجز عنه البشر وأنتم لم تدروا بهذا ولم تسمعوه الا مني ولم تسمعوه من بشر غيري ثم اجاب عن سؤال مقدر وهو انه تعلمه من غيره او افتراه من تلقاء نفسه فقال فقد لبثت فيكم عمرا من قبله تعلمون حالي ولا يخفى عليكم سيري ومدخلي ومخرجي وصدقي وامانتي ومن هذا لم أتمكن من قول شيء منه ألبتة ولا كان لي به علم ولا ببعضه ثم أتيتكم به وهلة من غير تعلم ولا تعلم ولا معاناة الاسباب التي اتمكن بها منه ولا من بعضه وهذا من اظهر الادلة وابين البراهين انه من عند الله اوحاه الي وانزله علي ولو شاء ما فصل فلم يمكني من تلاوته ولا امكنكم من العلم به بل مكنني من تلاوته ومكنكم من العلم به فلم تكونوا عالمين به ولا ببعضه ولما كن قبل ان يوحى الي تاليا له ولا ببعضه فتأمل صحة هذا الدليل وحسن تأليفه وظهور دلالته ومن هذا قوله سبحانه ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا اليك ثم لا تجد لك به علينا وكيلا وهذا هو المناسب لقوله ام يقولون افترى على الله كذبا فان يشاء الله يختم على قلبك ولقوله ولو تقول علينا بعض الاقاويل لاخذنا منه

باليمين فهو برهان مستقل مذكور في القرآن على وجوه متعددة والله أعلم الثامن ان مثل هذا التركيب انما جاء في القرآن للنفي لا للاثبات كقوله تعالى ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا اليك وقوله ان يشأ يذهبكم ايها الناس ويأت بآخرين وقوله ان يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره وقوله ان نشأ نخسف بهم الارض أو نسقط عليهم كسفا من السماء ونظائره لم يأت الا فيما كان مابعد فعل المشيئة منفيا التاسع ان الختم على القلب لا يستلزم الصبر بل قد يختم على قلب العبد ويسلبه صبره بل اذا ختم على القلب زال الصبر وضعف بخلاف الربط على القلب فانه يستلزم الصبر كما قال تعالى وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ومعنى الربط في اللغة الشد ولهذا يقال لكل من صبر على أمر ربط قلبه كأنه حبس قلبه عن الاضطراب ومنه يقال هو رابط الجاش وقد ظن الواحدى ان على زائدة والمعنى يربط قلوبكم وليس كما ظن بل بين ربط الشيء والربط عليه فرق ظاهر فانه يقال ربط الفرس والدابة ولا يقال ربط عليها فاذا احاط الرباط بالشيء وعمه قيل ربط عليه كأنه احاط عليه بالرباط فلهذا قيل ربط على قلبه وكان أحسن من ان يقال ربط قلبه والمقصود ان هذا الربط معه يكون الصبر أشد وأثبت بخلاف الختم العاشر ان الختم هو شد القلب حتى لا يشعر ولا يفهم فهو مانع يمنع العلم والتقصد والنبي صلى الله عليه وسلم كان يعلم قول اعدائه أنه افترى القرآن ويشعر به فلم يجعل الله على قلبه مانعا من شعوره بذلك وعلمه به فاذا قيل الامر كذلك ولكن جعل الله على قلبه مانعا من التأذى بقولهم قيل هذا اولى ان يسمى ختما وقد كان يؤذيه قولهم ويحزنه كما قال تعالى قد نعلم انه ليحزنك الذي يقولون وكان وصول هذا الاذى اليه من كرامة الله له فانه لم يؤذ نبي ما أوذى فالقول في الآية هو قول قتادة والله أعلم ثم أخبر سبحانه أن القرآن تذكرة للمتقين يتذكر به المتقي فيبصر ماينفعه فيأتيه ومايضره فيجتنبه ويتذكر به أسماء الرب تعالى وصفاته وافعاله فيؤمن ويتذكر به ثوابه وعقابه ووعيده وامره ونهيه وآياته في أوليائه واعدائه ونفسه ومايزكيها ويطهرها ويعليها ومايدسيها ويخفيها ويحقرها ويذكر به علم المبدأ والمعاد والجنة والنار وعلم الخير والشر فهو التذكرة على الحقيقة تذكرة حجة للعالمين ومنفعة وهداية للمتقين ثم قال سبحانه وانا لنعلم ان منكم مكذبين اى لا يخفون علينا فسنجازيهم بتكذيبهم ثم أخبر سبحانه أن رسوله وكلامه حسرة على الكافرين اذا عاينوا حقيقة ما اخبر به كان تكذيبهم عليهم من أعظم الحسرات حين لا ينفعهم التحسر وهكذا كل من كذب بحق وصدق بباطل فانه اذا انكشف له حقيقة ما كذب به وصدق به كان تكذيبه وتصديقه حسرة عليه كمن فرط فيما ينفعه وقت تحصيله حتى اذا اشتدت حاجته اليه وعاين فوز المحصلين صار تفريطه عليه حسرة ثم أخبر سبحانه أن القرآن والرسول حق اليقين فقيل هو من باب اضافة الموصوف الى صفته اى الحق اليقين نحو مسجد الجامع وصلاة الاولى وهذا موضع يحتاج الى تحقيق فنقول وبالله التوفيق ذكر الله سبحانه في كتابه مراتب اليقين وهي ثلاثة حق اليقين وعلم اليقين وعين اليقين كما قال تعالى كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم ثم لترونها عين اليقين فهذه ثلاث مراتب لليقين أولها علمه وهو التصديق التام به بحيث لا يعرض له شك ولا شبهة

تقدح فى تصديقه كعلم اليقين بالجنة مثلا وتيقنهم أنها دار المتقين ومقر المؤمنين فهذه مرتبة العلم كتيقنهم أن الرسل أخبروا بها عن الله وتيقنهم صدق المخبر المرتبة الثانية عين اليقين وهى مرتبة الرؤية والمشاهدة كما قال تعالى ثم لترونها عين اليقين وبين هذه المرتبة و التى قبلها فرق مابين العلم والمشاهدة فاليقين للسمع وعين اليقين للبصر وفى المسند للامام أحمد مرفوعا ليس الخبر كالمعاين وهذه المرتبة هى التى سألها ابراهيم الخليل ربه أن يريه كيف يحيي الموت ليحصل له مع علم اليقين عين اليقين فكان سؤاله زيادة لنفسه وطمأنينة لقلبه فيسكن القلب عند المعاينة ويطمأن لقطع المسافة التى بين الخبر والعيان وعلى هذه المسافة اطلق النبى صلى الله عليه وسلم لفظ الشك حيث قال نحن احق بالشك من ابراهيم ومعاذ الله أن يكون هناك شك منه ولا من ابراهيم وانما هو عين بعد علم وشهود بعد خبر ومعاينة بعد سماع المرتبة الثالثة مرتبة حق اليقين وهى مباشرة الشئ بالاحساس به كما اذا دخلوا الجنة وتمتعوا بما فيها فهم فى الدنيا فى مرتبة علم اليقين وفى الموقف حين تزلف وتقرب منهم حتى يعاينوها فى مرتبة عين اليقين واذا دخلوها وباشروا نعيمها فى مرتبة حق اليقين ومباشرة المعلوم تارة يكون بالحواس الظاهرة وتارة يكون بالقلب ولهذا قال وانه لحق اليقين فان القلب يباشر الايمان به ويخالطه كما يباشر بالحواس مايتعلق بها فحينئذ تخالط بشاشته القلوب ويبقى لها حق اليقين وهذه أعلى مراتب الايمان وهى الصديقية التى تفاوتت فيها مراتب المؤمنين وقد ضرب بعض العلماء لمراتب الثلاثة مثالا فقال اذا قال لك من تجزم بصدقه عندى عسل أريد أن أطعمك منه فصدقته كان ذلك علم يقين فاذا أحضره بين يديك صار ذلك عين اليقين فاذاذقته صار ذلك حق اليقين وعلى هذا فليست هذه الاضافة من باب اضافة الموصوف الى صفته بل من اضافة الجنس الى نوعه فان العلم والعين والحق أعم من كونها يقينا فأضيف العام الى الخاص مثل بعض المتاع وكل الدراهم ولما كان المضاف والمضاف اليه فى هذا الباب يصدقان على ذات واحدة بخلاف قولك دار عمرو وثوب زيد ظن من ظن أنها من اضافة الموصوف الى صفته وليس كذلك بل هى من باب اضافة الجنس الى نوعه كثوب خز وخاتم فضة فالمضاف اليه قد يكون مغايرا للمضاف لايصدقان على ذات واحدة وقد يجانسه فيصدقان على مسمى واحد والله أعلم ثم ختم السورة بقوله فسبح باسم ربك العظيم وهى جديرة بهذه الخاتمة لما تضمنته من الاخبار عن عظمة الرب تعالى وجلاله وذكر عظمة ملكه وجريان حكمه بالعدل على عباده فى الدنيا والآخرة وذكر عظمته تعالى فى ارسال رسوله وانزال كتابه وأنه تعالى أعظم وأجل وأكبر عند أهل سمواته والمؤمنين من عباده من أن يقر كذابا متقولا عليه مفترى عليه يبدل دينه وينسخ شرائعه ويقتل عباده ويخبر عنه بالاحقيقة له وهو سبحانه مع ذلك يؤيده وينصره ويجيب دعواته ويأخذ أعداءه ويرفع قدره ويعلى ذكره فهو سبحانه العظيم الذى تأبى عظمته أن يفعل ذلك بل من أتى بأقبح أنواع الكذب والظلم فسبحان ربنا العظيم وتعالى عما ينسبه اليه الجاهلون علوا كبيرا

﴿ فصل ﴾ ومن ذلك قوله عز وجل فلا أقسم برب المشارق والمغارب انا لقادرون على

أن نبدل خيرا منهم وما نحن بمسبوقين أقسم سبحانه برب المشارق والمغارب وهى اما مشارق النجوم ومغاربها أو مشارق الشمس ومغاربها وان كل موضع من الجهة مشرق ومغرب فكذلك جمع فى موضع وأفرد فى موضع وثنى فى موضع آخر فقال رب المشرقين ورب المغربين فقيل هما مشرقا الصيف والشتاء وجاء فى كل موضع ما يناسبه فجاء فى سورة الرحمن رب المشرقين ورب المغربين لانها سورة ذكرت فيها المزدوجات فذكر فيها الخلق والتعليم والشمس والقمر والنجوم والشجر والسماء والارض والحب والثمر والجن والانس ومادة أبى البشر وأبى الجن والبحرين والجنة والنار وقسم الجنة الى جنتين عاليتين وجنتين دونهما وأخبر أن فى كل جنة عينين فناسب كل المناسبة أن يذكر المشرقين والمغربين وأما سورة سأل سائل فانه أقسم سبحانه على عموم قدرته وكمالها وصحة تعلقها باعادتهم بعد العدم فذكر المشارق والمغارب بلفظ الجمع اذ هو أدل على المقسم عليه سواء أريد مشارق النجوم ومغاربها أو مشارق الشمس ومغاربها أو كل جزء من جهتى المشرق والمغرب فكل ذلك آية ودلالة على قدرته تعالى على أن يبدل امثال هؤلاء المكذبين وينشئهم فيما لا يعلمون فيأتى بهم فى نشأة اخرى كما يأتى بالشمس كل يوم من مطلع وتذهب فى مغرب واما فى سورة المزمل فذكر المشرق والمغرب بلفظ الافراد لما كان المقصود ذكر ربوبيته ووحدانيته وكما انه تفرد بربوبية المشرق والمغرب وحده فكذلك يجب ان يتفرد بالربوبية والتوكل عليه وحده فليس للمشرق والمغرب رب سواه فكذلك ينبغى أن لا يتخذ اله ولا وكيل سواه وكذلك قال موسى لفرعون حين سأله ومارب العالمين فقال رب المشرق والمغرب وما بينهما ان كنتم تعقلون وفى ربوبية سبحانه للمشارق والمغارب تنبيه على ربوبية السموات وما حوته من الشمس والقمر والنجوم وربوبيته ما بين الجهتين وربوبية الليل والنهار وما تضمناه ثم قال انا لقادرون على ان نبدل خيرا منهم وما نحن بمسبوقين اى لقادرون على ان نذهب بهم ونأتى بأطوع لنا منهم وخيرا منهم كما قال تعالى ان يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديرا وقوله وما نحن بمسبوقين اى لا يفوتنى ذلك اذا اردته ولا يمتنع منى وعبر عن هذا المعنى بقوله وما نحن بمسبوقين لان المغلوب يسبقه الغالب الى ما يريده فيفوت عليه ولهذا عدى بعلى دون الى كما فى قوله وما نحن بمسبوقين على ان نبدل امثالكم فانه لما ضمنه معنى مغلوبين ومقهورين عداه بعلى بخلاف سبقه اليه فانه فرق بين سبقته اليه وسبقته عليه فالاول بمعنى غلبته وقهرته عليه والثانى بمعنى وصلت اليه قبله

﴿ فصل ﴾ وقد وقع الاخبار عن قدرته عليه سبحانه على تبديلهم بخير منهم وفى بعضها تبديل امثالهم وفى بعضها استبداله قوما غيرهم ثم لا يكونوا امثالهم فهذه ثلاثة امور يجب معرفة ما بينها من الجمع والفرق فحيث وقع التبديل بخير منهم فهو اخبار عن قدرته على ان يذهب بهم ويأتى بأطوع واتقى له منهم فى الدنيا وذلك قوله وان تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم معنى بل يكونوا خيرا منكم قال مجاهد يستبدل بهم من شاء من عباده فيجعلهم خيرا من هؤلاء فلم يتولوا بحمد الله فلم يستبدل بهم واما ذكره تبديل امثالهم ففى سورة الواقعة وسورة الانسان فقال فى الواقعة نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين على ان نبدل امثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون وقال فى سورة الانسان نحن خلقناهم وشددنا

اسرهم واذاشئنا بدلنا امثالهم تبديلا قال كثير من المفسرين المعنى انا اذا اردنا اتينا بخلق
خلقا غيركم لم يسبقنا سابق ولم يفتنا ذلك وفي قوله واذاشئنا بدلنا امثالهم تبديلا اذ شئنا
اهلكناهم واتينا باشباههم فجعلناهم بدلا منهم قال المهدوى قوما موافقين لهم في الخلق مخالفين لهم
في العمل ولم يذكر الواحدى ولا ابن الجوزى غير هذا القول وعلى هذا فتكون هذه الآيات
نظير قوله تعالى ان يشأ يذهبكم ايها الناس ويأت بآخرين فيكون استدلالا بقدرته
على اذهابهم والاتيان بامثالهم على اتيانه بهم انفسهم اذاماتوا ثم استدل سبحانه بالنشأة الاولى
فذكرهم بها فقال ولقد علمتم النشأة الاولى فلولا تذكرون فنبههم بما علموه وعاينوه على صدق
ماخبرتهم به رسله من النشأة الثانية والذى عندى فى معنى هاتين الآيتين وهما آية الواقعة
والانسان المراد بتبديل امثالهم الخلق الجديد والنشأة الآخرة التى وعدوابها وقدوفق
الزمخشرى لفهم هذا من سورة الانسان فقال وبدلنا امثالهم فى شدة الاسر يعنى النشأة الاخرى
ثم قال وقيل وبدلنا غيرهم ممن يطيع وحقه ان يأتى بان لا باذا كقوله وان تتولوا يستبدل قوما
غيركم قلت واتيانه باذا التى لاتكون الا للمحقق الوقوع يدل على تحقق وقوع هذا التبديل وانه
واقع لامحالة وذلك هو النشأة الاخرى التى استدل على امكانها بقوله ولقد علمتم النشأة الاولى واستدل
بالمثل على المثل وعلى ما انكروه بما عاينوه وشاهدوه وكونهم امثالهم هو انشاؤهم خلقا جديدا بعينه
فهم هم باعيانهم وهم امثالهم فهم انفسهم يعادون فاذا قلت المعاد هذا هو الاول بعينه صدقت وان
قلت هو مثله صدقت فهو هو معاد او هو مثل الاول وقد اوضح هذا سبحانه بقوله بل هم فى لبس
من خلق جديد فهذا الخلق الجديد هو المتضمن لكونهم امثالهم وقد سماه الله سبحانه وتعالى اعادة
والمعاد مثل المبدأ وسماه نشأة اخرى وهى مثل الاول وسماه خلقا جديدا وهو مثل الخلق الاول
كما قال أفعيينا بالخلق الاول بل هم فى لبس من خلق جديد وسماه امثالا وهم هم فتطابقت
الفاظ القرآن وصدق بعضها بعضا وبين بعضها بعضا ولهذا تزول اشكالات اوردها من لم
يفهم المعاد الذى اخبرت به الرسل عن الله ولا يفهم من هذا القول ماقاله بعض المتأخرين
انهم غيرهم من كل وجه فهذا خطأ قطعا معاذ الله من اعتقاده بل هم امثالهم وهم
اعيانهم فاذا فهمت الحقائق فلا يناقش فى العبارة الاضيق العطن صغير العقل ضعيف
العلم وتأمل قوله تعالى فى الواقعة أفرأيتم ماتمنون أانتم تخلقونه ام نحن الخالقون نحن قدرنا
بينكم الموت كيف ذكر مبدأ النشأة وآخرها مستدلا بها على النشأة الثانية الاولى بقوله وما
نحن بمسبوقين على ان نبدل امثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون فانكم انما علمتم النشأة الاولى فى
بطون امهاتكم ومبدأها مما تمنون ولن نغلب على ان ننشئكم نشأة ثانية فيما لا تعلمون فاذا
انتم امثال ما كنتم فى الدنيا فى صوركم وهيئاتكم وهذا من كمال قدرة الرب تعالى
ومشيئته اوتذكرتم احوال النشأة الاولى لدلكم ذلك على قدرة منشئها على النشأة التى
كذبتم بها فأى استدلال وارشاد احسن من هذا واقرب الى العقل والفهم وابعد من كل شبهة
وشك وليس بعد هذا البيان والاستدلال الا الكفر بالله وماجاءت به الرسل والايمان وقال
فى سورة الانسان نحن خلقناهم وشددنا اسرهم فهذه النشأة الاولى ثم قال واذا شئنا بدلنا
امثالهم تبديلا فهذه النشأة الاخرى ونظيره قوله وأنه خلق الزوجين الذكر والانثى من نطفة

اذا تمنى وان عليه النشأة الاخرى وهذا فى القرآن كثير جدا يقرن بين النشأتين مذكرا للفطر والعقول باحداهما على الاخرى وبالله التوفيق

﴿ فصل ﴾ فلما اقام عليهم الحجة وقطع المعذرة قال فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون وهذا تهديد شديد يتضمن ترك هؤلاء الذين قامت عليهم حجتى فلم يقبلوها ولم يخافوا بأسى ولاصدقوا رسالاتى فى خوضهم بالباطل ولعبهم فالخوض فى الباطل ضد التكلم بالحق واللعب ضد السعى الذى يعود نفعه على ساعيه فالاول ضد العلم النافع والثانى ضد العمل الصالح فلاتكلم بالحق ولاعمل بالصواب وهذا شأن كل من اعرض عما جاء به الرسول لابدله من هذين الامرين ثم ذكر سبحانه حالهم عند خروجهم من القبور فقال يوم يخرجون من الاجداث سراعا كأنهم الى نصب يوفضون اى يسرعون والنصب العلم والغاية التى تنصب فيؤمونها وهذا من ألطف التشبيه وابينه واحسنه فان الناس يقومون من قبورهم مهطعين الى الداعى يؤمون الصوت لايعرجون عنه يمنة ولا يسرة كما قال يومئذ يتبعون الداعى لاعوج له اى يقبلون من كل أوب الى صوته وناحيته لايعرجون عنه قال الفراء وهذا كما تقول دعوتنى دعوة لاعوج لك عنها وقال الزجاج المعنى لاعوج لهم عن دعائه اى لا يقدرون الا على اتباعه وقصده فان قلت اذا كان المعنى لاعوج لهم عن دعوتى فكيف قال لاعوج له قيل قالت طائفة اللام بمعنى عن اى لاعوج عنه وقالت طائفة المعنى لاعوج لهم عن دعائى كما قال الزجاج وفى القولين تكلف ظاهر ولما كانت الدعوة تسمع الجميع لاتعوج عنهم وكلهم يؤم صوت الداعى ويتبعه لايعوج عنه كان مجئ اللام منتظما للمعنيين ودالا عليهما والمعنى لاعوج لدعائه لافى اسماعهم اياه ولا فى اجابتهم له ثم قال تعالى خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة فوصفهم بذل الظاهر وهو خشوع الابصار وذل الباطن وهو مايرهقهم من الذل الذى خشعت عنه ابصارهم وقريب من هذا قوله ووجوه يومئذ باسرة تظن أن يفعل بها فاقرة ونظيره قوله وترهقهم ذلة مالهم من الله من عاصم كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما وضد هذا قوله تعالى ان لك ألا تجوع فيها ولا تعرى فنفى عنه الجوع الذى هو ذل الباطن والعرى الذى هو ذل الظاهر وضده ايضا قوله ولقاهم نضرة وسرورا فالنضرة عز الظاهر وجماله والسرور عز الباطن وجماله ومثله ايضا قوله عاليهم ثياب سندس خضر واستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا فجمع له بين زينة الظاهر والباطن ومثله قوله يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوآتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير فجمع لهم بين زينة الظاهر والباطن ومثله قوله انا زينا السماء بزينة الكواكب وحفظا من كل شيطان مارد فزين ظاهرها بالنجوم وباطنها بالحفظ من كل شيطان رجيم ومثله قوله ايضا وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات وقريب منه قوله تعالى وتزودوا فان خير الزاد التقوى ومنه قوله فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد ايمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون واما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون فجمع لهؤلاء بين جمال الظاهر والباطن ولاولئك بين تسويد الظاهر والباطن ومنه قول امرأة العزيز فذلكن الذى لمتننى فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم فوصفت ظاهره بالجمال وباطنه بالعفة

فوصفته بجمال الظاهر والباطن فكأنها قالت هذا ظاهره وباطنه أحسن من ظاهره وهذا كله يدلك على ارتباط الظاهر بالباطن قدرا وشرعا والله أعلم بالصواب

﴿ فصل ومن ذلك قوله تعالى ن ﴾ والقلم وما يسطرون ما أنت بنعمة ربك بمجنون الصحيح أن ن و ق و ص من حروف الهجاء التي يفتتح بها الرب سبحانه بعض السور وهي أحادية وثنائية وثلاثية ورباعية وخماسية ولم تجاوز الخمسة ولم تذكر قط في اول سورة الا وعقبها بذكر القرآن اما مقسما به واما مخبرا عنه ماخلا سورتين سورة كهيعص ون كقوله الم ذلك الكتاب الم الله لا اله الا هو الحي القيوم نزل عليك الكتاب المص كتاب أنزل اليك المر تلك آيات الكتاب وهكذا الى آخره ففي هذا تنبيه على شرف هذه الحروف وعظم قدرها وجلالتها اذهي مباني كلامه وكتبه التي تكلم سبحانه بها وأنزلها على رسله وهدى بها عباده وعرفهم بواسطتها نفسه وأسماءه وصفاته وأفعاله وأمره ونهيه ووعيده ووعده وعرفهم بها الخير والشر والحسن والقبيح وأقدرهم على التكلم بها بحيث يبلغون بها اقصى ما في انفسهم بأسهل طريق وقلة كلفة ومشقة واوصله الى المقصود وأدله عليه وهذا من أعظم نعمه عليهم كما هو من أعظم آياته ولهذا عاب سبحانه على من عبد الها لا يتكلم وامتن على عباده بأن اقدرهم على البيان بها بالتكلم فكان في ذكر هذه الحروف التنبيه على كمال ربوبيته وكمال احسانه وانعامه فهي اولى ان يقسم بها من الليل والنهار والشمس والقمر والسماء والنجوم وغيرها من المخلوقات فهي دالة أظهر دلالة على وحدانيته وقدرته وحكمته وكماله وكلامه وصدق رسله وقد جمع سبحانه بين الامرين أعني القرآن ونطق اللسان وجعل تعليمهما من تمام نعمته وامتنانه كما قال الرحمن علم القرآن خلق الانسان علمه البيان فبهذه الحروف علم القرآن وبها علم البيان وبها فضل الانسان على سائر انواع الحيوان وبها انزل كتبه وبها أرسل رسله وبها جمعت العلوم وحفظت وبها انتظمت مصالح العباد في المعاش والمعاد وبها تبين الحق من الباطل والصحيح من الفاسد وبها جمعت أشتات العلوم وبها امكن نقلها في الاذهان وكم جلب بها من نعمة ودفع بها من نقمة وأقيلت بها من عثرة وأقيمت بها من حرمة وهدى بها من ضلالة وأقيم بها من حق وهدم بها من باطل فآيته سبحانه في تعليم البيان كآيته في خلق الانسان ولولا عجائب صنع الله ما ثبتت تلك الفضائل في لحم ولا عصب فسبحان من هذا صنعه في هواء يخرج من قصبة الرئة فينضم في الحلقوم ينفرش في أقصى الحلق ووسطه وآخره واعلاه واسفله وعلى وسط اللسان واطرافه وبين الثنايا وفي الشفتين والخيشوم فيسمع له عند كل مقطع من تلك المقاطع صوت غير صوت المقطع المجاور له فاذا هو حرف فألهم سبحانه الانسان بضم بعضها الى بعض فاذا هي كلمات قائمة بأنفسها ثم ألهمهم تأليف تلك الكلمات بعضها الى بعض واذا هي كلام دال على انواع المعاني امرا ونهيا وخبرا واستخبارا ونفيا واثباتا واقرارا وانكارا وتصديقا وتكذيبا وايجابا واستحبابا وسؤالا وجوابا الى غير ذلك من انواع الخطاب نظمه ونثره ووجيزه ومطوله على اختلاف لغات الخلائق كل ذلك صنعته تبارك وتعالى في هواء مجرد خارج من باطن الانسان الى ظاهره في مجار قد هيئت واعدت لتقطيعه وتفصيله ثم تأليفه وتوصيله فتبارك الله رب العالمين وأحسن الخالقين فهذا شأن الحرف المخلوق وأما الحرف الذي به تكون المخلوقات

مشأنه اعلى وأجل واذا كان هذا شأن الحروف فحقيق ان تفتتح بها السور كما افتتحت الاقسام لما فيها من آيات الربوبية وادلة الوحدانية فهي دالة على كمال قدرته سبحانه وكمال علمه وكمال حكمته وكمال رحمته وعنايته بخلقه ولطفه واحسانه واذا أعطيت الاستدلال بها حقه استدلت بها على المبدأ والمعاد والخلق والامر والتوحيد والرسالة فهي من اظهر ادلة شهادة ان لا اله الا الله وان محمدا عبده ورسوله وان القرآن كلام الله تكلم به حقا وأنزله على رسوله وحيا وبلغه كما أوحي اليه صدقا ولا تهمل الفكرة في كل سورة افتتحت بهذه الحروف واشتمالها على آيات هذه المطالب وتقريرها وبالله التوفيق

﴿ فصل ﴾ ثم أقسم سبحانه بالقلم وما يسطرون فأقسم بالكتاب وآلته وهو القلم الذي هو احدى آياته واول مخلوقاته الذي جرى به قدره وشرعه وكتب به الوحي وقيد به الدين واثبت به الشريعة وحفظت به العلوم وقامت به مصالح العباد في المعاش والمعاد فأطدت به الممالك وامنت به السبل والمسالك واقام في الناس ابلغ خطيب وافصحه وانفعه لهم وأنصحه وواعظا تشفي مواعظه القلوب من السقم وطبيبا يبرئ باذنه من انواع الالم يكسر العساكر العظيمة على انه ضعيف الوحيد ويخاف سطوته وبأسه ذو البأس الشديد وبالاقلام تدبير الاقاليم وتساس الممالك والقلم لسان الضمير يناجيه بما استتر عن الاسماع فينسج حلل المعاني في الطرس فتعود أحسن من الوشي المرقوم ويودعها حكمة تصير بوادر الفهوم والاقلام نظام للافهام وكما أن اللسان بريد القلب فالقلم بريد اللسان ويولد الحروف المسموعة عن اللسان كتولد الحروف المكتوبة عن القلم والقلم بريد القلب ورسوله وترجمانه ولسانه الصامت

﴿ فصل ﴾ والاقلام متفاوتة في الرتب فأعلاها وأجلها قدرا قلم القدر السابق الذي كتب الله به مقادير الخلائق كما في سنن أبي داود عن عبادة بن الصامت قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول أن أول ما خلق الله القلم فقال له اكتب قال يارب وما اكتب قال اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة واختلف العلماء هل القلم أول المخلوقات أو العرش على قولين ذكرهما الحافظ أبو العلى الهمداني اصحهما أن العرش قبل القلم لما ثبت في الصحيح من حديث عبدالله بن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والارض بخمسين ألف عام وعرشه على الماء فهذا صريح أن التقدير وقع قبل خلق العرش والتقدير وقع عند أول خلق القلم لحديث عبادة هذا ولا يخلو قوله أن اول ما خلق الله القلم الى آخره اما ان يكون جملة أو جملتين فان كان جملة وهو الصحيح كان معناه أنه عند أول خلقه قال له اكتب كما في اللفظ أول ما خلق الله القلم قال له اكتب بنصب أول والقلم فان كان جملتين وهو مروي برفع أول والقلم فيتعين حمله على أنه أول المخلوقات من هذا العالم ليتفق الحديثان اذ حديث عبدالله بن عمر صريح في أن العرش سابق على التقدير والتقدير مقارن لخلق القلم وفي اللفظ الآخر لما خلق الله القلم قال له اكتب فهذا القلم أول الاقلام وأفضلها وأجلها وقد قال غير واحد من أهل التفسير انه القلم الذي اقسم الله به

﴿ فصل ﴾ القلم الثاني قلم الوحي وهو الذي يكتب به وحي الله الى أنبيائه ورسله واصحاب هذا القلم هم الحكام على العالم والعالم خدم لهم واليهم الحل والعقد والاقلام كلها خدم لاقلامهم

وقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الاسراء لي مستوى يسمع فيه صريف الاقلام وهذه الاقلام هي التي تكتب مايوحيه الله تبارك وتعالى من الامور التي يدبر بها أمر العالم العلوي والسفلي

﴿ فصل ﴾ والقلم الثالث قلم التوقيع عن الله ورسوله وهو قلم الفقهاء والمفتين وهذا القلم أيضا حاكم غير محكوم عليه فاليه التحاكم في الدماء والاموال والفروج والحقوق واصحابه مخبرون عن الله بحكمه الذي حكم به بين عباده واصحابه حكام وملوك على أرباب الاقلام واقلام العالم خدم لهذا القلم

﴿ فصل ﴾ القلم الرابع قلم طب الابدان التي تحفظ بها صحتها الموجودة وترد اليها صحتها المفقودة وتدفع به عنها آفاتها وعوارضها المضادة لصحتها وهذا القلم انفع الاقلام بعد قلم طب الاديان وحاجة الناس الى أهله تلحق بالضرورة

﴿ فصل ﴾ القلم الخامس قلم التوقيع عن الملوك ونوابهم وسياس الملك ولهذا كان اصحابه أعز اصحاب الاقلام المشاركون للملوك في تدبير الدول فان صلحت اقلامهم صلحت المملكة وأن فسدت اقلامهم فسدت المملكة وهم وسائط بين الملوك ورعاياهم

﴿ فصل ﴾ القلم السادس قلم الحساب وهو القلم الذي تضبط به الاموال مستخرجها ومصروفها ومقاديرها وهو قلم الارزاق وهو قلم الكم المتصل والمنفصل الذي تضبط به المقادير ومابينهما من التفاوت والتناسب ومبناه على الصدق والعدل فاذا كذب هذا القلم وظلم فسد أمر المملكة

﴿ فصل ﴾ القلم السابع قلم الحكم الذي تثبت به الحقوق وتنفذ به القضايا وتراق به الدماء وتؤخذ به الاموال والحقوق من اليد العادية فترد الى اليد المحقة وتثبت به الانسان وتنقطع به الخصومات وبين هذا القلم وقلم التوقيع عن الله عموم وخصوص فهذا له النفوذ واللزوم وذاك له العموم والشمول وهو قلم قائم بالصدق فيما يثبته وبالعدل فيما يمضيه وينفذه

﴿ فصل ﴾ القلم الثامن قلم الشهادة وهو القلم الذي تحفظ به الحقوق وتصان عن الاضاعة وتحول بين الفاجر وانكاره ويصدق الصادق ويكذب الكاذب ويشهد للمحق بحقه وعلى المبطل بباطله وهو الامين على الدماء والفروج والاموال والانساب والحقوق ومتى خان هذا القلم فسد العالم أعظم فساد وباستقامته يستقيم أمر العالم ومبناه على العلم وعدم الكتمان

﴿ فصل ﴾ القلم التاسع قلم التعبير وهو كاتب وحي المنام وتفسيره وتعبيره وماأريد منه وهو قلم شريف جليل مترجم للوحي المنامي كاشف له وهو من الاقلام التي تصلح للدنيا والدين وهو يعتمد طهارة صاحبه ونزاهته وأمانته وتحريه للصدق والطرائق الحميدة والمناهج السديدة مع علم راسخ وصفاء باطن وحس مؤيد بالنور الالهي ومعرفة بأحوال الخلق وهيآتهم وسيرهم وهو من ألطف الاقلام وأعمها جولانا وأوسعها تصرفا وأشدها تشبثا بسائر الموجودات علويها وسفليها وبالماضي والحال والمستقبل فتصرف هذا القلم في المنام هو محل ولايته وكرسي مملكته وسلطانه

﴿ فصل ﴾ القلم العاشر قلم تواريخ العالم ووقائعه وهو القلم التي تضبط به الحوادث وتنقل من أمة الى أمة ومن قرن الى قرن فيحضر مامضى من العالم وحوادثه في الخيال وينقشه في النفس حتى كأن السامع يرى ذلك ويشهده فهو قلم المعاد الروحاني وهذا القلم قلم العجائب

فانه يعيد لك العالم فى صورة الخيال فتراه بقلبك وتشاهده ببصيرتك

﴿ فصل ﴾ القلم الحادى عشر قلم اللغة وتفاصيلها من شرح معانى الفاظها المفردة ونحوها وتصريفها واسرار تراكيبها وما يتبع ذلك من أحوالها ووجوهها وأنواع دلالتها على المعانى وكيفية الدلالة وهو قلم التعبير عن المعانى باختيار أحسن الالفاظ واعذبها وأسهلها وأوضحها وهذا القلم واسع التصرف جدا بحسب سعة الالفاظ وكثرة مجاريها وتنوعها

﴿ فصل ﴾ القلم الثانى عشر القلم الجامع وهو قلم الرد على المبطلين ورفع سنة المحقين وكشف أباطيل المبطلين على اختلاف أنواعها وأجناسها وبيان تناقضهم وتهافتهم وخروجهم عن الحق ودخولهم فى الباطل وهذا القلم فى الاقلام نظير الملوك فى الانام وأصحابه أهل الحجة الناصرون لما جاءت به الرسل المحاربون لاعدائهم وهم الداعون الى الله بالحكمة والموعظة الحسنة المجادلون لمن خرج عن سبيله بأنواع الجدال وأصحاب هذا القلم حرب لكل مبطل وعدو لكل مخالف للرسل فهم فى شأن وغيرهم من اصحاب الاقلام فى شأن فهذه الاقلام التى فيها انتظام مصالح العالم ويكفى فى جلالة القلم أنه لم تكتب كتب الله الا به وأن الله سبحانه أقسم به فى كتابه وتعرف الى عبده بأن علم بالقلم وانما وصل الينا ما بعث به نبينا صلى الله عليه وسلم بواسطة القلم ولقد ابدع ابو تمام اذ يقول فى وصفه

لك القلم الماضى الذى بشباته	يصاب من الامر الكلى والمفاصل
له ريقة طل ولكن وقعها	بآثاره فى الغرب والشرق وابل
لعاب الافاعى القاتلات لعابه	وارى الجنا شتارته أيد عواسل
له الخلوات اللاى لولا نجيها	لما احتفلت للملك تلك المحافل
فصيح اذا استنطقته وهو راكب	واعجم ان خاطبته وهو راجل
اذا ما امتطى الخمس اللطاف وأفرغت	عليه شعاب الفكر وهى حوافل
أطاعته اطراف القنا وتقوضت	لنجواه تقويض الخيام الجحافل
اذا استغزر الذهن الذكى واقبلت	اعاليه فى القرطاس وهى اسافل
وقد رفدته الخنصران وشددت	ثلاث نواحيه الثلاث الانامل
رأيت جليلا شأنه وهو مرهف	ضنى وسمينا خطبه وهو ناحل

﴿ فصل ﴾ والمقسم عليه بالقلم والكتابة فى هذه السورة تنزيه نبيه ورسوله عما يقول فيه اعداؤه وهو قوله تعالى ما أنت بنعمة ربك بمجنون وانت اذا طابقت بين هذا القسم والمقسم به وجدته دالا عليه أظهر دلالة وابينها فان ما سطر الكاتب بالقلم من انواع العلوم التى يتلقاها البشر بعضهم عن بعض لا تصدر من مجنون ولا تصدر الا من عقل وافر فكيف يصدر ما جاء به الرسول من هذا الكتاب الذى فى اعلى درجات العلوم بل العلوم التى تضمنها ليس فى قوى البشر الاتيان بها ولا سيما من أمى لا يقرأ كتابا ولا يخط بيمينه مع كونه فى اعلى انواع الفصاحة سليما من الاختلاف بريا من التناقض يستحيل من العقلاء كلهم لو اجتمعوا فى صعيد واحد ان يأتوا بمثله ولو كانوا فى عقل رجل واحد منهم فكيف يتأتى ذلك من مجنون

لا عقل له يميزبه ماعصى كثير من الحيوان ان يميزه وهل هذا الا من أقبح الهيات واظهر الافك فتأمل شهادة هذا المقسم به للمقسم عليه ودلالته عليه أتم دلالة ولو ان رجلا انشأ رسالة واحدة بديعة منتظمة الاول والآخر مساوية الاجزاء يصدق بعضها بعضا اوقال قصيدة كذلك او صنف كتبا كذلك لشهد له العقلاء بالعقل ولما استجاز احد رميه بالجنون مع امكان بل وقوع معارضتها ومشاكلتها والاتيان بمثلها اواحسن منها فكيف يرمى بالجنون من اتى بما عجزت العقلاء كلهم قاطبة عن معارضته ومماثلته وعرفهم من الحق مالا تهتدى عقولهم بحيث اذعنت له عقول العقلاء وخضعت له ألباب الاولياء وتلاشت فى جنب ماجاء به بحيث لم يسعها الا التسليم له والانقياد والاذعان طائعة مختارة وهى ترى عقولها اشد فقرا وحاجة الى ماجاء به ولاكمال لها الا بما جاء به فهو الذى كمل عقولها كما يكمل الطفل برضاع الثدى ولهذا أتباعه اعقل الخلق على الاطلاق وهذه مؤلفاتهم وكتبهم فى الفنون اذا وازنت بينها وبين مؤلفات مخالفيه ظهرلك التفاوت بينها ويكفى فى عقولهم انهم عمروا الدنيا بالعلم والعدل والقلوب بالايمان والتقوى فكيف يكون متبوعهم مجنونا وهذا حال كتابه وهديه وسيرته وحال اتباعه وهذا انما حصل له ولاتباعه بنعمة الله عليه وعليهم فنفى عنه الجنون بنعمته عليه وقد اختلف فى تقدير الآية فقالت فرقة الباء فى بنعمة ربك باء القسم فهو قسم آخر اعتراض بين المحكوم به والمحكوم عليه كما يقول ماانت بالله بكاذب وهذا التقدير ضعيف جدا لانه قد تقدم القسم الاول فكيف يقع القسم الثانى فى جوابه ولا يحسن أن تقول والله ماانت بالله بقائم وليس هذا من فصيح الكلام ولا معهود به فى كلامهم وقالت فرقة العامل فى بنعمة ربك أداة معنى النفى أو معنى انفى عنك الجنون بنعمة ربك ورد ابو عمر الحاجب وغيره هذا القول بان الحرف لاتعمل معانيها وانما تعمل الفاظها وقال الزمخشرى يتعلق بنعمة ربك بمجنون منفيا كما يتعلق بعاقل مثبتا فى قولك أنت بنعمة الله عاقل يستويان فى ذلك الاثبات والنفى استواؤهما فى قولك ضرب زيد عمرا وماضرب زيد عمرا بعمل الفعل مثبتا ومنفيا اعمالا واحدا ومحله النصب على الحال اى ماانت بمجنون منعما عليك بذلك ولم تمنع الباء ان يعمل مجنون فيما قبله لانها زائدة لتأكيد النفى واعترض عليه بأن العامل اذا تسلط على محكوم به وله معمول فانه يجوز فيه وجهان احدهما نفى ذلك المعمول فقط نحو قولك مازيد بذاهب مسرعا فانه ينتفى الاسراع دون القيام ولا يمتنع أن يثبت له ذهاب فى غير اسراع والثانى ينفى المحكوم به فينتفى معموله بانتفائه فينتفى الذهاب فى هذه الحال فينتفى الاسراع بانتفائه فاذا جعل بنعمة ربك معمولا لمجنون لزم احد الامرين وكلاهما منتف جزما وهذا الاعتراض هنا فاسد لان المعنى اذا حصل ماانت بمجنون منعما عليك لزم من صدق هذا الخبر نفيها قطعا ولا يصح نفى المعمول وثبوت العامل فى هذا الكلام ولا يفهم منه من له آلة الفهم وانما يفهم الآدمى من هذا الكلام ان الجنون انتفى عنك بنعمة الله عليك وانتفى عنا مافهمه هذا المعترض بنعمة الله علينا ثم اخبر سبحانه عن كمال حالتى نبيه صلى الله عليه وسلم فى دنياه واخراه فقال وان لك لأجرا غير ممنون اى غير مقطوع بل هو دائم مستقر ونكر الاجر تنكير تعظيم كما قال ان فى ذلك لعبرة وان فى ذلك لآية وان فى ذلك لذكرى وان للمتقين مفازا وان له عندنا لزلفى وحسن مآب وهو كثير وانما كان

التذكير للتعظيم لانه صور للسامع بمنزلة امر عظيم لا يدركه الوصف ولا يناله التعبير ثم قال وانك لعلى خلق عظيم وهذه من اعظم آيات نبوته ورسالته لمن منحه الله فهما ولقد سئلت أم المؤمنين عن خلقه صلى الله عليه وسلم أجابت بأشفى وكفى فقالت كان خلقه القرآن فهم سائلها أن يقوم لا يسألها شيئا بعد ذلك ومن هذ قال ابن عباس وغيره اى على دين عظيم وسمى الدين خلقا لان الخلق هيئة مركبة من علوم صادقة وارادات زاكية وأعمال ظاهرة وباطنة موافقة للعدل والحكمة والمصلحة واقوال مطابقة للحق تصدر تلك الاقوال والاعمال عن تلك العلوم والارادات فتكتسب النفس بها اخلاقا هي أزكى الاخلاق وأشرفها وافضلها فهذه كانت اخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم المقتبسة من مشكاة القرآن فكان كلامه مطابقا للقرآن تفصيلا له وتبيينا وعلومه علوم القرآن وارادته واعماله ما اوجبه وندب اليه القرآن واعراضه وتركه لما منع منه القرآن ورغبته فيما رغب فيه وزهده فيما زهد فيه وكراهته لما كرهه ومحبته لما أحبه وسعيه فى تنفيذ أوامره وتبليغه والجهاد فى اقامته فترجمت ام المؤمنين لكمال معرفتها بالقرآن وبالرسول صلى الله عليه وسلم وحسن تعبيرها عن هذا كله بقولها كان خلقه القرآن وفهم هذا السائل لها عن هذا المعنى فاكتفى به واشتفى فاذا كانت اخلاق العباد وعلومهم وارادتهم واعمالهم مستفادة من القلم وما يسطرون وكان فى خلق القلم والكتابة انعام عليهم واحسان اليهم اذ وصلوا به الى ذلك فكيف ينكرون انعامه واحسانه على عبده ورسوله الذى اعطاه أعلى الاخلاق وافضل العلوم والاعمال والارادات التى لا تهتدى العقول الى تفاصيلها من غير قلم ولا كتابة فهل هذا الامن أعظم آيات نبوته وشواهد صدق رسالته وسيعلم أعداؤه المكذبون له ايهم المفتون هو ام هم وقد علموا هم والعقلاء ذلك فى الدنيا ويزداد علمهم به فى البرزخ وينكشف ويظهر كل الظهور فى الآخرة بحيث تتساوى اقدام الخلائق فى العلم به وقد اختلف فى تقدير قوله بأيكم المفتون فقال ابو عثمان المازنى هو كلام مستأنف والمفتون عنده مصدر اى بأيكم الفتنة والاستفهام عن امر دائر بين اثنين قد علم انتفاؤه عن أحدهما قطعا فتعين حصوله للآخر والجمهور على خلاف هذا التقدير وهو عندهم متصل عاقبله ثم لهم فيه أربعة أوجه احدها ان الباء زائدة والمعنى ايكم المفتون وزيدت فى المبتدأ كما زيدت فى قولك بحسبك ان تفعل قاله أبو عبيد الثانى ان المفتون بمعنى الفتنة اى ستبصر ويبصرون بأيكم الفتنة والباء على هذا ليست زائدة قاله الاخفش الثالث ان المفتون مفعول على بابه ولكن هنا مضاف محذوف تقديره بأيكم فتون المفتون وليست الباء زائدة قاله الاخفش ايضا الرابع ان الباء بمعنى فى والتقدير فى اى فريق منكم النوع المفتون والباء على هذا ظرفية وهذه الاقوال كلها تكلف ظاهر لا حاجة الى شئ منه وستبصر مضمن معنى تشعر وتعلم فعدى بالباء كما تقول ستشعر بكذا وتعلم به قال تعالى ألم يعلم بأن الله يرى واذا دعاك اللفظ الى المعنى من مكان قريب فلا تجب من دعاك اليه من مكان بعيد

﴿ فصل ﴾ ومن ذلك قوله تعالى فلا اقسم بمواقع النجوم وانه لقسم لو تعلمون عظيم انه لقرآن كريم فى كتاب مكنون لا يمسه الا المطهرون تنزيل من رب العالمين ذكر سبحانه هذا القسم عقيب ذكر القيامة الكبرى واقسام الخلق فيها ثم ذكر الادلة القاطعة على قدرته وعلى المعاد بالنشأة

الاولى واخراج النبات من الارض وانزال الماء من السماء وخلق النار ثم بعد ذلك احوال الناس في القيامة الصغرى عند مفارقة الروح للبدن وأقسم بمواقع النجوم على ثبوت القرآن وانه تنزيله وقد اختلف في النجوم التي أقسم بمواقعها فقيل هي آيات القرآن ومواقعها نزولها شيئا بعد شيء وهذا قول ابن عباس رضي الله عنهما في رواية عطاء وقول سعيد بن جبير والكلبي ومقاتل وقتادة وقيل النجوم هي الكواكب ومواقعها مساقطها عند غروبها هذا قول ابي عبيدة وغيره وقيل مواقعها انتثارها وانكدارها يوم القيامة وهذا قول الحسن ومن حجة هذا القول ان لفظ مواقع تقتضيه فانه مفاعل من الوقوع وهو السقوط فلكل نجم موقع وجمعها مواقع ومن حجة قول من قال هي مساقطها عند الغروب ان الرب تعالى يقسم بالنجوم وطلوعها وجريانها وغروبها اذ فيها وفي احوالها الثلاث آية وعبرة ودلالة كما تقدم في قوله تعالى فلا اقسم بالخنس الجوار الكنس وقال والنجم اذا هوى وقال فلا اقسم برب المشارق والمغارب ويرجح هذا القول ايضا ان النجوم حيث وقعت في القرآن فالمراد منها الكواكب كقوله تعالى وأدبار النجوم وقوله والشمس والقمر والنجوم وعلى هذا فتكون المناسبة بين ذكر النجوم في القسم وبين المقسم عليه وهو القرآن من وجوه احدها ان النجوم جعلها الله يهتدى بها في ظلمات البر والبحر وآيات القرآن يهتدى بها في ظلمات الجهل والغي فتلك هداية في الظلمات الحسية وآيات القرآن في الظلمات المعنوية فجمع بين الهدايتين مع ما في النجوم من الرجوم للشياطين وفي آيات القرآن من رجوم شياطين الانس والجن والنجوم آياته المشهودة المعاينة والقرآن آياته المتلوة السمعية مع ما في مواقعها عند الغروب من العبرة والدلالة على آياته القرآنية ومواقعها عند النزول ومن قرأ بموقع النجوم على الافراد فلدلالة الواحد المضاف الى الجمع على التعدد والموقع اسم جنس والمصادر اذا اختلفت جمعت واذا كان النوع واحدا افردت قال تعالى ان انكر الاصوات لصوت الحمير فجمع الاصوات لتعدد النوع وافرد صوت الحمير لوحدته فافراد موقع النجوم لوحدة المضاف اليه وتعدد المواقع لتعدده اذ لكل نجم موقع

﴿ فصل ﴾ والمقسم عليه ههنا قوله انه لقرآن كريم ووقع الاعتراض بين القسم وجوابه بقوله وانه لقسم لو تعلمون عظيم ووقع الاعتراض بين الصفة والموصوف في جملة هذا الاعتراض بقوله تعالى لو تعلمون عظيم فجاء هذا الاعتراض في ضمن هذا الاعتراض الطف شيء واحسنه موقعا واحسن ما يقع هذا الاعتراض اذا تضمن تأكيدا او تنبيها او احترازا كقوله تعالى والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفسا الا وسعها أولئك اصحاب الجنة هم فيها خالدون فاعترض بين المبتدأ والخبر بقوله لا نكلف نفسا الا وسعها لما تضمنه ذلك من الاحتراز الدافع لتوهم متوهم ان الوعد انما يستحقه من اتى بجميع الصالحات فرفع ذلك بقوله لا نكلف نفسا الا وسعها وهذا احسن من قول من قال انه خبر عن الذين آمنوا ثم اخبر عنهم بخبر آخر فهما خبران عن مخبر واحد فان عدم التكليف فوق الوسع لا يخص الذين آمنوا بل هو حكم شامل لجميع الخلق مع ما في هذا التقدير من اخلاء جملة الخبر عن الرابط وتقدير

صفة محذوفة أي نفسا منهم وتعطيل هذه الفائدة الجليلة ومن ألطف الاعتراض وأحسنه قوله تعالى ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم مايشتهون فاعترض بقوله سبحانه بين الجملين وفوائد الاعتراض تختلف بحسب قصد المتكلم وسياق الكلام من قصد الاعتناء والتقرير والتوكيد وتعظيم المقسم به والخبر عنه ورفع توهم خلاف المراد والجواب عن سؤال مقدر وغير ذلك فن الاعتراض الذي يقصد به التقرير والتوكيد قول الشاعر

لو ان الباخلين وأنت منهم * رأوك تعلموا منك المطالا

وما يقصد به الجواب عن سؤال مقدر قول الآخر

فلا هجرة تبدو وفي اليأس راحة * ولا وصلة تصفو لها فنكارمه

فقوله وفي اليأس راحة جواب لتقدير سؤال سائل وما يغني عنك هجره فقال وفي اليأس راحة أي المطلوب أحد الأمرين اما يأس مريح أو وصال صاف ومن اعتراض الاحتراز قول الجعدي

ألا زعمت بنو جعد بأني * وقد كذبوا كبير السن فاني

ومنه قول نصيب

فكدت ولم أخلق من الطير ان بدا * سنا بارق نحو الحجاز أطير

فقوله ولم أخلق من الطير لرفع استفهام يتوجه عليه على سبيل الانكار او قال فكدت اطير فيقال له وهل خلقت من الطير فاحترز بهذا الاعتراض وعندي ان هذا الاعتراض يفيد غير هذا وهو قوة شوقه ونزوعه الى أرض الحجاز فأخبر انه كاد يطير على انه ابعد شيء من الطيران فانه لم يخلق من الطير ولا عجب طيران من خلق من الطير وانما العجب طيران من لم يخلق من الطير لشدة نزوعه وشوقه الى جهة محبوبه فتأمله ومن مواقع الاعتراض الاعتراض بالدعاء كقول الشاعر

قد كنت أبكي وأنت راضية * حذار هذا الصدود والغضب
ان تم ذا الهجر ياظلوم ولا تم * فمالي في العيش من أرب

وقول الآخر

ان سليمى والله يكلؤها * ضنت بشيء ما كان يرزؤها

وقول الآخر

ان الثمانين وانت بلغتها * قد أحوجت سمعي الى ترجمان

ومنه الاعتراض بالقسم كقوله

ذاك الذي وأبيك يعرف مالكا * والحق يدفع ترهات الباطل

ومن اعتراض الاستعطاف قوله

فن لي بالعين التي كنت مرة * الي بها نفسي فداؤك تنظر

فاعترض بقوله نفسي فداؤك استعطافا فتأمل حسن الاعتراض وجزالته في قول الرب تعالى واذا بدلنا آية مكان آية والله اعلم بما ينزل قالوا انما أنت مفتر فقوله والله اعلم بما ينزل اعتراض بين الشرط وجوابه افاد أمورا منها الجواب عن سؤال سائل ما حكمة هذا التبديل وما فائدته ومنها ان الذي بدل واتى بغيره منزل محكم نزوله قبل الاخبار بقولهم ومنها ان مصدر الامرين عن علمه تبارك وتعالى وان كان منهما منزل فيجب التسليم والايمان بالاول والثاني

ومن الاعتراض الذي هو في أعلى درجات الحسن قوله تعالى ووصينا الانسان بوالديه حملته امه وهنا على وهن وفصاله في عامين ان اشكر لي ولوالديك فاعترض بذكر شأن حمله ووضعه بين الوصية والموصى به توكيدا لامر الوصية بالوالدة التي هذا شأنها وتذكرا لولدها بحقها وماقاسته من حمله ووضعه مالم يتكلفه الاب ومنه قوله تعالى واذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون فقلنا اضربوه ببعضها فاعترض بقوله والله مخرج ما كنتم تكتمون بين الجمل المعطوف بعضها على بعض اعلاما بأن تدارءهم وتدافعهم في شأن القتيل ليس نافعا لهم في كتمانه فالله يظهره ولابد ولا تستطل هذا الفصل وأمثاله فانه يعطيك ميزانا وينهج لك طريقا يعينك على فهم الكتاب والله المستعان

﴿ فصل ﴾ ثم قال انه لقرآن كريم فوصفه بما يقتضي حسنه وكثرة خيره ومنافعه وجلالته فان الكريم هو البهي الكثير الخير العظيم النفع وهو من كل شئ أحسنه وأفضله والله سبحانه وصف نفسه بالكرم ووصف به كلامه ووصف به عرشه ووصف به ما كثر خيره وحسن منظره من النبات وغيره ولذلك فسر السلف الكريم بالحسن قال الكلبي انه لقرآن كريم أي حسن كريم على الله وقال مقاتل كرمه الله وأعزه لانه كلامه وقال الازهري الكريم اسم جامع لما يحمد والله كريم جميل الفعال وانه لقرآن كريم يحمد لما فيه من الهدى والبيان والعلم والحكمة وبالجملة فالكريم الذي من شأنه أن يعطي الخير الكثير بسهولة ويسر وضده اللئيم الذي لا يخرج خيره النزر الا بعسر وصعوبة وكذلك الكريم في الناس واللئيم

﴿ فصل ﴾ ثم قال تعالى في كتاب مكنون اختلف المفسرون في هذا فقيل هو اللوح المحفوظ والصحيح أنه الكتاب الذي بأيدي الملائكة وهو المذكور في قوله في صحف مطهرة بأيدي سفرة كرام بررة ويدل على أنه الكتاب الذي بأيدي الملائكة قوله لا يمسه الا المطهرون فهذا يدل على أنه بأيديهم يمسونه وهذا هو الصحيح في معنى الآية ومن المفسرين من قال ان المراد به أن المصحف لا يمسه الا طاهر والاول أرجح لوجوه أحدها أن الآية سيقت تنزيها للقرآن أن تنزل به الشياطين وأن محله لا يصل اليه فيمسه الا المطهرون فيستحيل على أخابث خلق الله وأنجسهم أن يصلوا اليه أو يمسوه كما قال تعالى وما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم وما يستطيعون فنفى الفعل وتأتيه منهم وقدرتهم عليه فما فعلوا ذلك ولا يليق بهم ولا يقدرون عليه فان الفعل قد ينتفي عمن يحسن منه وقد يليق بمن لا يقدر عليه فنفى عنهم الامور الثلاثة وكذلك قوله في سورة عبس في صحف مطهرة بأيدي سفرة كرام بررة فوصف محله بهذه الصفات بيانا ان الشيطان لا يمكنه أن يتنزل به وتقرير هذا المعنى أهم وأجل وأنفع من بيان كون المصحف لا يمسه الا طاهر الوجه الثاني ان السورة مكية والاعتناء في السور المكية انما هو بأصول الدين من تقرير التوحيد والمعاد والنبوة وأما تقرير الاحكام والشرائع فمظنة السور المدنية الثالث ان القرآن لم يكن في مصحف عند نزول هذه الآية ولا في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وانما جمع في المصحف في خلافة ابي بكر وهذا وان جاز ان يكون باعتبار ما يأتي فالظاهر انه اخبار بالواقع حال الاخبار يوضحه الوجه الرابع وهو قوله في كتاب مكنون والمكنون المصون المستور عن الاعين الذي

لاتناله أيدي البشر كما قال تعالى كأنهن بيض مكنون وهكذا قال السلف قال الكلبي مكنون من الشياطين وقال مقاتل مستور وقال مجاهد لايصيبه تراب ولاغبار وقال ابو اسحق مصون في السماء يوضحه الوجه الخامس ان وصفه بكونه مكنونا نظير وصفه بكونه محفوظا بقوله قرآن كريم في كتاب مكنون كقوله بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ يوضحه الوجه السادس ان هذا أبلغ في الرد على المكذبين وأبلغ في تعظيم القرآن من كون المصحف لايمسه محدث الوجه السابع قوله لايمسه الاالمطهرون بالرفع فهذا خبر لفظا ومعنى ولو كان نهيا لكان مفتوحا ومن حمل الآية على النهي احتاج الى صرف الخبر عن ظاهره الى معنى النهي والاصل في الخبر والنهي حمل كل منهما على حقيقته وليس ههنا موجب يوجب صرف الكلام عن الخبر الى النهي الوجه الثامن انه قال الا المطهرون ولم يقل الا المتطهرون ولو أراد به منع الحدث من مسه لقال الا المتطهرون كما قال تعالى ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين وفي الحديث اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين فالمتطهر فاعل التطهير والمطهر الذي طهره غيره فالمتوضي متطهر والملائكة مطهرون الوجه التاسع انه لو أريد به المصحف الذي بأيدينا لم يكن في الاخبار عن كونه مكنونا كبير فائدة اذ مجرد كون الكلام مكنونا في كتاب لايستلزم ثبوته فكيف يمدح القرآن بكونه مكنونا في كتاب وهذا أمر مشترك والآية انما سيقت لبيان مدحه وتشريفه وما اختص به من الخصائص التي تدل على انه منزل من عند الله وانه محفوظ مصون لايصل اليه شيطان بوجه ما ولايمس محله الا المطهرون وهم السفرة الكرام البررة الوجه العاشر ما رواه سعيد بن منصور في سننه ثنا أبو الاحوص ثنا عاصم الاحول عن أنس بن مالك في قوله لايمسه الا المطهرون قال المطهرون الملائكة وهذا عندنا ثقة من أهل الحديث في حكم المرفوع قال الحاكم تفسير الصحابة عندنا في حكم المرفوع ومن لم يجعله مرفوعا فلا ريب انه عنده اصح من تفسير من بعد الصحابة والصحابة أعلم الامة بتفسير القرآن ويجب الرجوع الى تفسيرهم وقال حرب في مسائله سمعت اسحق في قوله لايمسه الا المطهرون قال النسخة التي في السماء لايمسها الا المطهرون قال الملائكة وسمعت شيخ الاسلام يقرر الاستدلال بالآية على أن المصحف لايمسه المحدث بوجه آخر فقال هذا من باب التنبيه والاشارة اذا كانت الصحف التي في السماء لايمسها الا المطهرون فكذلك الصحف التي بأيدينا من القرآن لاينبغي ان يمسها الا الطاهر والحديث مشتق من هذه الآية وقوله لايمس القرآن الا وانت طاهر رواه أهل السنن من حديث الزهري عن بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه عن جده أن في الكتاب الذي كتبه النبي صلى الله عليه وسلم الى أهل اليمن في السنن والفرائض والديات أن لايمس القرآن الا طاهر قال احمد ارجو أن يكون صحيحا وقال أيضا لاشك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتبه وقال أبو عمر هو كتاب مشهور عند أهل السير معروف عند أهل العلم معرفة يستغنى بشهرتها عن الاسناد لانه اشبه التواتر في مجيئه لتلقي الناس له بالقبول والمعرفة ثم قال وهو كتاب معروف عند العلماء ومافيه متفق عليه الا قليلا وقد رواه ابن حبان في صحيحه ومالك في موطئه وفي المسئلة آثار أخر مذكورة في غير هذا الموضع

﴿ فصل ﴾ ودلت الآية باشارتها وايمائها على انه لايدرك معانيه ولايفهمه الا القلوب

الطاهرة وحرام على القلب المتلوث بنجاسة البدع والمخالفات ان ينال معانيه وأن يفهمه كما ينبغي قال البخاري في صحيحه في هذه الآية لايجد طعمه الا من آمن به وهذا ايضا من اشارة الآية وتنبيهها وهو انه لايلتذ به وبقراءته وفهمه وتدبره الا من شهد انه كلام الله تكلم به حقا وانزله على رسوله وحيا ولاينال معانيه الا من لم يكن في قلبه حرج منه بوجه من الوجوه فمن لم يؤمن بالله حق من عند الله ففي قلبه منه حرج ومن لم يؤمن بأن الله سبحانه تكلم به وحيا وليس مخلوقا من جملة مخلوقاته ففي قلبه منه حرج ومن قال ان له باطنا يخالف ظاهره وان له تأويلا يخالف مايفهم منه ففي قلبه منه حرج ومن قال ان له تأويلا لانفهمه ولانعلمه وانما نتلوه متعبدين بألفاظه ففي قلبه منه حرج ومن سلط عليه آل الآرائيين وهذيان المتكلمين وسفسطة المسفسطين وخيالات المتصوفين ففي قلبه منه حرج ومن جعله تابعا لنحلته ومذهبه وقول من قلده دينه ينزله على أقواله ويتكلف حمله عليها ففي قلبه منه حرج ومن لم يحكمه ظاهرا وباطنا في أصول الدين وفروعه ويسلم وينقاد لحكمه أين كان ففي قلبه منه حرج ومن لم يأتمر بأوامره وينزجر عن زواجره ويصدق جميع اخباره ويحكم أمره ونهيه وخبره ويرد له كل أمر ونهي وخبر خالفه ففي قلبه منه حرج وكل هؤلاء لم تمس قلوبهم معانيه ولا يفهمونه كما ينبغي أن يفهم ولايجدون من لذة حلاوته وطعمه ماوجده الصحابة ومن تبعهم وانت اذا تأملت قوله لايمسه الا المطهرون واعطيت الآية حقها من دلالة اللفظ وايمائه واشارته وتنبيهه وقياس الشيء على نظيره واعتباره بمشاكله وتأملت المشابهة التي عقدها الله سبحانه وربطها بين الظاهر والباطن فهمت هذه المعاني كلها من الآية وبالله التوفيق

❁ فصل ❁ ثم أكد ذلك وقرره واطده بقوله تنزيل من رب العالمين وكأنه لازم لكونه قرآنا كريما في كتاب مكنون فهو ملزوم له فهو دليل عليه ومدلول له وافاد كونه تنزيلا من رب العالمين مطلوبين عظيمين من أجل مطالب الدين أحدهما أنه المتكلم وأنه منه نزل ومنه بدأ وهو الذي تكلم به ومن هنا قال السلف منه بدأ ونظيره ولكن حق القول مني وقوله قل نزله روح القدس من ربك والثاني علو الله سبحانه فوق خلقه فان النزول والتنزيل الذي تعقله العقول وتعرفه الفطر هو وصول الشيء من أعلا الى أسفل والرب تعالى انما يخاطب عباده بما تعرفه فطرهم وتشهد به عقولهم وذكر التنزيل مضافا الى ربوبيته للعالمين المستلزمة لملكه لهم وتصرفه فيهم وحكمه عليهم واحسانه وانعامه عليهم وأن من هذا شأنه مع الخلق كيف يليق به مع ربوبيته التامة أن يتركهم سدى ويدعهم هملا ويخلقهم عبثا لايأمرهم ولاينهاهم ولايثيبهم ولا يعاقبهم فمن أقر بأنه رب العالمين أقر بأن القرآن تنزيله على رسوله واستدل بكونه رب العالمين على ثبوت رسالة رسوله وصحة ماجاء به وهذا الاستدلال أقوى وأشرف من الاستدلال بالمعجزات والخوارق وان كانت دلالتها أقرب الى أذهان عموم الناس وتلك انما تكون لخواص العقلاء وقد أشار سبحانه الى الطريقين في غير موضع من كتابه كقوله سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق فهذا استدلال بالآيات المعاينة المخلوقة ثم قال أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد فهذا استدلال بكمال ربوبيته وكمال أوصافه على صدق رسوله فيما جاء به وهذه الطريق أخص وأقوى وأكمل وأعلى والاول

أعم وأشمل وقد تقدم بيانه ما عند قوله تعالى ولو تقول علينا بعض الاقاويل وأين الاستدلال بأوصاف الرب تعالى وكماله المقدس على ثبوت النبي وبعثه من الاستدلال عليه ببعض مخلوقاته وتأمل فرق ما بين استدلال سيدة نساء العالمين خديجة بصفات الرب تعالى وصفات محمد صلى الله عليه وسلم واستنتاجها من بين هذين الامرين صحة نبوته وأنه رسول الله حقا وان من كانت هذه صفات ربه وخالقه تأبى أن يخزيه وأنه يؤيده ويعليه ويتم نعمته عليه وأنت اذا تأملت هذه الطريقة وهذا الاستدلال وجدت بينها وبين طريقة المتكلمين من الفرق ما لا يخفى واذا حصل للعبد الفقه في الاسماء والصفات انتفع به في باب معرفة الحق والباطل من الاقوال والطرائق والمذاهب والعقائد أعظم انتفاع وأتمه وقد بينا في كتابنا المعالم بطلان التحيل وغيره من الحيل الربوبية من أسماء الرب وصفاته وأنه يستحيل على الحكيم ان يحرم الشيء ويتواعد على فعله بأعظم انواع العقوبات ثم يبيح التوصل اليه بنفسه بأنواع التحيلات وأين ذلك الوعد الشديد وجواز التوصل اليه بالطريق البعيد اذ ليست حكمة الرب تعالى وكمال علمه واسمائه وصفاته تناقض باحالة ذلك وامتناعه عليه فهذا استدلال بالفقه الاكبر في الاسماء والصفات على الفقه العملي في باب الامر والنهي وهذا باب حرام على الجهمي المعطل ان يجد الجنة حرام عليه ريحها وان ريحها ليوجد من مسيرة خمسين الف سنة والله العزيز الوهاب لا مانع لما اعطى وما معطى لما منع وبه التوفيق

﴿ فصل ﴾ ثم وبخهم سبحانه على وضعهم الادهان في غير موضعه وانهم يداهنون بما حقه ان يصدع به ويفرق به ويعض عليه بالنواجذ ويثني عليه الخناصر وتعقد عليه القلوب والافئدة ويحارب ويسالم لاجله ولا يلتوى عنه لا يمنة ولا يسرة ولا يكون للقلب التفات الى غيره ولا محاكمة الا اليه ولا مخاصمة الا به ولا اهتداء في طرق المطالب العالية الا بنوره ولا اشفاء الا به فهو روح الوجود وحياة العالم ومدار السعادة وقائد الفلاح وطريق النجاة وسبيل الرشاد ونور البصائر فكيف تطلب المداهنة بما هذا شأنه ولم ينزل للمداهنة وانما أنزل بالحق وللحق والمداهنة انما تكون في باطل قوى لا يمكن ازالته أو في حق ضعيف لا يمكن اقامته فيحتاج المداهن الى أنه يترك بعض الحق ويلتزم بعض الباطل فاما الحق الذى قام به كل حق فكيف يداهن به ثم قال سبحانه وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون لما كان قوام كل واحد من البدن والقلب انما هو بالرزق فرزق البدن الطعام والشراب ورزق القلب الايمان والمعرفة بربه وفاطره ومحبته والشوق اليه والانس بقربه والابتهاج بذكره وكان لا حياة له الا بذلك كما أن البدن لا حياة له الا بالطعام والشراب أنعم سبحانه على عباده بهذين النوعين من الرزق وجعل قيام أبدانهم وقلوبهم بهما ثم فاوت سبحانه بينهم في قسمة هذين الرزقين بحسب ما اقتضاه علمه وحكمته فمنهم من وفر حظه من الرزقين ووسع عليه فيها ومنهم من قتر عليه في الرزقين ومنهم من وسع عليه رزق البدن وقتر عليه رزق القلب وبالعكس وهذا الرزق انما يتم ويكمل بالشكر والشكر مادة زيادته وسبب حفظه وبقائه وترك الشكر سبب زواله وانقطاعه عن العبد قال الله تعالى تأذن أنه لابد أن يزيد الشكور من نعمه ولابد أن يسلبها من لم يشكرها فلما وضعوا الكفر والتكذيب موضع

الشكر والايمان جعلوا رزقهم نفسه تكذ يبا فان التصديق والشكر لما كانا سبب زيادة الرزق وهما رزق القلب حقيقة فهؤلاء جعلوا مكان هذا الرزق التكذيب والكفر فجعلوا رزقهم التكذيب وهذا المعنى هو الذى حام حوله من قال التقدير وتجعلون شكر رزقكم أنكم تكذبون وقال آخرون التقدير وتجعلون بدل شكر رزقكم انكم تكذبون فحذف مضافين معا وهؤلاء أطالوا اللفظ وقصروا بالمعنى ومن بعض معنى الآية قوله مطرنا بنوء كذا وكذا فهذا لايصح أن تدل عليه الآية ويراد بها والا فمعناها اوسع منه واعم واعلى والله اعلم

﴿ فصل ﴾ ثم ختم السورة بأحوالهم عند القيامة الصغرى كما ذكر فى اولها احوالهم فى القيامة الكبرى وقسمهم الى ثلاثة اقسام كما قسمهم هناك الى ثلاثة وذكر بين يدى هذا التقسيم الاستدلال على صحته وثبوته بأنهم مربوبون مدبرون مملكون فوقهم رب قاهر مالك يتصرف فيهم بحسب مشيئته وارادته وقررهم على ذلك بالا سبيل لهم الى دفعه ولا انكاره فقال فلولا اذا بلغت الحلقوم اى وصلت الروح الى هذا الموضع بحيث فارقت ولم تفارق فهى برزخ بين الموت والحياة كما انها اذا فارقت صارت فى برزخ بين الدنيا والآخرة وملائكة الرب تعالى اقرب الى المحتضر من حاضريه من الانس ولكنهم لايبصرون بهم فلولا تردونها الى مكانها من البدن ايها الحاضرون ان كان الامر كما تزعمون انكم غير مجزيين ولا مدينين ولا مستوعبين ليوم الحساب (فان قيل) اى ارتباط بين هذين الامرين حتى يلازم بينهما (قيل هذا) من احسن الاستدلال وابلغه فانهم اما ان يقروا بأنهم مربوبون مملوكون عبيد لمالك قادر متصرف فيهم قاهر آمر ناه اولا يقرون بذلك فان اقروا به لزمهم القيام بحقه عليهم وشكره وتعظيمه واجلاله وان لايجعلوا له نداولا شريكا وهذا هو الذى جاءهم به رسوله ونزل عليه به كتابه وان انكروا ذلك وقالوا انهم ليسوا بعبيد ولا مملوكين ولا مربوبين وأن الامر اليهم يردون الارواح الى مقارها اذا بلغت الحلقوم فان المتصرف فى نفسه الحاكم على روحه لايمتنع منه ذلك بخلاف المحكوم عليه المتصرف فيه غير المدبر له سواه الذى هو عبد مملوك من جميع الجهات وهذا الاستدلال لامحيد عنه ولا مدفع له ومن أعطاه حقه من التقرير والبيان انتفع به غاية النفع وانقاد لاجله للعبودية وأذعن ولم يسعه غير التسليم للربوبية والالهية والاقرار بالعبودية والله ما أحسن جزالة هذه الالفاظ وفصاحتها وبلوغها اقصى مراتب البلاغة والفصاحة والاختصار التام وندائها الى معناها من اقرب مكان واشتمالها على التوبيخ والتقرير والالزام ودلائل الربوبية والتوحيد والبعث وفصل النزاع فى معرفة الروح وأنها تصعد وتنزل وتنتقل من مكان الى مكان وما احسن اعادة لولا ثانيا قبل ذكر الفعل الذى يقتضيه الاول وجعل الطرفين يقتضيانه اقتضاء واحدا وذكر الشرطين بين لولا الثانية وما تقتضيه من الفعل ثم الموالاة بين الشرط الاول والثانى مع الفصل بينهما بكلمة واحدة هى الرابط بين لولا الاولى والثانية والشرط الاول والثانى وهذا تركيب يشهد العقل والسمع لمعناه ولفظه فتضمنت الآيتان تقريرا وتوبيخا واستدلالا على اصول الايمان من وجود الخالق سبحانه وكمال قدرته ونفوذ مشيئته وربوبيته وتصرفه فى ارواح عباده حيث لايقدرون

على التصرف فيها بشيء وأن ارواحهم بيده يذهب بها اذا شاء ويردها اليهم اذا شاء ويخلي ابدانهم منها تارة ويجمع بينها وبينهما تارة واثبات المعاد وصدق رسوله فيما أخبر به عنه واثبات ملائكته وتقرير عبودية الخلق وأتى بهذا في صورة تخصيصين وتوبيخين وتقريرين وجوابين وشرطين وجزائين منتظمة احسن الانتظام ومتداخلة احسن التداخل متعلقا بعضها ببعض وهذا كلام لايقدر البشر على مثل نظمه ومعناه قال الفراء واجيبت فلولا اذا بلغت وفلولا ان كنتم غير مدينين بجواب واحد وهو ترجعونها ان كنتم صادقين قال ومثله قوله تعالى فاما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداى فلاخوف عليهم ولاهم يحزنون اجيبا بجواب واحد وهما شرطان قال الجرجاني قوله ترجعونها جواب لقوله فلولا المتقدمة والمتأخرة على تأويل فلولا اذا بلغت النفس الحلقوم تردونها الى موضعها ان كنتم غير محاسبين ولا مجزيين كما تزعمون يقول تعالى ان كان الامر كما تزعمون أنه لابعث ولاحساب ولاجزاء ولااله ولارب يقوم بذلك فهلا تردون نفس من يعز عليكم اذا بلغت الحلقوم فاذا لم يمكنكم في ذلك حيلة بوجه من الوجوه فهل دلكم ذلك على أن الامر الى مليك قادر قاهر متصرف فيكم وهو الله الذي لااله الا هو وقال أبو اسحق معناه فهلا ترجعون الروح ان كنتم غير مملوكين مدبرين فهلا ان كان الامر كما تزعمون في كما يقول قائلكم لو اطاعونا ماقتلوا او كانوا عندنا ماماتوا وماقتلوا اى ان كنتم تقدروا أن تؤخروا اجلا فهلا ترجعون الروح اذا بلغت الحلقوم وهلا اتردون عن أنفسكم الموت قلت وكأن هذا يلتفت الى قوله تعالى قل كونوا حجارة أو حديدا او خلقا مما يكبر في صدوركم أي ان كنتم كما تزعمون لاتبعثون بعد الموت خلقا جديدا فكونوا خلقا لايفنى ولايبلى امامن حجارة أو من حديدا واكبر من ذلك ووجه الملازمة ماتقدم ذكره وهو اما ان تقروا أن لكم ربا متصرفا فيكم ومالكا لكم تنفذ فيكم مشيئته وقدرته يميتكم اذا شاء ويحييكم اذا شاء فكيف تنكرون قدرته على اماتكم خلقا جديدا بعدما أماتكم واما ان تنكروا أن يكون لكم رب قادر قاهر مالك نافذ المشيئة فيكم والقدرة فيكم فكونوا خلقا لايقبل الفناء والموت فاذا لم تستطيعوا أن تكونوا كذلك فانكرون من قدرة من جعلكم خلقا يموت ويحيا أن يحييكم بعد ما اماتكم فهذا استدلال بعجزهم عن كونهم خلقا لايموت والذي في الواقعة استدلال بعجزهم عن رد الروح الى مكانها اذا قاربت الموت وليس بعد هذا الاستدلال الا الاذعان والانقياد أو الكفر والعناد

﴿ فصل ﴾ فلما قام الدليل ووضح السبيل وتم البرهان على أنهم مملوكون مربوبون مجزيون محاسبون ذكر طبقاتهم عند الحشر الاول والقيامة الصغرى وهي ثلاثة طبقة المقربين وطبقة اصحاب اليمين وطبقة المكذبين فجعل تحية المقربين عند الوفاة الروح والريحان والجنة وهذه الكرامات الثلاثة التي يعطونها بعد الموت نظير الثلاث التي يعطونها يوم القيامة فالروح الفرح والسرور والابتهاج ولذة الروح فهي كلمة جامعة لنعيم الروح ولذتها وذلك قوتها وغذاؤها والريحان الرزق وهو الاكل والشرب والجنة المسكن الجامع لذلك كله فيعطون هذه الثلاث في البرزخ وفي المعاد الثاني ثم ذكر الطبقة الثانية وهي طبقة أصحاب اليمين ولما كانوا دون المقربين في المرتبة جعل تحيتهم عند القدوم عليه السلامة من الآفات

والشرور التي تحصل للمكذبين الضالين فقال واما ان كان مـن أصحاب اليمين فسلام لك من اصحـاب اليمين والسلام مصدر من سلم اى ملك السلامة والخطـاب له نفسه اى يقال لك السلامة كما يقال للقادم لك الهناء ولك السلامة ولك البشرى ونحو ذلك من الالفاظ كما يقولون خير مقدم ونحو ذلك فهذه تحية عند اللقاء قال مقاتل يسلم الله لهم امرهم ويتجاوز عن سيئاتهم وتقبل حسناتهم وقال الكلبي يسلم عليه أهل الجنة ويقولون السلامة لك وعلى هذا فقوله من أصحاب اليمين أى هذه التحية حاصلة لك من اخوانك اصحاب اليمين فانه اذا قدم عليهم حيوه بهذه التحية وقالوا السلامة لك وفى الآية أقوال أخر فيها تكلف وتعسف فلا حاجة الى ذكرها ثم ذكر الطبقة الثـالثة وهى طبقة الضـال فى نفسه المكذب لاهـل الحق وان له عند الموافاة نزل الحميم وصلى الجحيم ثم اكد هذا الجزاء بما جعله كأنه رأى العين لمن آمن بالله ورسوله فقال ان هذا لهو حق اليقين فرفع شأنه عن درجة الظن والعلم الى اليقين وعن درجة اليقين الى حقه ثم امره ان يـنزه اسمه تبارك وتعالى عما لا يليق به وتـنزيه الاسم متضمـن لتنزيه المسمى عما يقوله الكاذبون والجـاحدون

﴿ فصل ومن ذلك قوله ﴾ تعالى والنجم اذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى أقسم سبحانه بالنجم عند هويه على تنزيه رسوله وبراءته مما نسبه اليه اعداؤه من الضلال والغى واختلف الناس فى المراد بالنجم فقال الكلبي عـن ابن عباس أقسم بالقرآن اذا نزل منجمـا على رسوله أربع آيات وثلاثا والسورة وكان بين اوله وآخره عشرون سنة وكذلك روى عطاء عنه وهو قول مقاتل والضحاك ومجاهد واختاره الفراء وعلى هذا فسمى القرآن نجما لتفرقه فى النزول والعرب تسمى التفرق تنجما والمفرق نجما ونجوم الكتابة اقساطها ويقول جعلت مالى على فلان نجـوما منجمة كل نجم كذا وكذا واصل هذا ان العرب كانت تجعل مطـالع منازل القمر ومساقطها مواقيت لحلول ديونها وآجالها فيقولون اذا طلع النجم يريدون الثريا حل عليك الدين ومنه قول زهير فى دية جعلت نجوما على العاقل

ينجمها قوم لقوم غرامة ﴿ ولم يهرقوا ما بينهم ملء محجم

ثم جعل كل تنجيم تفريقا وان لم يكن موقتا بطلوع نجم وقوله هوى على هذا القول اى نزل من علو الى سفل قال ابو زيد هوت العقاب تهوى هويا بفتح الهاء اذا انقضت على صيد أو غيره وكذلك قال ابن الاعرابى وفرق بـين الهوى لقوله * والدلو فى اصعادها عجل الهوى * وقال الليث العـامة تقول الهـوى بالضم فى مصدر هوى يهـوى وكذلك قال الاصمعى هوى يهوى هويا بفتح الهـاء اذا سقط الى اسفل قال وكذلك الهـوى فى السير اذا مضى وههنا أمر يجب التنبيه عليه غلط فيه ابو محمد بن حزم اقبح غلط فـذكر فى اسماء الرب تعالى الهوى بفتح الهاء واحتج بما فى الصحيح من حديث عائشـة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول فى سجوده سبحان ربى الاعلى الهوى فظن ابو محمد أن الهوى صفة للرب وهذا من غلطه رحمه الله وانما الهوى فى على وزن فعيل اسم لقطعة من الليل يقال مضى هوى من الليل عـلى وزن فعيل ومضى هزيع منه اى طرف وجانب وكان يقول سبحان ربى الاعلى فى قطعة من الليل وجانب منه وقد صرحت بذلك فى اللفظ الآخر فقالت كان يقول سبحـان ربى الاعلى الهوى

(من)

من الليل عندنا الى قوله والنجم اذا هوى وقال ابن عباس فى رواية على بن ابى طلحة وعطية يعنى الثريا اذا سقطت وغابت وهو الرواية الاخرى عن مجاهد والعرب اذا اطلقت النجم تعنى به الثريا قال فباتت تعد النجم وقال ابو حمزة اليمانى يعنى النجوم اذا انتثرت يوم القيامة وقال ابن عباس فى رواية عكرمة يعنى النجوم التى ترمى بها الشياطين اذا سقطت فى آثارها عند استراق السمع وهذا قول الحسن وهو اظهر الاقوال ويكون سبحانه قد اقسم بهذه الآية الظاهرة المشاهدة التى نصبها الله سبحانه آية وحفظا للوحى من استراق الشياطين له على ان ما اتى به رسوله حق وصدق لا سبيل للشيطان ولا طريق له اليه بل قد احترس بالنجم اذا هوى رصدا بين يدى الوحى وحرساله وعلى هذا فالارتباط بين المقسم به والمقسم عليه فى غاية الظهور وفى المقسم به دليل على المقسم عليه وليس بالبين تسمية القرآن عند نزوله بالنجم اذا هوى ولا تسمية نزوله هويا ولا عهد فى القرآن بذلك فيحمله هذا اللفظ عليه وليس بالبين تخصيص هذا القسم بالثريا وحدها اذا غابت وليس بالبين ايضا القسم بالنجوم عند انتشارها يوم القيامة بل هذا مما يقسم الرب عليه ويدل عليه بآياته فلا يجعله نفسه دليلا لعدم ظهوره للمخاطبين ولا سيما منكروا البعث فانه سبحانه انما يستدل بما لا يمكن جحده ولا المكابرة فيه فأظهر الاقوال قول الحسن والله أعلم وبين المقسم به والمقسم عليه من التناسب ما لا يخفى فان النجوم التى ترمى الشياطين آيات من آيات الله يحفظ بها دينه ووحيه وآياته المنزلة على رسوله بها ظهر دينه وشرعه وأسماؤه وصفاته وجعلت هذه النجوم المشاهدة خدما وحرسا لهذه النجوم الهاوية ونفى سبحانه عن رسوله لضلال المنافى للهدى والغى المنافى للرشاد ففى ضمن هذا النفى الشهادة له بأنه على الهدى والرشاد فالهدى فى علمه والرشاد فى عمله وهذان الاصلان هما غاية كمال العبد وبهما سعادته وفلاحه وبهما وصف النبى صلى الله عليه وسلم خلفاءه فقال عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى فالراشد ضد الغاوى والمهدى ضد الضال وهو الذى زكت نفسه بالعلم النافع والعمل الصالح وهو صاحب الهدى ودين الحق ولا يشتبه الراشد المهدى بالضال الغاوى الا على أجهل خلق الله وأعماهم قلبا وأبعدهم من حقيقة الانسانية ولله در القائل

وما انتفاع أخى الدنيا بناظره * اذا استوت عنده الانوار والظلم

فالناس أربعة أقسام ضال فى علمه غاو فى قصده وعمله وهؤلاء شرار الخلق وهم مخالفوا الرسل الثانى مهتد فى علمه غاو فى قصده وعمله وهؤلاء هم الائمة الغضبية ومن تشبه بهم وهو حال كل من عرف الحق ولم يعمل به الثالث ضال فى علمه ولكن قصده الخير وهو لا يشعر الرابع مهتد فى علمه راشد فى قصده وهؤلاء ورثة الانبياء وهم وان كانوا الاقلين عددا فهم الاكثرون عند الله قدرا وهم صفوة الله من عباده وحزبه من خلقه وتأمل كيف قال سبحانه ما ضل صاحبكم ولم يقل ما ضل محمد تأكيدا لاقامة الحجة عليهم بأنه صاحبهم وهو اعلم الخلق به وبحاله وأقواله واعماله وانهم لا يعرفونه بكذب ولا غى ولا ضلال ولا ينقمون عليه امرا واحدا قط وقد نبه على هذا المعنى بقوله ام لم يعرفوا رسولهم وبقوله وما صاحبكم بمجنون

﴿ فصل ﴾ ثم قال سبحانه وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحى يوحى نزه نطق رسوله

ان يصدر عن هوى وبهذا الكمال هداه ورشده وقال وما ينطق عن الهوى ولم يقل وما ينطق بالهوى لان نطقه عن الهوى ابلغ فانه يتضمن ان نطقه لا يصدر عن هوى واذا لم يصدر عن هوى فكيف ينطق به فتضمن نفي الامرين نفي الهوى عن مصدر النطق ونفيه عن النطق نفسه فنطقه بالحق ومصدره الهدى والرشاد لا الغي والضلال ثم قال ان هو الا وحي يوحى فأعاد الضمير على المصدر المفهوم من الفعل اي ما نطقه الا وحي يوحى وهذا احسن من قول من جعل الضمير عائدا الى القرآن فانه يعم نطقه بالقرآن والسنة وان كليهما وحي يوحى وقد احتج الشافعي لذلك فقال لعل من حجة من قال بهذا قوله وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة قال ولعل من حجته ان يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابي الزاني بأمرة الرجل الذي صالحه على الغنم والخادم والذي نفسي بيده لاقضين بينكما بكتاب الله الغنم والخادم رد عليك الحديث وفي الصحيحين ان يعلى بن امية كان يقول لعمر ليتني ارى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين ينزل عليه الوحي فلما كان بالجعرانة سأله رجل فقال كيف ترى في رجل احرم بعمرة في جبته بعدما تضمخ بالخلوق فنظر اليه النبي صلى الله عليه وسلم ساعة ثم سكت فجاء الوحي فأشار عمر بيده الى يعلى فجاء وأدخل رأسه فاذا النبي صلى الله عليه وسلم محمر يغط ثم سري عنه فقال اين السائل آنفا فجيء به فقال انزع عنك الجبة واغسل اثر الطيب واصنع في عمرتك ما تصنع في حجك وقال الشافعي اخبرنا مسلم عن ابن جريج عن ابن طاووس عن ابيه ان عنده كتابا نزل به الوحي وما فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم من صدقة وعقول فانما نزل به الوحي وذكر الاوزاعي عن حسان بن عطية قال كان جبريل ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسنة كما ينزل عليه بالقرآن يعلمه اياه وذكر الاوزاعي ايضا عن ابي عبيد صاحب سليمان اخبرني القاسم بن مخيمرة حدثني ابن فضيلة قال قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم سعر لنا قال لا تسألني عن سنة احدثها فيكم لم يأمرني بها ولكن سلوا الله من فضله وابن فضيلة هذا يسمى طلحة وقد صح عنه انه قال الا اني أوتيت الكتاب ومثله معه وهذا هو السنة بلا شك وقد قال تعالى وانزل الله عليك الكتاب والحكمة وهما القرآن والسنة وبالله التوفيق

﴿ فصل ﴾ ثم اخبر تعالى عن وصف من علمه الوحي والقرآن مما يعلم انه مضاد لاوصاف الشيطان معلم الضلال والغواية فقال علمه شديد القوى وهذا نظير قوله ذي قوة عند ذي العرش وذكرناهناك السر في وصفه بالقوة وقوله ذو مرة أي جميل المنظر حسن الصورة ذو جلالة ليس شيطانا أقبح خلق الله واشوههم صورة بل هو من أجمل الخلق واقواهم واعظمهم أمانة ومكانة عند الله وهذا تعديل لسند الوحي والنبوة وتزكية له كما تقدم نظيره في سورة التكوير فوصفه بالعلو والقوة وجمال المنظر وجلالته وهذه كانت أوصاف الرسول البشري والملكي فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اشجع الناس وأعلمهم وأجلهم وأجلهم والشياطين وتلامذتهم بضد من ذلك فهم اقبح الخلق صورة ومعنى وأجهل الخلق واضعفهم همما ونفوسا ثم ذكر استواءه هذا المعلم بالافق الاعلى ودنوه وتدليه وقربه من رسول الله صلى الله عليه وسلم وايحاءه الله ما أوحى فصور سبحانه لاهل الايمان صورة الحال من نزول جبريل من عنده الى ان استوى بالافق ثم دنى وتدلى وقرب

من رسوله فأوحى اليهما أمره الله بابلاغه حتى كأنهم يشاهدون صورة الحال ويعاينوها هابطا من السماء الى ان صار بالافق الاعلى مستويا عليه ثم نزل وقرب من محمد صلى الله عليه وسلم وخاطبه بما أمره الله به قائلا ربك يقول لك كذا وكذا واخبر سبحانه عن مسافة هذا القرب بأنه قدر قوسين أو أدنى من ذلك وليس هذا على وجه الشك بل تحقيق لقدر المسافة وأنها لا تزيد على قوسين ألبتة كما قال تعالى وأرسلناه الى مائة الف أو يزيدون تحقيق لهذا العدد وأنهم لا ينقصون عن مائة الف رجل واحدا ونظيره قوله ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة أي لا تنقص قسوتها عن قسوة الحجارة بل ان لم تزد على قسوة الحجارة لم تكن دونها وهذا المعنى أحسن وألطف وادق من قول من جعل أو في هذه المواضع بمعنى بل ومن قول من جعلها للشك بالنسبة الى الرائي وقول من جعلها بمعنى الواو فتأمله انتهى

﴿ فصل ﴾ ثم اخبر تعالى عن تصديق فؤاده لما رأته عيناه وأن القلب صدق العين وليس كمن رأى شيئا على خلاف ماهو به فكذب فؤاده بصره بل ما رآه ببصره صدقه الفؤاد وعلم أنه كذلك وفيها قراءتان أحدهما بتخفيف كذب والثانية بتشديدها يقال كذبته عينه وكذبه قلبه وكذبه حسده اذا اخلف ماظنه وحدسه قال الشاعر

كذبتك عينك أم رأيت بواسط * غلس الظلام من الرباب خيالا

أي أرتك مالا حقيقة له فنفى هذا عن رسوله واخبره أن فؤاده لم يكذب مارآه وما اما ان تكون مصدرية فيكون المعنى ما كذب فؤاده رؤيته واما ان تكون موصولة فيكون المعنى ما كذب الفؤاد الذي رآه بعينه وعلى التقديرين فهو اخبار عن تطابق رؤية القلب لرؤية البصر وتوافقهما وتصديق كل منهما لصاحبه وهذا ظاهر جدا في قراءة التشديد وقد استشكلها طائفة منهم المبرد وقال في هذه القراءة بعد قال لانه اذا رأى بقلبه فقد علمه أيضا بقلبه واذا وقع العلم فلا كذب معه فانه اذا كان الشيء في القلب معلوما فكيف يكون معه تكذيب قلت وجواب هذا من وجهين أحدهما أن الرجل قد يتخيل الشيء على خلاف ماهو به فيكذبه قلبه اذ يريه صورة المعلوم على خلاف ماهي عليه كما تكذبه عينه فيقال كذبه قلبه وكذبه ظنه وكذبته عينه فنفى سبحانه ذلك عن رسوله وأخبر انما رآه الفؤاد فهو كما رآه كمن رأى الشيء على حقيقة ماهو به فانه يصح أن يقال لم تكذبه عينه الثاني ان يكون الضمير في رأى عائدا الى الرائي لا الى الفؤاد ويكون المعنى ما كذب الفؤاد مارآه البصر وهذا بحمد الله لا اشكال فيه والمعنى ما كذب الفؤاد مارآه البصر بل صدقه وعلى القراءتين فالمعنى ما أوهمه الفؤاد أنه رأى ولم يره لانهم بصره ثم انكر سبحانه عليهم مكابرتهم وجحدهم له على مارآه كما ينكر على الجاهل مكابرة العالم وممارانه له على ماعلمه وفيها قراءتان افتمارونه وافتمرونه وهذه المماراة أصلها من الجحد والدفع يقول مريت الرجل حقه اذا جحدته كما قال الشاعر

لئن هجرت اخا صدق ومكرمة * لقد مريت اخا ما كان يمريكا

ومنه المماراة وهي المجادلة والمكابرة ولهذا عدى هذا الفعل بعلى وهي على بابها وليست بمعنى عن كما قاله المبرد بل الفعل متضمن معنى المكابرة وهذا في قراءة افلا لف اظهر ورجح

ابو عبيدة قراءة من قرأ افتمرونه قال وذلك أن المشركين انما شأنهم الجحود لما كان يأتيهم من الوحي وهذا كان اكثر من المماراة منهم يعني أن من قرأ افتمارونه فمعناه افتجادلونه ومن قرأ أفتمرونه معناه افتجحدونه وجحودهم لما جاء به كان هو شأنهم وكان اكثر من مجادلتهم له وخالفه ابو علي وغيره واختاروا قراءة افتمارونه قال ابو علي من قرأ افتمارونه فمعناه افتجادلونه جدالا ترومون به دفعه عما علمه وشاهده ويقوي هذا الوجه قوله تعالى يجادلونك في الحق بعدما تبين ومن قرأ افتمرونه كان المعنى افتجحدونه قال والمجادلة كأنها اشبه في هذا لان الجحود كان منهم في هذا وغيره وقد جادله المشركون في الاسراء قلت القوم جمعوا بين الجدال والدفع والانكار فكان جدالهم جدال جحود ودفع لاجدال استرشاد وتبين للحق واثبات الالف يدل على المجادلة والاتيان بعلي يدل على المكابرة فكانت قراءة الالف منتظمة للمعنيين جميعا فهي أولى وبالله التوفيق

❁ فصل ❁ ثم اخبر سبحانه عن رؤيته لجبريل مرة أخرى عند سدرة المنتهى فالمرة الاولى كانت دون السماء بالافق الاعلى والثانية كانت فوق السماء عند سدرة المنتهى وقد صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه جبريل عليه الصلاة والسلام رآه على صورته التي خلق عليها مرتين كما في الصحيحين عن زر بن حبيش أنه سئل عن قوله تعالى فكان قاب قوسين أو أدنى قال اخبرني ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى جبريل له ستمائة جناح وفي الصحيحين أيضا عن عبد الله بن مسعود ما كذب الفؤاد ما رأى قال رأى جبريل في صورته التي له ستمائة جناح وقال البخاري عنه رأى رفرفا اخضر يسد الافق وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة ولقد رآه نزلة أخرى قال رأى جبريل عليه السلام وفي صحيحه أيضا عن مسروق قال كنت متكئا عند عائشة فقالت ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد اعظم على الله الفرية قلت ماهن قالت من زعم أن محمدا رأى ربه فقد اعظم على الله الفرية قال وكنت متكئا فجلست فقلت ياأم المؤمنين انظريني ولا تعجليني ألم يقل الله عزوجل ولقد رآه بالافق المبين ولقد رآه نزلة أخرى فقالت انا أول هذه الامة سأل عن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال انما هو جبريل لم أره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المرتين رأيته منهبطا من السماء سادا اعظم خلقه ما بين السماء والارض فقالت أولم تسمع ان الله عزوجل يقول لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار وهو اللطيف الخبير اولم تسمع ان الله عزوجل يقول وما كان لبشر ان يكلمه الله الا وحيا او من وراء حجاب او يرسل رسولا فيوحي باذنه مايشاء انه علي حكيم قالت ومن زعم ان محمدا كتم شيئا من كتاب الله فقد اعظم على الله الفرية والله عزوجل يقول ياايها الرسول بلغ ماانزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته قالت ومن زعم انه يخبر بما يكون في غد فقد اعظم على الله الفرية والله عزوجل يقول قل لا يعلم من في السموات والارض الغيب الا الله ولو كان محمد كاتما شيئا مما انزل عليه لكتم هذه الآية واذ تقول للذي انعم الله عليه وانعمت عليه امسك عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق ان تخشاه وفي الصحيحين عن مسروق ايضا قال سألت عائشة رضي الله عنها هل رأى محمد ربه فقالت سبحان الله لقد قف شعري

عما قلت وفيهما ايضا قال قلت لعائشة فأين قوله عز وجل ثم دنى فتدلى فكان قاب قوسين او ادنى قالت انما ذاك جبريل كان يأتيه في صورة الرجال وانه أتاه في هذه المرة في صورته التي هي صورته فسد الافق وفي صحيح مسلم ان اباذر سأله صلى الله عليه وسلم هل رأيت ربك فقال نورا انا أراه وفي صحيح مسلم ايضا من حديث أبي موسى الاشعري قال قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمس كلمات فقال ان الله لا ينام ولا ينبغي له ان ينام يخفض القسط ويرفعه يرفع اليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل حجابه النور لو كشفه لاحرقت سبحات وجهه ما انتهى اليه بصره من خلقه وهذا الحديث ساقه مسلم بعد حديث أبي ذر المقدم عقيبه وهو كالتفسير له ولا ينافي هذا قوله في حديث الصحيح حديث الرؤية يوم القيامة فيكشف الحجاب فينظرون اليه فان النور الذي هو حجاب الرب تعالى يراد به الحجاب الادنى اليه وهو لو كشف لم يقم له شيء كما قال ابن عباس في قوله عز وجل لا تدركه الابصار قال ذاك نوره الذي هو نوره اذا تجلى به لم يقم له شيء وهذا الذي ذكره ابن عباس يقتضي ان قوله لا تدركه الابصار على عمومه واطلاقه في الدنيا والآخرة ولا يلزم من ذلك ان لا يرى بل يرى في الآخرة بالابصار من غير ادراك واذا كانت ابصارنا لا تقوم لادراك الشمس على ماهي عليه وان رأتها مع القرب الذي بين المخلوق والمخلوق فالتفاوت الذي بين ابصار الخلائق وذات الرب جل جلاله أعظم وأعظم ولهذا لما حصل للجبل أدنى شيء من تجلي الرب تسافي الجبل واندك لسبحات ذلك القدر من التجلي وفي الحديث الصحيح المرفوع جنتان من ذهب آنيتهما وحليتهما وما فيهما وجنتان من فضة آنيتهما وحليتهما وما فيهما وما بين القوم وبين ان ينظروا الى ربهم الارداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن فهذا يدل ان رداء الكبرياء على وجهه تبارك وتعالى هو المانع من رؤية الذات ولا يمنع من اصل الرؤية فان الكبرياء والعظمة امر لازم لذاته تعالى فاذا تجلى سبحانه لعباده يوم القيامة وكشف الحجاب بينهم وبينه فهو الحجاب المخلوق واما انوار الذات الذي يحجب عن ادراكها فذلك صفة للذات لا تفارق ذات الرب جل جلاله ولو كشف ذلك الحجاب لاحرقت سبحات وجهه ما ادركه بصره من خلقه وتكفي هذه الاشارة في هذا المقام للمصدق الموقن واما المعطل الجهمي فكل هذا عنده باطل ومحال والمقصود ان المخبر عنه بالرؤية في سورة النجم هو جبريل واما قول ابن عباس رأى محمد ربه بفؤاده مرتين فالظاهر ان مستنده هذه الآية وقد تبين ان المرئي فيها جبريل فلا دلالة فيها على ما قاله ابن عباس وقد حكى عثمان بن سعيد الدارمي الاجماع على ما قالته عائشة فقال في نقضه على المريسي في الكلام على حديث ثوبان ومعاذ ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رأيت ربي البارحة في احسن صورة فحكى تأويل المريسي الباطل ثم قال ويلك ان تأويل هذا الحديث على غير ما ذهبت اليه اما ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في حديث أبي ذر انه لم يره وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لن تروا ربكم حتى تموتوا وقالت عائشة رضي الله عنها من زعم ان محمدا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية وأجمع المسلمون على ذلك مع قول الله لا تدركه الابصار يعنون ابصار اهل الدنيا وانما هذه الرؤية كانت في المنام يمكن رؤية الله على كل حال كذلك وروى معاذ بن جبل عن النبي صلى الله

عليه وسلم انه قال صليت ماشاء الله من الليل ثم وضعت جنبي فأتاني ربي في أحسن صورة فهذا تأويل هذا الحديث عند أهل العلم وقد ظن القاضي ابو يعلى ان الرواية اختلفت عن الامام احمد هل رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ربه ليلة الاسراء ام لا على ثلاث روايات احداها انه رآه قال المروزي قلت لابي عبد الله يقولون ان عائشة قالت من زعم ان محمدا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية فبأي شيء يدفع قول عائشة فقال بقول النبي صلى الله عليه وسلم رأيت ربي قول النبي صلى الله عليه وسلم اكبر من قولها قال وذكر المروزي في موضع آخر انه قال لابي عبد الله ههنا رجل يقول ان الله يرى في الآخرة ولا اقول ان محمدا رأى ربه في الدنيا فغضب وقال هذا أهل ان يجفى يسلم الخبر كما جاء قال فظاهر هذا انه أثبت رؤية عين ونقل حنبل قال قلت لابي عبد الله النبي صلى الله عليه وسلم رأى ربه رؤيا حلم بقلبه قال فظاهر هذا نفي الرؤية وكذلك نقل الاثرم وقد سأله عن حديث عبد الرحمن ابن عابس عن النبي صلى الله عليه وسلم رأيت ربي في أحسن صورة فقال معمر مضطرب لان معمرا رواه عن ايوب عن معبد عن عبد الرحمن ابن عابس عن النبي صلى الله عليه وسلم ورواه حماد عن قتادة عن عكرمة عن ابن عباس ورواه يوسف ابن عطية عن قتادة عن انس ورواه عبد الرحمن بن يزيد عن جابر عن خالد بن اللجلاج عن عبد الرحمن بن عابس عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ورواه يحيى بن أبي كثير قال عن ابن عابس عن معاذ عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصل الحديث واحد قال الاثرم فقلت لابي عبد الله فالى أي شيء تذهب فقال قال الاعمش عن زياد بن الحصين عن أبي العالية عن ابن عباس قال رأى محمد ربه بقلبه ونقل الاثرم ان رجلا قال لاحمد عن الحسين الاشيب انه قال لم ير النبي صلى الله عليه وسلم ربه تعالى فأنكره عليه انسان وقال لم تقول رآه ولا تقول بعينه ولا بقلبه كما جاء الحديث فاستحسن ذلك الاشيب فقال ابو عبد الله حسن قال وظاهر هذا اثبات رؤية لا يعقل معناها هل كانت بعينه ام بقلبه فهذه نصوص احمد وقد جعلها القاضي مختلفة وجعل المسئلة على ثلاث روايات ثم احتج للرواية الاولى بحديث ام الطفيل وحديث عبد الرحمن ابن عابس الحضرمي ولا دلالة فيهما لانهما رؤية منام فقط واحتج لها بما لا يرضى احمد ان يحتج به وهو حديث لا يصح عن أبي عبيدة بن الجراح مرفوعا لما كانت ليلة اسري بي رأيت ربي في احسن صورة فقال فيم يختصم الملأ الاعلى وذكر الحديث وهذا غلط قطعا فان القصة انما كانت بالمدينة كما قال معاذ بن جبل احتبس عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في صلاة الصبح حتى كدنا نتراءى عين الشمس ثم خرج فصلى بنا ثم قال رأيت ربي البارحة في احسن صورة فقال يا محمد فيم يختصم الملأ الاعلى وذكر الحديث فهذا كان بالمدينة والاسراء كان بمكة وليس عن الامام احمد ولا عن النبي صلى الله عليه وسلم نص انه رآه بعينه يقظة وانما حمل القاضي كلام أحمد ما لا يحتمله واحتج لما فهم منه بما لا يدل عليه وكلام احمد يصدق بعضه بعضا والمسئلة رواية واحدة عنه فانه لم يقل بعينه وانما قال رآه واتبع في ذلك قول ابن عباس رأى محمد ربه ولفظ الحديث رأيت ربي وهو مطلق قد جاء بيانه في الحديث الآخر ولكن في رد احمد قول عائشة

(ومعارضته)

ومعارضته بقول النبي صلى الله عليه وسلم اشعار بأنه انما اثبت الرؤية التي انكرتها عائشة وهي لم تنكر رؤية المنام ولم تقل من زعم ان محمدا رأى ربه في المنام فقد أعظم على الله الفرية وهذا يدل على احد أمرين اما ان يكون الامام احمد انكر قول من اطلق نفي الرؤية اذ هو مخالفته للحديث واما ان يكون رواية عنه باثبات الرؤية وقد صرح بأنه رآه رؤيا حق بقلبه وهذا تقييد منه للرؤية واطلق انه رآه وانكر قول من نفى مطلق الرؤية واستحسن قول من قال رآه ولا يقول بعينه ولا بقلبه وهذه النصوص عنه متفقة لا مختلفة وكيف يقول احمد رآه بعيني رأسه يقظة ولم يجئ ذلك في حديث قط فأحمد انما اتبع الفاظ الحديث كما جاءت وانكاره قول من قال لم يره أصلا لا يدل على اثبات رؤية اليقظة بعينه والله أعلم

❁ فصل ❁ وقوله تعالى مازاغ البصر وماطغى قال ابن عباس مازاغ البصر يمينا ولا شمالا ولا جاوز ما امر به وعلى هذا المفسرون فنفى عن نبيه مايعرض للرائي الذي لا ادب له بين يدي الملوك والعظماء من التفاته يمينا وشمالا ومجاوزة بصره لما بين يديه واخبر عنه بكمال الادب في ذلك المقام وفي تلك الحضرة اذ لم يلتفت جانبا ولم يمد بصره الى غير ما أرى من الآيات وماهناك من العجائب بل قام مقام العبد الذي اوجب ادبه اطراقه واقباله على ما أرى دون التفاته الى غيره ودون تطلعه الى مالم يره مع مافي ذلك من ثبات الجاش وسكون القلب وطمأنينته وهذا غاية الكمال وزيغ البصر التفاته جانبا وطغيانه مده امامه الى حيث ينتهي فنزه في هذه السورة علمه عن الضلال وقصده وعمله عن الغي ونطقه عن الهوى وفؤاده عن تكذيب بصره وبصره عن الزيغ والطغيان وهكذا يكون المدح

تلك المكارم لا قعبان من لبن ❁ شيبا بماء فعادوا بعد ابوالا

❁ فصل ❁ ولما ذكر رؤيته لجبريل عند سدرة المنتهى استطرد منها وذكر ان جنة المأوى عندها وانه يغشاها من امره وخلقه مايغشى وهذا من احسن الاستطراد وهو اسلوب لطيف جدا في القرآن وهو نوعان احدهما ان يستطرد من الشيء الى لازمه مثل هذا ومثل قوله ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن خلقهن العزيز العليم ثم استطرد من جوابهم الى قوله الذي جعل لكم الارض مهدا وسلك لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون والذي نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتا كذلك تخرجون والذي خلق الازواج كلها وجعل لكم من الفلك والانعام ما تركبون لتستووا على ظهوره وهذا ليس من جوابهم ولكن تقريرا له واقامة الحجة عليهم ومثله قوله تعالى فمن ربكما ياموسى قال ربنا الذي اعطى كل شيء خلقه ثم هدى قال فما بال القرون الاولى قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى فهذا جواب موسى ثم استطرد سبحانه منه الى قوله الذي جعل لكم الارض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وانزل من السماء ماء فأخرجنا به ازواجا من نبات شتى كلوا وارعوا أنعامكم ان في ذلك لآيات لاولي النهى منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ثم عاد الى الكلام الذي استطرد منه والنوع الثاني أن يستطرد من الشخص الى النوع كقوله ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين الى آخره فالاول آدم والثاني بنوه ومثله قوله هو الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها

ليسكن اليها فلما تغشاها حملت حملا خفيفا فمرت به فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما الى آخر الآيات فاستطرد من ذكر الابوين الى ذكر المشركين من اولادهما والله اعلم

﴿فصل﴾ ومن ذلك قوله تعالى والطور وكتاب مسطور في رق منشور والبيت المعمور والسقف المرفوع والبحر المسجور ان عذاب ربك لواقع ماله من دافع تضمن هذا القسم خمسة اشياء وهي مظاهر آياته وقدرته وحكمته الدالة على ربوبيته ووحدانيته فالطور هو الجبل الذي كلم الله عليه نبيه وكليمه موسى بن عمران عند جمهور المفسرين من السلف والخلف وعرفه ههنا باللام وعرفه في موضع آخر بالاضافة فقال وطور سينين وهذا الجبل مظهر بركة الدنيا والآخرة وهو الجبل الذي اختاره الله لتكليم موسى عليه قال عبد الله بن احمد في كتاب الزهد لابيه حدثني محمد بن عبيد بن حبان قال حدثنا جعفر بن سليمان قال حدثنا ابو عمران الجوني عن نوف البكالي قال اوحى الله عزوجل الى الجبل اني نازل على جبل منكم قال فشمخت الجبال كلها الا جبل الطور فانه تواضع وقال أرضى بما قسم الله لي فكان الامر عليه وجبل هذا شأنه حقيق ان يقسم الله به وانه اسيد الجبال الثاني الكتاب المسطور في الرق المنشور واختلف في هذا الكتاب فقيل هو اللوح المحفوظ وهذا غلط فانه ليس برق وقيل هو الكتاب الذي تضمن أعمال بني آدم وقال مقاتل تخرج اليهم أعمالهم يوم القيامة في رق منشور وهذا وان كان اقوى واصح من القول الاول واختاره جماعة من المفسرين ومنهم من لم يذكر غيره فالظاهر أن المراد به الكتاب المنزل من عند الله واقسم الله به لعظمته وجلالته وما تضمنه من آيات ربوبيته وادلة توحيده وهداية خلقه ثم قيل هو التورة التي انزلها الله على موسى وكأن صاحب هذا القول رأى اقتران الكتاب بالطور فقال هو التوراة ولكن التوراة انما انزلت في الواح لافي رق الا ان يقال هي في رق في السماء وانزلت في الواح وقيل هي القرآن ولعل هذا ارجح الاقوال لانه سبحانه وصف القرآن بأنه في صحف مطهرة بأيدي سفرة كرام بررة فالصحف هي الرق وكونه بأيدي سفرة هو كونه منشورا وعلى هذا فيكون قد اقسم بسيد الجبال وسيد الكتب ويكون ذلك متضمنا للنبوتين المعظمتين نبوة موسى ونبوة محمد وكثيرا مايقرن بينهما وبين محلهما كما في سورة التين والزيتون ثم اقسم بسيد البيوت وهو البيت المعمور وفي وصفه الكتاب بأنه مسطور تحقيق لكونه مكتوبا مفروغا منه وفي وصفه بأنه منشور ايذانا بالاعتناء به وانه بأيدي الملائكة منشور غير مهجور واما البيت المعمور فالمشهور انه الصراح الذي في السماء الذي رفع للنبي صلى الله عليه وسلم ليلة الاسراء يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون اليه آخر ما عليهم وهو بحيال البيت المعمور في الارض وقيل هو البيت الحرام ولا ريب ان كلا منهما معمورا فهذا معمور بالملائكة وعبادتهم وهذا معمور بالطائفين والقائمين والركع السجود وعلى كلا القولين فكل منهما سيد البيوت ثم اقسم سبحانه بمخلوقين عظيمين من بعض مخلوقاته وهما مظهر آياته وعجائب صنعته وهما السقف المرفوع وهو السماء فانها من أعظم آياته قدرا وارتفاعا وسعة وسمكا ولونا واشراقا

وهي محل ملائكته وهي سقف العالم وبها انتظامه ومحل النيرين اللذين بهما قوام الليل والنهار والسنين والشهور والايام والصيف والشتاء والربيع والخريف ومنها تنزل البركات واليها تصعد الارواح وأعمالها وكلما تها الطيبة والثاني البحر المسجور وهو آية عظيمة من آياته وعجائبه لا يحصيها الا الله واختلف في هذا البحر هل هو الذي فوق السموات أو البحر الذي نشاهده على قولين فقالت طائفة هو البحر الذي عليه العرش وبين اعلاه وأسفله مسيرة خمسمائة عام كما في الحديث الذي رواه ابوداود من حديث سماك عن عبدالله بن عميرة عن الاحنف بن قيس قال كنت بالبطحاء في عصابة فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فمرت بهم سحابة فنظر اليها فقال ماتسمون هذه قالوا السحاب قال والمزن قالوا والمزن قال والعنان قالوا والعنان قال هل تدرون مابين السماء والارض قالوا لاندري قال ان بعد مابينهما اما واحدة اواثنتان أوثلاث وسبعون سنة ثم السماء فوقها كذلك حتى عد سبع سموات ثم فوق السابعة بحرا بين اسفله واعلاه مثل مابين سماء الى سماء ثم فوق ذلك ثمانية اوعال بين اظلافهم وركبهم مثل مابين سماء الى سماء ثم على ظهورهم العرش مابين أسفله واعلاه مثل مابين سماء الى سماء ثم الله فوق ذلك وهذا لايناقض مافي جامع الترمذي ان بين كل سماءين مسيرة خمسمائة عام اذا المسافات تختلف مقاديرها باختلاف المقدر به فالخمسمائة مقدرة بسير الابل والسبعون بسير البريد وهو يقطع بقدر ماتقطعه الابل سبعة اضعاف وهذا القول في البحر الذي تحت العرش محكي عن علي بن ابي طالب والثاني انه بحر الارض واختلف في المسجور فقيل المملوء هذا قول جميع أهل اللغة قال الفراء المسجور في كلام العرب المملوء يقال سجرت الاناء اذا ملأته قال لبيد

فتوسطا عرض السري وصدعا ❊ مسجورة متجاور أقلامها

وقال المبرد المسجور المملوء عند العرب وأنشد للنمر بن تولب ❊ اذاشاء طالع مسجورة ❊ يريد عينا مملوءة ماء وكذا قال ابن عباس المسجور المملئ وقال مجاهد المسجور الموقد قال الليث السجر ايقادك في التنور تسجره سجرا والسجر اسم الحطب وهذا قول الضحاك وكعب وغيرهما قال البحر يسجر فيزداد في جهنم وحكي هذا القول عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال مسجور قال الفراء وهذا يرجع الى القول الاول لانك تقول سجرت التنور اذا ملأته حطبا وروى ذوالرمة الشاعر عن ابن عباس أن المسجور اليابس الذي قد نضب ماؤه وذهب وليس لذي الرمة رواية عن ابن عباس غير هذا الحرف وهذا القول اختيار أبي العالية قال أبو زيد المسجور المملوء والمسجور الذي ليس فيه شئ جعله من الاضداد وقد روى عن ابن عباس أن المسجور المحبوس ومنه ساجور الكلب وهو القلادة من عود أو حديد تمسكه والمعنى على هذا أنه محبوس بقدرة الله أن يفيض على الارض فيغرقها فان ذلك مقتضى الطبيعة أن يكون الماء غامرا للارض فوقها كما أن الهواء فوق الماء ولكن أمسكه الذي يمسك السموات والارض أن تزولا وفي هذا حديث ذكره أحمد مرفوعا مامن يوم الا والبحر يستأذن ربه أن يغرق بني آدم وهذا الموضع مما هدم أصول الملاحدة والدهرية فانه ليس في الطبيعة مايقتضي حبس الماء عن بعض جوانب الارض مع كون كرة الماء عالية على كرة الارض بالذات ولوفرض أن

فى الطبيعة ما يقتضى بروز جوانبها لم يكن فيها مايقتضى تخصيص هذا الجانب بالبروز دون غيره وما ذكره الطبائعيون والمتفلسفة أن العناية الالهية اقتضت ذلك لمصلحة العالم فهم هو كما ذكروا ولكن عناية من يفعل بقدرته ومشيئته وهو بكل شئ عليم وعلى كل شئ قدير وهو أحكم الحاكمين غير معقولة فان العناية الالهية تقتضى حياته وقدرته ومشيئته وعلمه وحكمته ورحمته واحسانه الى خلقه وقيام الافعال به فاثبات العناية الالهية مع نفى هذه الامور ممتنع وبالله التوفيق وأقوى الاقوال فى المسجور أنه الموقد وهذا هو المعروف فى اللغة من المسجور ويدل عليه قوله تعالى واذا البحار سجرت قال على وابن عباس أوقدت فصارت نارا ومن قال يبست وذهب ماؤها فلا يناقض كونها نارا موقدة وكذا من قال ملئت فانها تملأ نارا واذا اعتبرت اسلوب القرآن ونظمه ومفرداته رايت اللفظة تدل على ذلك كله فان البحر محبوس بقدرة الله ومملوء ماء ويذهب ماؤه يوم القيامة ويصير نارا فكل من المفسرين اخذ معنى من هذه المعانى والله اعلم

﴿ فصل ﴾ واقسم سبحانه بهذه الامور على المعاد والجزاء فقال ان عذاب ربك لواقع ماله من دافع ولما كان الذى يقع قد يمكن دفعه اخبر سبحانه انه لا دافع له وهذا يتناول امرين احدهما انه لا دافع لوقوعه والثانى انه لادافع له اذا وقع ثم ذكر سبحانه وقت وقوعه فقال يوم تمور السماء مورا وتسير الجبال سيرا والمور قد فسر بالحركة وفسر بالدوران وفسر بالتموج والاضطراب والتحقيق انه حركة فى تموجه وتكفؤ وذهاب ومجئ ولهذا فرق بين حركة السماء وحركة الجبال فقال وتسير الجبال سيرا وقال واذا الجبال سيرت من مكان الى مكان واما السماء فانها تتكفأ وتموج وتذهب وتجئ قال الجوهرى مار الشئ يمور مورا ترهيا اى تحرك وجاء وذهب كما تتكفأ النخلة العيدانة اى الطويلة ومنه قوله يوم تمور السماء مورا قال الضحاك تموج موجا وقال ابوعبيدة والاخفش تكفأ وانشد للاعشى

كأن مشيتها من بيت جارتها ※ مور السحابة لاريث ولاعجل

ثم ذكر وعيد المكذبين بالمعاد والنبوة وذكر اعمالهم وعلومهم التى كانوا عليها وهى الخوض الذى هو كلام باطل واللعب الذى هو سعى ضائع فلا علم نافع ولاعمل صالح بل علومهم خوض بالباطل واعمالهم لعب ولما كانت هذه العلوم والاعمال مستلزمة لدفع الحق بعنف وقهر ادخلوا جهنم وهم يدعون اليها دعا اى يدفع فى اقفيتهم وا كتافهم دفعا بعد دفع فاذا وقفوا عليها وعاينوها وقفوا وقيل لهم هذه النار التى كنتم بها تكذبون وتقولون لا حقيقة لها ولا من اخبر بها صادق ثم يقال افسحر هذا الآن كما كنتم تقولون للحق الذى جاء تكم به الرسل انه سحر وانهم سحرة فهذا الآن سحر لا حقيقة له كما قلتم ام على ابصاركم غشاوة فلا تبصرونها كما كان عليها غشاوة فى الدنيا فلا تبصروا الحق أفعميت أبصاركم اليوم عن رؤية هذا الحق كما عميت فى الدنيا فلا تبصروا الحق ثم سلب عنهم نفع البصر الذى كانوا فى الدنيا اذا دهمتهم الشدائد وأحاطت بهم لجئوا اليه وتعللوا بانقضاء البلية لانقضاء أمدها فقيل لهم يومئذ اصبروا أولا تصبروا كلاهما سواء عليكم لايجدى عنكم الصبر ولا الجزع فلا الصبر يخفف عنكم حر هذا العذاب ولا الجزع يعطف عليكم

قلوب الخزنة ولا يستنزل لكم الرحمة ثم اعلموا بأن الرب تعالى لم يظلمهم بذلك والخاهو نفس أعمالهم صارت عذابا فلم يجدوا من اقترانهم به بدا بل صارت عذابا لازما لهم كما كانت ارادتهم وعقائدهم الباطلة وأعمالهم القبيحة لازمة لهم ولزوم العذاب لاهله فى النار بحسب لزوم تلك الارادات الفاسدة والعقائد الباطلة ومايترتب عليهما من الاعمال لهم فى الدنيا فاذا زال ذلك اللزوم فى وقت مايضده وبالتوبة النصوح زوالا كليا لم يعذبوا عليه فى الآخرة لان أثره قد زال من قلوبهم وألسنتهم وجوارحهم ولم يبق له أثر يترتب عليه فالتائب من الذنب كمن لاذنب له والمادة الفاسدة اذا زالت مع البدن بالكلية لم يبق هناك ألم ينشأ عنها وان لم تزل تلك الارادة والاعمال ولكن طرأ عليها معارض أقوى منها كان التأثير للمعارض وغلب الاقوى الاضعف وان تساوى الامران تدافعا وقاوم كل منهما الآخر وكان محل صاحبه جبال الاعراف بين الجنة والنار فهذا حكم الله وحكمته فى خلقه وأمره ونهيه وعقابه ولا يظلم ربك أحدا

﴿ فصل ﴾ ثم ذكر سبحانه أرباب العلوم النافعة والاعمال الصالحة والاعتقادات الصحيحة وهم المتقون فذكر مساكنهم وهم فى الجنان وحالهم فى المساكن وهو النعيم وذكر نعيم قلوبهم وراحتهم بكونهم فاكهين بما آتاهم ربهم والفاكه المعجب بالشئ المسرور المغتبط به وفعله فكه بالكسر يفكه فهو فكه وفاكه اذا كان طيب النفس والفاكه البال ومنه الفاكهة وهي المزح الذى ينشأ عن طيب النفس وتفكهت بالشئ اذا تمتعت به ومنه الفاكهة التى يتمتع بها ومنه قوله فظلتم تفكهون قيل معناه تندمون وهذا تفسير بلازم المعنى وانما الحقيقة تزيلون عنكم التفكه واذا زال التفكه خلفه ضده يقال تحنث اذا زال الحنث عنه وتحرج وتحوب وتأثم ومنه تفكه وهذا البناء يقال لداخل فى الشئ كتعلم وتحلم وللخارج منه كتحرج وتأثم والمقصود انه سبحانه جمع لهم بين النعيمين نعيم القلب بالتفكه ونعيم البدن بالاكل والشرب والنكاح ووقاهم عذاب الجحيم فوقاهم مما يكرهون وأعطاهم مايحبون جزاء وفاقا لانهم تركوا مايكره وأتوا بما يحب فكان جزاؤهم مطابقا لاعمالهم ثم أخبر عن دوام ذلك لهم بما أفهمه قوله هنيئا لو خافوا زواله وانقطاعه لتنغص عليهم ذلك نعيمهم ولم يكن هنيئا لهم ثم ذكر مجالسهم وهيئاتهم فيها فقال متكئين على سرر مصفوفة وفى ذكر اصطفافها تنبيه على كمال النعمة عليهم بقرب بعضهم من بعض ومقابلة بعضهم بعضا كما قال تعالى متكئين عليها متقابلين فان من تمام اللذة والنعيم أن يكون مع الانسان فى بستانه ومنزله من يحب معاشرته ويؤثر قربه ولا يكونون بعيدا منه قد حيل بينه وبينه بل سريره الى جانب سرير من يحبه وذكر أزواجهم وانهم الحور العين وقد تكرر وصفهم فى القرآن بهاتين الصفتين قال ابو عبيدة جعلناهم ازواجا كما يزوج البعل بالبعل جعلناهم اثنين اثنين وقال يونس قرناهم بهن وليس من عقد التزويج واحتج على هذا بأن العرب لا تقول تزوجت بها وانما تقول تزوجتها قال تعالى فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها وفى الحديث زوجتكها بما معك من القرآن وقال غيره العرب تقول تزوجت بامرأة وقال الازهرى العرب تقول زوجته امرأة وتزوجت امرأة وليس فى كلامهم تزوجت بامرأة ومنه قوله تعالى وزوجناهم بحور عين اى قرناهم وعلى هذا فزوجناهم عند هؤلاء من الاقتران والشفع اى شفعناهم وقرناهم بهن وقالت طائفة منهم مجاهد زوجناهم

بهن اى انكحناهم اياهن قلت وعلى هذا فتلو يح نعل التزو يج قددل على النكاح وتعديته بالباء المتضمنة معنى الاقتران والضم فالقولان واحد والله أعلم وأما الحور العين فقال مجاهد التى يحار فيها الطرف باديا مخ سوقهن من وراء ثيابهن ويرى الناظر وجهه فى كبد احداهن كالمرآة من رقة الجلد وصفاء اللون وقال قتادة بحور اى بيض وكذا قال ابن عباس وقال مقاتل الحور البيض الوجوه العين الحسان الاعين وعين حوراء شديدة السواد نقية البياض طويلة الاهداب مع سوادها كاملة الحسن ولا تسمى المرأة حوراء حتى يكون مع حور عينها بياض لون الجسد فوصفهن بالبياض والحسن والملاحة كما قال خيرات حسان فالبياض فى ألوانهن والحسن فى وجوههن والملاحة فى عيونهن وقد وصف الله سبحانه نساء أهل الجنة بأحسن الصفات ودل بما وصف عما سكت عنه فان شئت التفصيل فالذى يحمد ويستحب من وجه المرأة وبدنها واخلاقها البياض فى أربعة اشياء اللون وبياض العين والفرق والثغر والسواد فى أربعة سواد العين وسواد شعر الرأس والجفن وسواد الحاجبين والحمرة فى اربعة اللسان والشفتين والوجنتين وحمرة تشوب البياض فتحسنه وتزينه ومن التدوير أربعة اشياء الوجه والرأس والكعب والمقعد ومن الطول أربعة القامة والعنق والشعر والحاجب والسعة فى اربعة الجبهة والعين والوجه والصدر ومن الصغر فى اربعة الثدى والفم والكف والقدم ومن الطيب فى اربعة الفم والانف والفرق والفرج ومن الضيق فى موضع واحد ومن الاخلاق كما قال تعالى عربا أترابا اذا العرب جمع عروب وهى المرأة المتحببة الى زوجها بأخلاقها ولطافتها وشمائلها قال ابن الاعرابى العروب من النساء المطيعة لزوجها المتحببة اليه وقال أبو عبيدة هى الحسنة التبعل قال المبرد هى العاشقة لزوجها وقال البخارى فى صحيحه هى الغنجة ويقال الشكلة فهذا وصف اخلاقهن وذاك وصف خلقهن وأنت اذا تأملت الصفات التى وصفهن الله بها رأيتها مستلزمة لهذه الصفات ولما وراءها والله المستعان

﴿ فصل ﴾ ثم أخبر سبحانه عن تكميل نعيمهم بالحاق ذرياتهم بهم فى الدرجة وان لم يعملوا أعمالهم لتقر أعينهم بهم ويتم سرورهم وفرحهم وأخبر سبحانه انه لم ينقص الآباء من عملهم من شئ بهذا الالحاق فينزلهم من الدرجة العليا الى الدرجة السفلى بل ألحق الابناء بالآباء ووفر على الآباء أجورهم ودرجاتهم ثم اخبر سبحانه ان هذا انما هو فضله فى اهل الفضل واما أهل العدل فلا يفعل بهم ذلك بل كل امرء بما كسب رهين ففى هذا دفع لتوهم التسوية بين الفريقين بهذا الالحاق كما فى قوله وما التناهم من عملهم من شئ دفع لتوهم حط الآباء الى درجة الابناء وقسمة اجور الآباء بينهم وبين الابناء فينقص أجر أعمالهم فرفع هذا التوهم بقوله وما ألتناهم من عملهم من شئ أى مانقصناهم ثم ذكر امدادهم باللحم والفاكهة والشراب وانهم يتعاطون كؤوس الشراب بينهم يشرب أحدهم ويناول صاحبه ليتم بذلك فرحهم وسرورهم ثم نزه ذلك الشراب عن الآفات من اللغو من أهله عليه ولحوق الاثم لهم فقال لا لغو فيها ولا تأثيم فنفى باللغو السباب والتخاصم والهجر والفحش فى المقال والعربدة ونفى بالتأثيم جميع الصفات المذمومة التى أثمت شارب الخمر وقال سبحانه ولا تأثيم ولم يقل ولا اثم أى ليس فيها ما يحملهم على الاثم ولا يؤثم بعضهم بعضا بشربها ولا يؤثمهم الله بذلك ولا الملائكة

فلايلغون ولا يأثمون قال ابن قتيبة لايذهب بعقولهم فيلغوا وكم يقع منهم مايؤثمهم ثم وصف خدمهم الطائفين عليهم بأنهم كاللؤلؤ فى بياضهم والمكنون المصون الذى لاتدنسه الايدى فلم تذهب الخدمة تلك المحاسن وذلك اللون والصفاء والبهجة بل مع انتصابهم لخدمتهم كأنهم لؤلؤ مكنون ووصفهم فى موضع آخر اذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا ففى ذكره المنثور اشارة الى تفرقهم فى حوائج ساداتهم وخدمتهم وذهابهم ومجيئهم وسعة المكان بحيث لايحتاجون أن ينضم بعضهم الى بعض فيه لضيقه ثم ذكر سبحانه مايتحدثون به هنالك وانهم يقولون انا كنا قبل فى أهلنا مشفقين أى كنا خائفين فى محل الامن بين الاهل والاقارب والعشائر فأوصلنا ذلك الخوف والاشفاق الى ان من الله علينا فأمننا مما نخاف ووقانا عذاب السموم وهذا ضد حال الشقى الذى كان فى أهله مسرورا فهذا كان مسرورا مع اساءته وهؤلاء كانوا مشفقين مع احسانهم فبدل الله سبحانه اشفاقهم بأعظم الامن وبدل أمن اولئك بأعظم المخاوف فبالله سبحانه المستعان ثم أخبر عن حالهم فى الدنيا وانهم كانوا يعبدون الله فيها فأوصلهم عبادته وحده الى قربه وجواره ومحل كرامته والذى جمع لهم ذلك كله بره ورحمته فانه هو البر الرحيم فهذا هو المقسم عليه بتلك الاقسام الخمسة فى أول السورة والله أعلم

﴿ فصل ﴾ ومن ذلك قوله والذاريات ذروا فالحاملات وقرا فالجاريات يسرا فالمقسمات أمرا اقسم بالذاريات وهى الرياح تذروالمطر وتذروالتراب وتذرو النبات اذا تهشم كما قال تعالى فأصبح هشيما تذروه الرياح اى تفرقه وتنشره ثم بما فوقها وهى السحاب الحاملات وقرا أى ثقلا من الماء وهى روايا الارض يسوقها الله سبحانه على متون السحاب الرياح كما فى جامع الترمذى من حديث الحسن عن أبى هريرة قال بينا نبى الله صلى الله عليه وسلم جالس فى أصحابه اذ أتى عليهم سحاب فقال نبى الله صلى الله عليه وسلم هل تدرون ماهذا قالوا الله ورسوله أعلم قال هذا العنان هذه روايا الارض يسوقها الله تبارك وتعالى الى قوم لايشكرونه ولايدعونه ثم أقسم سبحانه بما فوق ذلك وهى الجاريات يسرا وهى النجوم التى من فوق الغمام ويسرا أى مسخرة مذللة منقادة وقال جماعة من المفسرين انها السفن تجرى ميسرة فى الماء جريا سهلا ومنهم من لم يذكر غيره واختار شيخنا رحمه الله القول الاول وقال هو أحسن فى الترتيب والانتقال من السافل الى العالى فانه بدأ بالرياح وفوقها السحاب وفوقه النجوم وفوقها الملائكة المقسمات امرا لله الذى امرت به بين خلقه والصحيح ان المقسمات امرا لاتختص بأربعة وقيل هم جبريل يقسم الوحى والعذاب وانواع العقوبة على من خالف الرسل وميكائيل على القطر والبرد والثلج والنبات يقسمها بأمر الله وملك الموت يقسم المنايا بين الخلق بأمر الله واسرافيل يقسم الارواح على ابدانها عند النفخ فى الصور وهم المدبرات امرا وليس فى اللفظ مايدل على الاختصاص بهم والله اعلم واقسم سبحانه بهذه الامور الاربعة لمكان العبرة والآية والدلالة الباهرة على ربوبيته ووحدانيته وعظم قدرته ففى الرياح من العبر هبوبها وسكونها ولينها وشدتها واختلاف طبائعها وصفاتها ومهابها وتصريفها وتنوع منافعها وشدة الحاجة اليها فللمطر خمسة رياح ريح ينشر سحابه وريح يؤلف بينه وريح تلقحه وريح تسوقه حيث يريد الله وريح تذرو امامه وتفرقه وللنبات ريح وللسفن ريح وللرحمة

ريح والعذاب ريح الى غير ذلك من انواع الرياح وذلك تقتضي بوجود خالق مصرف لهـا مدبرلها ويصرفهـا كيف يشاء ويجعلهـا رخاء تارة وعاصفة تارة ورحمة تارة وعذابا تارة فتارة يحيي بها الزرع والثمار وتارة يعطبها وتارة ينجي بهـا السفن وتارة يهلكها بها وتارة ترطب الابدان وتارة تذيبها وتارة عقيما وتارة لاقحة وتارة جنوبا وتارة دبورا وتارة صبا وتارة شمالا وتارة حارة وتارة باردة وهي مع غاية قوتها الطف شيء وأقبل المخلوقات لكل كيفية سريعة التأثر والتأثير لطيفة المسارق بين السماء والارض اذا قطع عن الحيوان الذى على وجه الارض هلك كهو الماء الذى اذا فارقه حيوان الماء هلك يحبسها الله سبحانه اذا شاء ويرسلها اذا شاء تحمل الاصوات الى الاذن والرائحة الى الانف والسحاب الى الارض الجرز وهي من روح الله تأتي بالرحمة ومن عقوبته تأتي بالعذاب وهي أقوى خلق الله كما رواه الترمذى في جامعه من حديث أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لما خلق الله الارض جعلت تميد فخلق الجبال فقال بها عليها فاستقرت فعجبت الملائكة من شدة الجبال وقالوا يارب هل من خلقك شيء أشد من الجبال قال نعم الحديد قالوا يارب فهل من خلقك شيء أشد من الحديد قال نعم النار قالوا يارب فهل من خلقك شيء أشد من النار قال نعم الماء قالوا يارب فهل من خلقك اشد من الماء قال نعم الريح قالوا يارب فهل من خلقك أشد من الريح قال نعم ابن آدم تصدق بصدقة بيمينه يخفيها من شماله ورواه الامام أحمد في مسنده وفي الترمذى في حديث قصة عاد انه لم يرسل عليهم من الريح الا قدر حلقة الخاتم فلم تذر من شيء أتت عليه الا جعلته كالرميم وقد وصفها الله بأنها عاتية قال البخارى في صحيحه عتت على الخزنة فلم يستطيعوا ان يردوهـا والمقصود أن الرياح من أعظم آيات الرب الدالة على عظمته وربوبيتـه وقدرته

﴿ فصل ﴾ ثم أقسم بالسحاب وهو من أعظم آيات الله في الجو في غاية الخف ثم يحمل المـاء والبرد فيصير اثقل شيء فيأمر الرياح فتحمله على متونهـا وتسير به حيث أمرت فهو مسخر بين السماء والارض حامل لارزاق العباد والحيوان فاذا أفرغه حيث امر به اضمحل وتلاشي بقدرة الله فانه لو بقي لاضر النبـات والحيوان فانشأه سبحانه في زمن يصلح انشاؤه فيه وحمله من الماء ما يحمله وساقه الى بلد شديد الحاجة اليه فسل السحاب من أنشأه بعد عدمه وحمله الماء والثلج والبرد ومن حمله على ظهور الرياح ومن امسكه بين السمـاء والارض بغير عمـاد ومن اغاث بقطره العباد واحيي به البـلاد وصرفه بين خلقه كما أراد وأخرج ذلك القطر بقدر معلوم وأنزله منه وافناه بعد الاستغناء عنه ولو شاء لادامه عليهم فلم يستطيعوا الى دفعه سبيلا ولو شاء لامسكه عنهم فلا يجدون اليه وصولا فان لم يجبك جوارا حيابك اعتبار الرسل الرياح من أنشأها بقدرته وصرفها بحكمته وسخرها بمشيئته وارسلها بشرا بين يدى رحمته جعلها سببا لتمام نعمته وسلطانا على من شاء بعقوبته ومن جعلها رخاء وذارية ولاقحة ومثيرة ومؤلفة ومغذية لابدان الحيوان والشجر والنبات وجعلها قاصفا وعاصفا ومهلكة وعاتية الى غير ذلك من صفاتها فهل ذلك لها من نفسها وذاتها ام تدبير مدبر شهدت الموجودات بربوبيته واقرت المصنوعات بوحدانيته بيده النفع والضر وله الخلق والامر تبارك الله رب العـالمين وسل الجاريات يسرا من السفن من أمسكها على وجه الماء وسخر لها البحر ومن أوسق لها الرياح

التي تسوقها الى الماء سوق السحاب على متون الرياح ومن حفظها في مجراها ومرساها من طغيان الماء وطغيان الريح فمن الذي جعل الريح لها بقدر لو زاد عليها لأغرقها ولو نقص عنه لعاقها ومن الذي أجرى لها ريحا واحدة تسير بها ولم يسلط على تلك الريح مايصادمها ويقاومها فتموج في البحر يمينا وشمالا تتلاعب بها الريح ومن الذي صنع الخلق الضعيف صنعة هذا البيت العظيم الذي يمشي على الماء فيقطع المسافة البعيدة ويعود الى بلده يشق الماء ويمخره مقبلا ومدبرا بريح واحدة تجري في موج كالجبال ومن آياته الجوار في البحر كالاعلام ان يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره ان في ذلك لآيات لكل صبار شكور أو يوبقهن بما كسبوا ويعفو عن كثير ومن الذي حمل في هذا البيت نبيه وأولياءه خاصة وأغرق جميع أهل الارض سواهم وسل الجاريات يسرا من الكواكب والشمس والقمر ومن الذي خلقها وأحسن خلقها ورفع مكانها وزين بها قبة العالم وفاوت بين اشكالها ومقاديرها وألوانها وحركاتها وأما كنها من السماء فمنها الكبير ومنها الصغير والمتوسط والابيض والاحمر والزجاجي اللون والدري اللون والمتوسط في قبة الفلك والمتطرف في جوانبها وبين ذلك ومنها مايقطع الفلك في شهر ومنها مايقطعه في عام ومنها مايقطعه في ثلاثين عاما ومنها مايقطعه في أضعاف ذلك ومنها مالايزال ظاهرا لايغيب بحال فهو أبدي ومنها أبدي الخفاء ومنها ماله حالتان ظهور واختفاء ومنها ماله حركتان حركة عرضية من المشرق الى المغرب وحركة ذاتية من المغرب الى المشرق فخال مايأخذ الكوكب في الغروب فاذا كوكب آخر في مقابلته وكوكب آخر قد طلع وهو آخذ في الارتفاع والتصاعد وكوكب آخر في الربع الشرقي وكوكب آخر في وسط السماء وكوكب آخر قد مال عن الوسط وآخر قد دنا من الغروب وكان رقيبه ينتظر بطلوعه غيبته وأنت اذا تأملت أحوال هذه الكواكب وجدتها تدل على المعاد كما تدل على المبدأ وتدل على وجود الخالق وصفات كماله وربوبيته وحكمته ووحدانيته أعظم دلالة وكما دل على صفات جلاله ونعوت كماله دل على صدق رسله فكما جعل الله النجوم هداية في طريق البر والبحر فهي هداية في طرق العلم بالخالق سبحانه وقدرته وعلمه وحكمته والمبدأ والمعاد والنبوة ودلالتها على هذه المطالب لاتقصر عن دلالتها على طرق البر والبحر بل دلالتها للعقول على ذلك أظهر من دلالتها على الطرق الحسية فهي هداية في هذا وهذا

﴿ فصل ﴾ وأما دلالة المقسمات أمرا فهم الملائكة فلأن مايشاهد من تدبير العالم العلوي والسفلي ومالا يشاهد انما هو على أيدي الملائكة فالرب تعالى يدبر بهم امر العالم وقد وكل بكل عمل من الاعمال طائفة منهم فوكل بالشمس والقمر والنجوم والافلاك طائفة منهم ووكل بالقطر والسحاب طائفة ووكل بالنبات طائفة ووكل بالاجنة والحيوان طائفة ووكل بالموت طائفة وبحفظ بني آدم طائفة وباحصاء اعمالهم وكتابتها طائفة وبالوحي طائفة وبالجبال طائفة وبكل شأن من شؤن العالم طائفة هذا مع مافي خلق الملائكة من البهاء والحسن ومافيهم من القوة والشدة ولطافة الجسم وحسن الخلقة وكمال الانقياد لامره والقيام في خدمته وتنفيذ أوامره في اقطار العالم ثم اقسم سبحانه بهذه الامور على صدق وعده ووقوع جزائه بالثواب والعقاب فقال انما توعدون لصادق أي ما توعدون من امر الساعة والثواب والعقاب لحق كائن وهو وعد صدق

لا كذب وان الدين لواقع أى ان الجزاء لكائن لامحالة و يجوز ان تكون ما موصولة والعائد محذوف والمعنى ان الذى توعدونه لصادق أى كائن وثابت وان تكون مصدرية أى ان وعدكم لحق وصدق ووصف الوعد بكونه صادقا ابلغ من وصفه بكونه صدقا ولا حاجة الى تكلف جعله بمعنى مصدوقا فيه بل هو صادق نفسه كما يوصف المتكلم بأنه صادق فى كلامه فوصف كلامه بأنه صادق وهذا مثل قولهم سركاتم وليل قائم ونهار صائم وماء دافق ومنه عيشة راضية وليس ذلك بمجاز ولا مخالف لمقتضى التركيب واذا تأملت هذا التناسب والارتباط بين المقسم به والمقسم عليه وجدته دالا عليه مرشدا اليه ثم اقسم سبحانه بالسماء ذات الحبك أصل الحبك فى اللغة اجادة النسج يقال حبك الثوب اذا أجاد نسجه وحبل محبوك اذا كان شديد الفتل وفرس محبوك الكفل أى مدمجه وقال سهر المحبوك فى اللغة ما اجيد عمله ودابة محبوكة اذا كانت مدمجة الخلق وقال ابو عبيدة والمبرد الحبك الطريق واحدها حباك وحباك الحمام طرائق على جناحيه وحبك الماء طريقه وقال الفراء الحبك تكسير كل شئ كالرمل اذا امرت به الريح والماء الدائم اذا امرت به الريح وتجعد الشعر حبك ايضا واحدها حبيكة مثل طريقة وحباك مثل مثال ومثل والمقصود بهذا كله ما أفصح به ابن عباس فقال يريد الخلق الحسن وروى سعيد بن جبير عنه قال الحبك حسنها واستواؤها وقال قتادة ذات الخلق الشديد وقال مجاهد متقنة البنيان وقال ايضا ذات الطرائق ولكنها بعيدة من العباد فلا يرونها كحبك الماء اذا ضربته الريح وكحبك الرمل وكحبك الشعر وقال عكرمة بنيانها كالبرد المسلسل قلت وفى الحديث فى صفة الدجال شعر اسه حبك أى جعد الشعر ومن أحسن ماقيل فى تفسير الحبك ماذكره الترمذى فى تفسير الجامع من حديث الحسن عن أبى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال هل تدرون مافوقكم قالوا الله ورسوله أعلم قال فانها الرقع سقف محفوظ وموج مكفوف وذكر الحديث

﴿ فصل ﴾ ثم ذكر المقسم عليه فقال انكم لفى قول مختلف يؤفك عنه من أفك فالقول المختلف أقوالهم فى القرآن وفى النبى صلى الله عليه وسلم وهو خرص كله فانهم لما كذبوا بالحق اختلفت مذاهبهم وآراؤهم وطرائقهم واقوالهم فان الحق شئ واحد وطريق مستقيم فمن خالفه اختلفت به الطرق والمذاهب كما قال تعالى بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم فى أمر مريج أى مختلط ملتبس وفى ضمن هذا الجواب انكم فى اقوال باطلة متناقضة يكذب بعضها بعضا بسبب تكذيبهم بالحق ثم اخبر سبحانه أنه يصرف بسبب ذلك القول المختلف من صرف فعن ههنا فيها طرق من معنى التسبيب كقوله وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وقوله من أفك أى من سبق فى علم الله انه يضل ويؤفك كقوله فانكم وما تعبدون ما انتم عليه بفاتنين الا من هو صال الجحيم وقالت طائفة الضمير يرجع الى القرآن وقيل الى الايمان وقيل الرسول والمعنى يصرف عنه من صرف حتى يكذب به ولما كان هذا القول المختلف خرصا وباطلا قال قتل الخراصون أى المكذبون الذين هم فى غمرة ساهون وجهالة قد غمر قلوبهم أى غطاها وغشاها كغمرة الماء وغمرة الموت فغمرات ماغطاها من جهل أوهوى أوسكر

أو غفلة أو حب أو بغض أو خوف أو غم ونحو ذلك قال تعالى بل قلوبهم في غمرة من هذا أى غفلة وقيل جهالة ثم وصفهم بأنهم ساهون في غمرتهم والسهو الغفلة عن الشيء وذهاب القلب عنه والفرق بينه وبين النسيان أن النسيان الغفلة بعد الذكر والمعرفة والسهو لا يستلزم ذلك ثم قال يسئلون أيان يوم الدين استبعادا للوقوع وجحدا فأخبر تعالى أن ذلك يومهم على النار يفتنون والمشهور في تفسير هذا الحرف أنه بمعنى يحرقون ولكن لفظة على تعطى معنى زائدا على ماذكروه ولو كان المراد نفس الحرف لقيل يومهم في النار يفتنون ولهذا لما لم هؤلاء ذلك قال كثير منهم على بمعنى في كما تكون بمعنى على والظاهر أن فتنتهم على النار قبل فتنتهم فيها لهم عند عرضهم عليها ووقوفهم عليها فتنة وعند دخولهم والتعذيب بها فتنة أشد منها فهم ومن جعل الفتنة ههنا من الحريق أخذه من قوله تعالى ان الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا واستشهد على ذلك أيضا بهذه اللفظة التي في الذاريات وحقيقة الأمر أن الفتنة تطلق على العذاب وسببه ولهذا سمى الله الكفر فتنة فهم لما أتوا بالفتنة التي هي اسباب العذاب في الدنيا سمى جزاءهم فتنة ولهذا قال ذوقوا فتنتكم وكان وقوفهم على النار وعرضهم عليها من أعظم فتنتهم وآخر هذه الفتنة دخول الدار والتعذيب بها ففتنوا أولا بأسباب الدنيا وزينتها ثم فتنوا بارسال الرسل اليهم ثم فتنوا بمخالفتهم وتكذيبهم ثم فتنوا بعذاب الدنيا ثم فتنوا بعذاب الموت ثم يفتنون في موقف القيامة ثم اذا حشروا الى النار وقفوا عليها وعرضوا عليها وذلك من اعظم فتنتهم ثم الفتنة الكبرى التي أنستهم جميع الفتن قبلها

﴿ فصل ﴾ ثم ذكر سبحانه جزاء من خلص من هذه الفتن بالتقوى وهو الجنات والعيون وأنهم آخذون ما آتاهم ربهم من الخير والكرامة وفي ذلك دليل على أمور منها قبولهم له ومنها رضاهم به ومنها وصولهم اليه بلا مانع ولا معاوق ومنها أن جزاءهم من جنس أعمالهم فكما أخذوا من أمرهم به في الدنيا وقابلوه بالرضا والتسليم وانشراح الصدر أخذوا ما آتاهم من الجزاء كذلك ثم ذكر السبب الذى أوصلهم الى ذلك وهو احسانهم المتضمن لعبادته وحده لا شريك له والقيام بحقوقه وحقوق عباده ثم ذكر ليلهم وأنهم قليل هجوعهم منه وقد قيل ان ما نافية والمعنى ما يهجعون قليلا من الليل فكيف بالكثير وهذا ضعيف لوجوه أحدها أن هذا ليس بلازم لوصف المتقين الذين يستحقون هذا الجزاء الثاني أن قيام من نام من الليل نصفه أحب الى الله من قيام من قامه كله الثالث أنه لو كان المراد بذلك احياء الليل جميعه لكان أولى الناس بهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وما قام ليلة حتى الصباح الرابع أن الله سبحانه انما أمر رسوله ان يتهجد بالقرآن من الليل لا في الليل كله فقال ومن الليل فتهجد به الخامس أنه سبحانه لما أمره بقيام الليل في سورة المزمل انما أمره بقيام النصف أو النقصان منه أو الزيادة عليه فذكر له هذه المراتب الثلاثة ولم يذكر قيامه كله السادس أنه صلى الله عليه وسلم لما بلغه عن عثمان بن مظعون أنه لا ينام من الليل بعث اليه فجاء فقال يا عثمان أرغبت عن سنتي قال لا والله يا رسول الله ولكن سنتك أطلب قال فاني انام وأصلي وأصوم وافطر وانكح النساء فاتق الله يا عثمان فان لاهلك عليك حقا

وان لضيفك عليك حقا وان لنفسك عليك حقا فصم وافطر وصل ونم ولما بلغه عن زينب بنت جحش أنها تصلى الليل كله حتى جعلت حبلا بين ساريتين اذافترت تعلقت به أنكر ذلك وأمر بحله السابع أن الله أثنى عليهم بأنهم كانت تتجافى وتقلق عنها حتى يقوموا الى الصلاة ولهذا جازاهم عن هذا التجافى الذى سببه قلق القلب واضطرابه حتى يقوم الى الصلاة بقرة الأعين الثامن أن الصحابة الذين هم أول وأولى من دخل فى هذه الآية لم يهجعوا منها عدم نومهم بالليل أصلا فروى يحيى بن سعد عن سعيد عن قتادة عن أنس فى قوله كانوا قليلا من الليل ما يهجعون قال كانوا يصلون ما بين المغرب والعشاء التاسع أن فى هذا التقرير تفكيكا للكلام وتقديما لمعمول العامل المنفى عليه لانك تجعل قليلا مفعول يهجعون وهو منفى والبصريون لا يجيزون ذلك وان أجازه الكوفيون وفصل بعضهم فأجازه فى الظرف ولم يجزه فى غيره

﴿ فصل ﴾ وقيل ما زائدة وخبر كان يهجعون وقليلا منصوب اما على المصدرية أى هجوعا قليلا واما على الظرف أى زمنا قليلا واستشكل هذا بأن نوم نصف الليل وقيام ثلثه ثم نوم سدسه أحب القيام الى الله فيكون وقت الهجوع اكثر من وقت القيام فكيف يثنى عليهم بما الافضل خلافه وأجيب عن ذلك بأن من قام هذا القيام فزمن هجوعه أقل من زمن يقظته قطعا فانه مستيقظ من المغرب الى العشاء ومن الفجر الى طلوع الشمس فيبقى ما بين العشاء الى طلوع الفجر فيقومون نصف ذلك الوقت فيكون زمن الهجوع أقل من زمن الاستيقاظ وقيل ما مصدرية وهى فى موضع رفع بقليل أى كانوا قليلا هجوعهم وهو قول الحسن وقيل انها موصولة بمعنى الذى والعائد محذوف أى قليل من الليل الوقت الذى يهجعون وفيه تكلف وقيل ما يهجعون بدل اشتمال من اسم كان والتقدير كان هجوعهم من الليل قليلا ويرد عليه أن من الليل متعلق بيهجعون ومعمول المصدر لا يتقدم عليه وأجيب عنه بأنه منصوب على التفسير ومعناه أن يقدر له فعل محذوف ينصبه مفسره هذا المذكور وقليلا خبر كان وتم الكلام بذلك والمعنى كانوا صنفا أو جنسا قليلا ثم قال من الليل ما يهجعون واصحاب هذا القول يجعلون ما نافية وتعود الكلام الى نفى هجوعهم شيئا من الليل وقد تقدم ما فيه ثم اخبر عنهم بأنهم مع صلاتهم بالليل كانوا يستغفرون الله عند السحر فختموا صلاتهم بالاستغفار والتوبة فباتوا لربهم سجدا وقياما ثم تابوا اليه واستغفروه عقيب ذلك وكان النبى صلى الله عليه وسلم اذا سلم من صلاته استغفر ثلاثا وأمره الله سبحانه أن يختم عمره بالاستغفار وأمر عباده ان يختموا افاضتهم من عرفات بالاستغفار وشرع صلى الله عليه وسلم للمتوضئ أن يختم وضوءه بالتوبة فأحسن ما ختمت به الاعمال التوبة والاستغفار ثم اخبر سبحانه عن احسانهم الى الخلق مع اخلاصهم لربهم فجمع لهم بين الاخلاص والاحسان ضد الذين هم يراؤن ويمنعون الماعون وأكد اخلاصهم فى هذا الاحسان بأن مصرفه للسائل والمحروم الذى لا يقصد باعطائه الجزاء منه ولا الشكور والمحروم المتعفف الذى لا يسأل وتأمل حكمة الرب تعالى فى كونه حرمه بقضائه وشرع لاصحاب الجدة اعطاءه وهو أغنى الاغنياء واجود الاجودين فلم يجمع عليه بين الحرمان بالقدر وبالشرع

شرح عطاءه بأمره وحرمه بقدرته فلم يجمع عليه حرمانين

﴿ فصل ﴾ ثم ذكرهم سبحانه بآياته الافقية والنفسية فقال وفى الارض آيات للموقنين وفى أنفسكم أفلا تبصرون فآيات الارض انواع كثيرة منها خلقها وحدوثها بعد عدمها وشواهد الحدوث والافتقار الى الصانع عليها لا تجحد فانها شواهد قائمة بها ومنها بروز هذا الجانب فيها من الماء مع كون مقتضى الطبيعة ان يكون مغمورا به ومنها سعتها وكبر خلقها ومنها تسطيحها كما قال تعالى والى الارض كيف سطحت ولا ينافى ذلك كونها كثيرة فهى كرة فى الحقيقة لها سطح يستقر عليه الحيوان ومنها انه جعلها فراشا لتكون مقر الحيوان ومساكنه وجعلها قرارا وجعلها مهادا وجعلها ذلولا توطأ بها الاقدام وتضرب بالمعاول والفوس وتحمل على ظهرها الابنية الثقال فهى ذلول مسخرة لما يريد العبد منها وجعلها بساطا وجعلها كفاتا للاحياء تضمهم على ظهرها والاموات تضمهم فى بطنها وطحاها فمدها وبسطها ووسعها ودحاها فهيئها لما يراد منها بأن اخرج منها ماءها ومرعاها وشق فيها الانهار وجعل فيها السبل والفجاج ومنه بجعلها مهادا وفراشا على حكمته جعلها الله ساكنة وذلك آية اخرى اذلا دعامة تحتها تمسكها ولا علاقة فوقها ولكنها لما كانت على وجه الماء كانت تكفأ فيه تكفأ السفينة فاقتضت العناية الازلية والحكمة الالهية ان وضع عليها رواسى يثبتها بها كالتاكيد ولتستقر عليها الانام وجعلها ذلولا على الحكمة فى أن لم تكن فى غاية الصلابة والشدة كالحديد فيمتنع حفرها وشقها والبناء فيها والغرس والزرع وبعث النوم عليها والمشى فيها وتيسره بكونها قرارا على الحكمة فى أنها لم تختلف فى غاية اللين والرخاوة والدماثة فلا تمسك بناء ولا يستقر عليها الحيوان ولا الاجسام الثقيلة بل جعلها بين الصلابة والدماثة وأشرف الجواهر عند الانسان الذهب والفضة والياقوت والزمرد فلو كانت الارض من هذه الجواهر لفاتت مصالح العباد والحيوان منها وتعطلت المنافع المقصودة منها وبهذا يعلم ان جواهر التراب أشرف من هذه الجواهر وأنفع وابرك وان كانت تلك اعلى وأعز فغلاؤها وعزتها لقلتها والافالتراب انفع منها وأبرك وأنفس وكذلك لم يجعلها شفافة فان الجسم الشفاف لا يستقر عليه النور وما كان كذلك لم يقبل السخونة فيبقى فى غاية البرد فلا يستقر عليه الحيوان ولا يتأتى فيه النبات وكذلك لم يجعلها صقيلة براقة لئلا يحترق عليها بسبب انعكاس اشعة الشمس كما يشاهد من احتراق القطن ونحوه عند انعكاس شعاع الجسم الصقيل الشفاف فاقتضت حكمته سبحانه ان جعلها كثيفة غبراء فصلحت ان تكون مستقرا للحيوان والانام والنبات ولما كان الحيوان الهوى لا يمكنه ان يعيش فى الماء كالحيوان المائى ابرزله جانبها كما تقدم وجعله على أوفق الهيئات لمصالحه وانشأ منها طعامه وقوته وكذلك خلق منها النوع الانسانى وأعاده اليها ويخرجه منها

﴿ فصل ﴾ ومن آياتها أن جعلها مختلفة الاجناس والصفات والمنافع مع أنها قطع متجاورات متلاصقة فهذه سهلة وهذه حزنة تجاورها وتلاصقها وهذه طيبة تنبت وتلاصقها أرض لا تنبت وهذه تربة وتلاصقها رمال وهذه صلبة ويلاصقها ويليها رخوة وهذه سوداء ويليها أرض بيضاء وهذه حصى كلها ويجاورها أرض لا يوجد فيها حجر وهذه تصلح لنبات كذا وكذا وهذه لا تصلح له

بل تصلح لغيره وهذه سبخة مالحة وهذه بضدها وهذه ليس فيها جبل ولا معلم وهذه مسجرة بالجبال وهذه لا تصلح الا على المطر وهذه لا ينفعها المطر بل لا تصلح الا على سقى الانهار فيمطر الله سبحانه الارض البعيدة ويسوق الماء اليها على وجه الارض فلو سألتها من نوعها هذا التنوع ومن فرق اجزاءها هذا التفريق ومن خصص كل قطعة منها بما خصها به ومن ألقى عليها رواسيها وفتح فيها السبل وأخرج منها الماء والمرعى ومن امسكها عن الزوال ومن بارك فيها وقدر فيها اقواتها وأنشأ منها حيوانها ونباتها ومن وضع فيها معادنها وجواهرها ومنافعها ومن هيأها مسكنا ومستقرا للانام ومن يبدأ الخلق منها ثم يعيده اليها ثم يخرجه منها ومن جعلها ذلولا غير مستصعبة ولا ممتلعة ومن وطأ مناكبها وذلل مسالكها ووسع مخارجها وشق انهارها وانبت اشجارها واخرج ثمارها ومن صدعها عن النبات واودع فيها جميع الاقوات ومن بسطها وفرشها ومهدها وذللها وطحاها ودحاها وجعل ماعليها زينة لها ومن الذي يمسكها ان تحرك فتزازل فيسقط ماعليها من بناء ومعلم او يخسفها بمن عليها فاذا هي تمور ومن الذي انشأ منها النوع الانساني الذي هو أبدع المخلوقات وأحسن المصنوعات بل انشأ منها آدم ونوحا وابراهيم وموسى وعيسى ومحمدا صلى الله عليه وسلم وعليهم اجمعين وأنشأ منها اولياءه واحباءه وعباده الصالحين ومن جعلها حافظة لما استودع فيها من المياه والارزاق والمعادن والحيوان ومن جعل بينها وبين الشمس والقمر هذا القدر من المسافة ولو زادت على ذلك لضعف تأثرها بحرارة الشمس ونور القمر فتعطلت المنفعة الواصلة الى الحيوان والنبات بسبب ذلك ولو زادت في القرب لاشتدت الحرارة والسخونة كما نشاهده في الصيف فاحترقت أبدان الحيوان والنبات وبالجملة فكانت تفوت هذه الحكمة التي بها انتظام العالم ومن الذي جعل فيها الجنات والحدائق والعيون ومن الذي جعل باطنها بيوتا للاموات وظاهرها بيوتا للاحياء ومن الذي يحييها بعد موتها فينزل عليها الماء من السماء ثم يرسل عليها الريح ويطلع عليها الشمس فتأخذ في الحبل فاذا كانت وقت الولادة مخضت الوضع واهتزت وأنبتت من كل زوج بهيج فسبحان من جعل السماء كالاب والارض كالام والقطر كالماء الذي ينعقد منه الولد فاذا حصل الحب في الارض ووقع عليه الماء اثرت نداوة الطين فيه وأعانتها السخونة المختفية في باطن الارض فوصلت النداوة والحرارة الى باطن الحبة فانسعت الحبة وربت وانتفخت وانفلقت عن ساقين ساق من فوقها وهو الشجرة وساق من تحتها وهو العرق ثم عظم ذلك الولد حتى لم يبق لابيه نسبة اليه ثم وضع من الاولاد بعدد أبيه آلافا مؤلفة كل ذلك صنع الرب الحكيم في حبة واحدة لعلها تبلغ في الصغر الى الغاية وذلك من البركة التي وضعها الله سبحانه في هذه الام فيالها من آية تكفي وحدها في الدلالة على وجود الخالق وصفات كماله وافعاله وعلى صدق رسله فيما أخبروا به عنه باخراج من في القبور ليوم البعث والنشور فتأمل اجتماع هذه العناصر الاربعة وتجاورها وامتزاجها وحاجة بعضها الى بعض وانفعال بعضها عن بعض وتأثيره فيه وتأثره به بحيث لا يمكنه الامتناع من التأثر والانفعال ولا يستقل الآخر بالتأثير ولا يستغني عن صاحبه وفي ذلك أظهر دلالة على انها مخلوقة مصنوعة مربوبة مدبرة حادثة بعد عدمها فقيرة الى موجد غني عنها مؤثر غير متأثر قديم غير حادث تنقاد المخلوقات كلها لقدرته وتجيب داعي مشيئته

وتلي داعي وحدانيته وربوبيته وتشهد بعلمه وحكمته وتدعو عباده الى ذكره وشكره وطاعته وعبوديته ومحبته وتحذرهم من بأسه ونقمته وتحثهم على المبادرة الى رضوانه وجنته فانظر الى الماء والارض كيف لما أراد الرب تعالى امتزاجهما وزدواجهما انشأ الرياح فحركت الماء وساقته الى ان قذفته في عمق الارض ثم أنشأ لها حرارة لطيفة سماوية وحصل بها الانبات ثم انشأ لها حرارة أخرى اقوى منها حصل بها الا نفتاح وكانت حالته الاولى تضعف عن الحرارة الثانية فادخرت الى وقت قوته وصلابته فحرارة الربيع للاخراج وحرارة الصيف للانضاج هذا وان الام واحدة والاب واحد واللقاح واحد والاولاد في غاية التباين والتنوع كما قال تعالى وفي الارض قطع متجاورات وجنات من اعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الاكل ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون فهذا بعض آيات الارض ومن الآيات التي فيها وقائعه سبحانه التي اوقعها بالامم المكذبين لرسلهم المخالفين لامره وأبقى آثارهم دالة عليهم كما قال تعالى وعادا وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم وقال في قوم لوط وانكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون وقال فأخذتهم الصيحة مشرقين فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل ان في ذلك لآيات للمتوسمين وانها لبسبيل مقيم اي بطريق ثابت لايزول عن حاله قال وان كان اصحاب الايكة لظالمين فانتقمنا منهم وانهما لبامام مبين اي ديار هاتين الامتين لبطريق واضح يمر به السالكون وقال تعالى وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وقال عن قوم عاد فأصبحوا لايرى الامساكنهم وقال ألم يهد لهم كم اهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم فأي دلالة رجل يخرج وحده لاعدة له ولاعدد ولامال فيدعو الامة العظيمة الى توحيد الله والايمان به وطاعته ويحذرهم من بأسه ونقمته فتتفق كلمتهم او اكثرهم على تكذيبه ومعاداته فتذكرهم انواع العقوبات الخارجة عن قدرة البشر فتفرق المكذبين كلهم تارة ويخسف بغيرهم الارض تارة ويهلك آخرين بالريح وآخرين بالصيحة وآخرين بالمسخ وآخرين بالحجارة وآخرين بظلة من النار من فوقهم وآخرين بالصواعق وآخرين بأنواع العقوبات وينجو داعيهم ومن معه والهالكون اضعاف اضعاف اضعافهم عددا وقوة ومنعة واموالا

فيالك من آيات حق لو اهتدى * بهن مريد الحق لكن هواديا
ولكن على تلك القلوب أكنة * فليست وان أصغت تجيب المناديا

فهل امتنعوا ان كانوا على الحق وهم اكثرهم عددا واقوى شوكة بقوتهم وعددهم من بأسه وسلطانه وهلا اعتصموا من عقوبته كما اعتصم من هو أضعف منهم من اتباع الرسل ومن الآيات التي في الارض مايحدثه الله فيها كل وقت مما يصدق رسله فيما اخبرت به فلا نزال آيات الرسل واعلام صدقهم وأدلة نبوتهم يحدثها الله سبحانه وتعالى في الارض اقامة للحجة على من لم يشاهد تلك الآيات التي قاربت عصر الرسل حتى كأن اهل كل قرن يشاهدون مايشاهده الاولون أو نظيره كما قال سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق وهذه الارادة لاتختص بقرن دون قرن بل لابد ما يرى الله سبحانه اهل كل قرن من الآيات مايبين لهم انه الله الذي

لا اله الا هو وان رسله صادقون وآيات الارض اعظم مما ذكروا كثر تنبه باليسير منها على الكثير

﴿ فصل ﴾ ثم قال وفي أنفسكم أفلا تبصرون لما كان أقرب الاشياء الى الانسان نفسه دعاه خالقه وباريه ومصوره وفاطره من قطرة ماء الى التبصر والتفكر في نفسه فاذا تفكر الانسان في نفسه استنارت آيات الربوبية وسطعت له انوار اليقين واضمحلت عنه غمرات الشك والريب وانقشعت عنه ظلمات الجهل فانه اذا نظر في نفسه وجد آثار التدبير فيه قائمات وأدلة التوحيد على ربه ناطقات شاهدة لمدبره دالة عليه مرشدة اليها اذ يجده مكونا من قطرة ماء لحوما منضدة وعظاما مركبة واوصالا متعددة مأسورة مشددة بحبال العروق والاعصاب قدقطت وشدت وجمعت بجلد متين مشتمل على ثلاث مائة وستين مفصلا ما بين كبير وصغير وثخين ودقيق ومستطيل ومستدير ومستقيم ومنحن وشدت هذه الاوصال بثلاثمائة وستين عرقا للاتصال والانفصال والقبض والبسط والمد والضم والصنائع والكتابة وجعل فيه تسعة أبواب فبابان للسمع وبابان للبصر وبابان للشم وباب للكلام والطعام والشراب والتنفس وبابان لخروج الفضلات الذي يؤذي احتباسها وجعل داخل بابي السمع مرا قاتلا لئلا يلج فيهما دابة تخلص الى الدماغ فتؤذيه وجعل داخل بابي البصر مالحا لئلا تذيب الحرارة الدائمة ما هنالك من الشحم وجعل داخل باب الطعام والشراب حلوا ليسيغ به ما يأكله ويشربه فلا يتنغص به لو كان مرا أو مالحا وجعل له مصباحين من نور كالسراج المضيء مركبين في أعلى مكان منه وفي أشرف عضو من اعضائه طليعة له وركب هذا النور في جزء صغير جدا يبصر به السماء والارض وما بينهما وغشاوة بسبع طبقات وثلاث رطوبات بعضها فوق بعض حماية له وصيانة وحراسة وجعل على محله غلقا بمصراعين اعلاو اسفل وركب في ذيل المصراعين اهدابا من الشعر وقاية للعين وزينة وجمالا وجعل طرف فوق ذلك كله حاجبين من الشعر يحجبان العين من العرق النازل ويلتقيان عنها ما ينصب من هناك وجعل سبحانه لكل طبقة من طبقة العين شغلا مخصوصا ولكل واحد من الرطوبات مقدارا مخصوصا لو زاد على ذلك أو نقص منه لاختلت المنافع والمصالح المطلوبة وجعل هذا النور الباصر في قدر عدسة ثم أظهر في تلك العدسة صورة السماء والارض والشمس والقمر والنجوم والجبال والعالم العلوي والسفلي مع اتساع اطرافه وتباعد اقطاره واقتضت حكمته سبحانه ان جعل فيهما بياضا وسوادا وجعل القوة الباصرة في السواد وجعل البياض مستقرا لها ومسكنا وزين كلا منهما بالآخر وجعل الحدقة مصونة بالاجفان والحواجب كما تقدم والحواجب بالاهداب وجعلها سودا اذ لو كانت بيضا لتفرق النور الباصر فضعف الادراك فان السواد يجمع البصر ويمنع من تفرق النور الباصر وخلق سبحانه لتحريك الحدق وتقليبها اربعا وعشرين عضلة لو نقصت عضلة واحدة لاختل أمر العين ولما كانت العين كالمرآة التي انما تنطبع فيها الصور اذا كانت في غاية الصقالة والصفاء جعل سبحانه هذه الاجفان متحركة جدا بالطبع الى الانطباق من غير تكلف لتبقى هذه المرآة نقية صافية من جميع الكدورات ولهذا لما لم يخلق لعين الذبابة اجفانا لا تزال تراها تنظف عينها بيدها من آثار الغبار والكدورات

﴿ فصل ﴾ وكما جعل سبحانه العينين مؤديتين للقلب ما يريانه فيوصلانه اليه كما تراه جعلهما

مرآتين للقلب يظهر فيهما ماهو مودع فيه من الحب والبغض والخير والشر والبلادة والفطنة والزيغ والاستقامة فيستدل باحوال العين على أحوال القلب وهو أحد انواع الفراسة الثلاثة وهي فراسة العين وفراسة الاذن وفراسة القلب فالعين مرآة للقلب وطليعة ورسول ومن عجيب أمرها انها من الطف الاعضاء وابعدها تأثرا بالحر والبرد على أن الدهن على صلابتها وغلظها ليتأثر بهما اكثر من تأثر العين على لطافتها وليس ذلك بسبب الغطاء الذي عليها من الاجفان فانها ولو كانت منفتحة لم تتأثر بذلك تأثر الاعضاء اللطيفة

﴿ فصل ﴾ ومن ذلك الاذنان شقهما تبارك وتعالى في جانبي الوجه واودعهما من الرطوبة مايكون معينا على ادراك السمع واودعهما القوة السمعية وجعل سبحانه في هذه الصدفة انحرافات واعوجاجات لتطول المسافة قليلا فلا يصل الهواء الا بعد انكسار حدته فلا يصدمها وهلة واحدة فيؤذيها وايضا قليلا يفجأها الداخل اليها من الدبيب والحشرات بل اذا دخل الى عوجة من تلك الانعطافات وقف هناك فسهل اخراجه وكانت العينان في وسط الوجه والاذنان في جانبيه لان العينين محل الملاحة والزينة والجمال وهما بمنزلة النور الذي يمشي بين يدي الانسان وايضا فكان جعلهما في الجانبين لكون ادراكهما لما خلف الانسان وامامه وعن يمينه وعن شماله سواء فتتأتى المسموعات اليهما على نسبة واحدة وخلقت العينان بغطاء والاذنان بغير غطاء وهذا في غاية الحكمة اذ لو كان للاذنين غطاء لمنع الغطاء ادراك الصوت فلا يحصل الابعد ارتفاع الغطاء والصوت عرض لا ثبات له فكان يزول قبل كشف الغطاء بخلاف ماتراه العين فانه اجسام واعراض لا تزول فيما بين كشف الغطاء وفتح العين وجعل سبحانه الاذن عضوا غضرا وفيا ليس بلحم مسترخ ولا عظم صلب بل هي بين الصلابة واللين فتقبل بلينها وتحفظ بصلابتها ولا تنصدع انصداع العظام ولا تتأثر بالحر والبرد والشمس والسموم تأثر اللحم اذ المصلحة في بروزها لتتلقى مايرد عليها من الاصوات والاخبار

﴿ فصل ﴾ ومن ذلك الانف نصبه سبحانه في وسط الوجه قائما معتدلا في احسن شكل وأوفقه للمنفعة وأودعه حاسة الشم التي يدرك بها الارائح وأنواعها وكيفياتها ومنافعها ومضارها ويستدل بها على مضار الاغذية والادوية ومنافعها وايضا فانه ينشق بالمنخرين الهواء البارد الرطب فيؤديه الى القلب فيتروح به فيستغني بذلك عن فتح الفم أبدا وجعل تجويفه بقدر الحاجة فلم يوسعه عن ذلك فيدخله هواء كثير ولم يضيقه فلا يدخله من الهواء مايكفيه وجعل ذلك التجويف مستطيلا لينحصر فيه الهواء وينكسر برده وحدته قبل ان يصل الى الدماغ فلولا ذلك لصدمه بحدته وقوته والهواء الذي يستنشقه الانف ينقسم شطرين شطرا يصعد الى الدماغ وشطرا ينزل الى الرئة وهو اكثر من آلات النطق فان له اعانة على تقطيع الحروف وكما أن تجويفه جعل لاستنشاق الهواء فانه جعل مصبا لفضلات الدماغ تنحدر منه في تلك القصبة فيخرج فيستريح الدماغ ولذلك جعل عليها سترا ولم يجعلها بارزة فتستقبحها العيون وجعل فيها تجويفا فانه قد ينسد احدهما اويعرض له آفة تمنعه من الادراك والاستنشاق فيبقى التجويف الثاني نائبا عنه يعمل عمله كما اقتضت

الحكمة مثل ذلك فى العينين ثم تأمل الهواء الذى يستنشقه هناك الانف كيف يدخل اولا من المنخرين وينكسر برده هناك ثم يصل الى الحلق فيعتدل مزاجه هناك ثم يصل الى الرئة الطف مايكون ثم تبعثه الرئة الى القلب فيروح عن الحرارة الغريزية التى فيه ثم ينفذ من القلب الى العروق المتحركة ويبلغ الى أقاصى اطراف البدن ثم اذا سخن فى الباطن وخرج عن حد الانتفاع من تلك الاقاصى الى البدن ثم الى الرئة ثم الحلقوم ثم الى المنخرين خارجا فيخرج منهما ويعود عوضه هواء بارد نافع والنفس الواحد من انفاس العبد اغايتم بمجموع هذه الامور والقوى والافعال وهو فى اليوم والليلة أربعة وعشرون الف نفس فلله فى كل نفس عدة نعم قد وقف على القليل منها فاظنك بما وراء التنفس من الاعضاء والقوى ومنافعها وتمام النعمة بها

﴿ فصل ﴾ واما الفم فمحل العجائب وباب الطعام والشراب والنفس والكلام ومسكن اللسان الناطق الذى هو آلة العلوم وترجمان القلب ورسوله المؤدى عنه ولما كان القلب ملك البدن ومعدن الحرارة الغريزية فاذا دخل الهواء البارد وصل اليه فاعتدلت حرارته وبقى هنالك ساعة فسخن واحترق فاحتاج القلب الى دفعه واخراجه فجعل أحكم الحاكين اخراجه سببا لحدوث الصوت فى الحنجرة والحنك واللسان والشفتين والاسنان مقاطع ومخارج مختلفة بسبب اختلافها تميزت الحروف بعضها عن بعض ثم ألهم العبد تركيب تلك الحروف ليؤدى بها عن القلب مايأمر به فتأمل الحكمة الباهرة حيث لم يضع سبحانه ذلك النفس المستغنى المحتاج الى دفعه واخراجه بل جعل فيه اذا استغنى عنه منفعة ومصلحة هى من اكمل المنافع والمصالح فان المقصود الاصلى من النفس هو اتصال النسيم البارد الى القلب فاما اخراج النفس فهو جار مجرى دفع الفضلة الفاسدة فصرف ذلك سبحانه الى رعاية تصلحه ومنفعة اخرى فجعله سببا للاصوات والحروف والكلام ثم انه سبحانه جعل الحناجر مختلفة الاشكال فى الضيق والسعة والخشونة والملاسة لتختلف الاصوات باختلافها فلا يتشابه صوتان كما لا تتشابه صورتان وهذا من أظهر الادلة فان هذا الاختلاف الذى بين الصور والاصوات على كثرتها وتعددها فقل مايشتبه صوتان أو صورتان ليس فى الطبيعة مايقتضيه وانما هو صنع الله الذى أتقن كل شئ وأحسن كل شئ خلقه فتبارك الله رب العالمين وأحسن الخالقين فميز سبحانه بين الاشخاص بما يدركه السمع والبصر

﴿ فصل ﴾ وأودع اللسان من المنافع منفعة الكلام وهى أعظمها ومنفعة الذوق والادراك وجعله دليلا على اعتدال مزاج القلب وانحرافه كما جعله دليلا على استقامته واعوجاجه فترى الطبيب يستدل بما يبدو للبصر على اللسان من الخشونة والملاسة والبياض والحمرة والتشقق وغيره على حال القلب والمزاج وهو دليل قوى على احوال المعدة والامعاء كما يستدل السامع بما يبدو عليه من الكلام على مافى القلب فيدوعليه صحة القلب وفساده معنى وصورة

﴿ فصل ﴾ وجعل سبحانه اللسان عضوا لحما لاعظم فيه ولاعصب لتسهل حركته ولهذا لا تجد فى الاعضاء من لا يكترث بكثرة الحركة سواه فانه أى عضو من الاعضاء حركته كما تحرك اللسان لم يعطك لذلك ولم يلبث ان يكل ويخلو الى السكون الا اللسان وأيضا فانه من أعدل الاعضاء وألطفها وهو فى الاعضاء بمنزلة رسول الملك ونائبه فزاجه من أعدل أمزجة البدن

ويحتاج الى قبض وبسط وحركة في اقاصي الفم وجوانبه فلوكان فيه عظام لم يتهيأ منه ذلك ولم يتهيأ منه الكلام التام ولا الذوق التام فكونه كما اقتضاه السبب الفاعلي والغائي والله أعلم

﴿ فصل ﴾ وجعل سبحانه على اللسان غلقين أحدهما الاسنان والثاني الفم وجعل حركته اختيارية وجعل على العين غطاء واحدا ولم يجعل على الاذن غطاء وذلك لخطر اللسان وشرفه وخطر حركاته وكونه في الفم بمنزلة القلب في الصدر وذلك من اللطائف ان آفة الكلام اكثر من آفة النظر وآفة النظر اكثر من آفة السمع فجعل للاكثر آفات طبقتين وللمتوسط طبقا وجعل للاقل آفة بلا طبق

﴿ فصل ﴾ وجعل سبحانه الفم اكثر الاعضاء رطوبة والريق يتحلل اليه دائما لا يفارقه وجعله حلوا لا مالحا كماء العين ولا مرا كالذي في الاذن والاعفنا كالذي في الانف بل هو اعذب مياه البدن واحلاها حكمة بالغة فان الطعام والشراب يخالطه بل هو الذي يحيل الطعام ويمتزج به امتزاج العجين بالماء فلولا انه حلو لما التذ الانسان بل والحيوان بطعام ولا شراب ولا ساغه الاعلى كره وتنغيص ولما كان كثير من الطعام لا يمكن حيله الا بعد طحنه جعل الرب تعالى له آلة لتقطيع والتفصيل وآلة للطحن فجعل آلة القطع وهي الثنايا وما يليها حادة الرؤس ليسهل بها القطع وجعل النواجذ وما يليها من الاضراس مسطحة الرؤس عريضة ليتأتى بها الطحن ونظمها أحسن نظامة كاللؤلؤ المنظم في سلك وجعلها من الجانب الاعلى والاسفل ليتأتى بها القطع والطحن وجعلها من الجانب الايمن والايسر اذ ربما كانت احدى الآلتين أو تعطلت او عرض لها عارض فينتقل الى الآلة الاخرى وايضا لوكان العمل على جانب واحد دائما أوشك أن يتعطل ويضعف وتأمل كيف أنبتها سبحانه من نفس اللحم وتخرج من خلاله نابتة كما ينبت الزرع في الارض ولم يكسها سبحانه لحما كسائر العظام سواها اذلو كساها اللحم لتعطلت المنفعة المقصودة ولما كانت العظام محتاجة الى لحم يكسوها ويحفظها ويلتقي عنها الحرارة والبرد ويحفظ عليها رطوبتها لم تكمل مصلحة الحيوان الا بهذه الكسوة ولما كانت عظام الانسان محتاجة الى ذلك من وجه مستغنية عنه من وجه جعلت كسوتها منفصلة عنها وجعلت هي المكتسية العارية لتمام المنفعة بذلك ولما كانت آلة القطع والكسر والطحن لم تنشأ مع الطفل من اول نشأة كسائر عظامه لعدم حاجته اليها فعطل عنها وقت استغنائه عنها بالرضاع واعطيها وقت حاجته اليها وفيه حكمة أخرى وهي أنه لو نشأت معه من حين يولد لاضرت بحلمة الثدي اذ لا عقل له يحرزه من عضها فكانت الام تمتنع من رضاعه ومن عجيب أمرها الاتفاق والموالاة التي بينها وبين المعدة فانه يسلم اليها الشيء اليابس والصلب فتطحنه ثم تسلمه الى اللسان فيعجنه ثم يسلمه الى الحلق فيوصله الى المعدة فتنضجه وتطبخه ثم يرسل اليها منه معلومها المقدر لها فاذا عجزت عن قطع شيء وطحنه عجزت المعدة عن انضاجه وطبخه واذا اكلت الاسنان كلت المعدة واذا ضعفت ضعفت وهي تصحب الانسان وتخدمه مالم يرها فاذا وقعت عينه عليها فارقته الابد وهي سلاح ومنشار وسكين وروح وزينة وفيها منافع ومصالح غير هذه

﴿ فصل ﴾ ثم تأمل حال الشعر ومنبته وسببه فان البدن لما كان حارا رطبا والحرارة اذا عملت في الرطوبة فلابد أن تثير بخارا وتلك الابخرة تتصاعد من عمق البدن الى سطحه ويتزايد

الانفصال من هناك فلابد أن يحدث مساماومنافذ في ظاهر الجلد وتلك الابخرة اما أن تكون رطبة لطيفة فحينئذ تنفصل من المسام ولا تحدث شيأ واما أن تكون دخانية يابسة غليظة فالجلد حينئذ اما أن يكون في نهاية النعومة والنضارة كجلد الصبيان أو في غاية اليبس والقشف أو يكون معتدلا فاذ ذاك لايتولد فيه الشعر لان البخار اذا شق سطح الجلد وانفصل عاد الجلد في الحال الى اتصاله الاول بسبب كثرة رطوبته ونعومته مثاله السمك اذا رفع رأسه من الماء انشق له الماء فاذا عاد الى الماء عاد الماء الى اتصاله الاول وكذلك نشاهد الاشياء الرطبة كالنشاء مثلا اذا أغلى فخرج البخار من موضع الغليان عادت الرطوبة الى الموضع الذي خرج منه ذلك البخار فسدته فان كان الجلد في غاية اليبس لم يتولد الشعر لان الجلد اليابس اذا انثقب بقيت تلك الثقب مفتوحة ليبس الجلد فيفرق أجزاء البخار ولا يجتمع بعضه الى بعض فان الجلد متوسط بين النعومة والكثافة فانه ينفخ فيه المسام بسبب تلك الابخرة ولايعود يفسد بعد خروج البخار ولكن لاتبقى المسام شديدة الانفتاح حينئذ يبقى ذلك البخار الدخاني في تلك الثقبة لايزال يمده بخار آخر يدفعه أولا فأولا الى خارج من غير ان ينقطع اصله فيبقى بعضه مركوزا في الجلد منزلته اصل النبات وبعضه يطلع الى خارج منزلته منزلة ساق النبات وكذلك هو الشعر فمادته الشعر هو البخار الدخاني اليابس وسببه هو الحرارة الطبيعية المحرقة لذلك البخار والآلة التي بها يتم امره هي المسام التي ارتكب فيها البخار فتلبد هناك فصار شعرا باذن الله تعالى والغاية التي لاجلها وجد شيئان احدهما عام وهو تنقية البدن من الفضول الدخانية الغليظة والآخر خاص وهواما للزينة واما للوقاية واذا بان الشعر انما يتولد مع الحرارة واليبس المعتدل بقيت ثلاثة اقسام احدها حرارة غالبة على اليبس كالصبيان الثاني عكسه وهو يبس غالب على الحرارة كالمشايخ الثالث حرارة ضعيفة ويبس ضعيف كأبدان النساء ففي هذه الاقسام يقل الشعر واما الشباب فان حرارة ابدانهم ويبسهم معتدل فيقوى تولد الشعر فيهم وفي شعر الرأس منافع ومصالح منها وقايته عن الحر والبرد والمرض ومنها الزينة والحسن السبب الذي صار به شعر الرأس اكثر من شعر البدن ان البخار شأنه ان يصعد من جميع البدن الى الدماغ ومن الدماغ الى فوق وكان هذا الشعر ناميا على الدوام لان البخار يتصاعد الى الراس ابدا وهو مادة الشعر فينهما الشعر بنمو البخار وكان فيه تخليص البدن من تلك المواد وتكثير او قايته وغطائه

❁ فصل ❁ واما شعر الحاجبين ففيه مع الحسن والزينة والجمال وقاية العين فيما ينحدر من الراس وجعل هذا المقدار فلو نقص عنه لزالت منفعة الجمال والوقاية ولو زاد عليه لغطى العين واضر بها وحال بينها وبين ماندركه وقد ذكرنا منفعة شعر الهدب ولما كان الانفع والاصلح ان يكون شعر الهدب قائما منتصبا وان يكون باقيا على حال واحد في مقدار واحد جعل منبت هذا الشعر في جرم صلب شبيه بالغضروف يمتد في طول الجفن لئلا يطول وينمو وهذا كما نشاهد النبات الذي ينبت في الارض الرخوة اللينة كيف يطول ويزداد والذي ينبت في الارض الصخرية الصلبة لاينمو الانمو ايسيرا فكذلك الشعر النابت في الاعضاء اللينة الرطبة فانه سريع النمو كشعر الراس والعانة

(فصل)

﴿ فصل ﴾ وأما شعر اللحية ففيه منافع منها الزينة والوقار والهيبة ولهذا لا يرى على الصبيان والنساء من الهيبة والوقار ما يرى على ذوي اللحى ومنها التمييز بين الرجال والنساء فان قيل لو كان شعر اللحية زينة لكان النساء أولى به من الرجال لحاجتهن الى الزينة وكان التمييز يحصل بخلو الرجال منه ولكان أهل الجنة أولى به وقد ثبت انهم جرد مرد قيل الجواب أن النساء لما كن محل الاستمتاع والتقبيل كان الاحسن والاولى خلوهن عن اللحى فان محل الاستمتاع اذا خلا عن الشعر كان أتم ولهذا المعنى والله أعلم كان اهل الجنة مردا ليكمل استمتاع نسائهم بهم كما يكمل استمتاعهم بهن وأيضا فانه اكشف لمحاسن الوجوه فان الشعر يستر ما تحته من البشرة ان يمس بشرة المرأة والله اعلم بحكمته في خلقه

﴿ فصل ﴾ وأما شعر العانة والابط والانف فمنفعته تنقية البدن من الفضلة ولهذا اذا أزيل من هذا الموضع وجد البدن خفة ونشاطا واذا وفر وجد ثقلا وكسلا وغما ولهذا جاءت الشريعة بحلق العانة ونتف الابط وكان حلق العانة أولى من نتفها لصلابة الشعر وتأذي صاحبها بنتفه وكان نتف الابط أولى من حلقه لضعف الشعر هناك وشدته وتجعله بالحلق فجاءت الشريعة بالانفع في هذا وهذا

﴿ فصل ﴾ وتأمل حكمة الرب تعالى في كونه أخلا الكفين والجبهة والاخمصين من الشعر فان الكفين خلقا حاكين على الملموسات فلو حصل الشعر فيهما لاخل بذلك وخلقا للقبض والصاق المحم على المقبوض اعون على جودته من التصاق الشعر به وايضا فانهما آلة الاخذ والعطاء والاكل ووجود الشعر فيهما يخل بتمام هذه المنفعة وأما الاخمصان فلو نبت الشعر فيهما لاضر الماشي واعاقه في المشي كثيرا عما يعلق شعره مما على الارض ويتعلق شعره بما عليها أيضا هذا مع ان أكثر الاوتار والاغشية في الكفين مانع من نفوذ الابخرة فيها وأما الاخمصين فان الابخرة تتصاعد الى علو وكل ما تصاعد كان الشعر اكثر وأيضا في كثرة وطء الارض بالاخمصين يصلبهما ويجعل سطحهما املس لا ينبت شيئا كما ان الارض التي توطأ كثيرا لا تنبت شيئا واما الجبهة فلو نبت الشعر عليها لستر محاسنها واظلم الوجه وتدلى على العين وكان يحتاج الى حلقه دائما ومنع العينين من كمال الادراك والسبب المؤدي لذلك ان الذي تحت عظم الجبهة هو مقدم الدماغ وهو بارد رطب والبخار لا يتحرك منحرفا الى الجبهة بل صاعدا الى فوق فان قيل لم نبت شعر الصبي على رأسه وحاجبيه واجفانه معه مع الصغر دون سائر الشعور قيل لشدة الحاجة الى هذه الشعور الثلاثة اوجدها الله سبحانه معه وهو جنين في بطن امه فان شعر الرأس كالغطاء الواقي له من الآفات والاهداب والاجفان وقاية للعين فان قيل فلم تنبت له اللحية الا بعد بلوغه قيل لانه عند البلوغ تجتمع الحرارة في بدنه وتكون أقوى ما هي ولهذا يعرض له في مثل هذا الطور البثرات والدمل وكثرة الاحتلام واذا كثرت الحرارة كثرت الابخرة بسبب التحلل وزادت على القدر المحتاج اليه في شعر الرأس فصرفها أحكم الحاكمين الى نبات اللحية والعانة وايضا فان بين أوعية المني وبين اللحية ارتباط اذ العروق والمجاري متصلة بينهما فاذا تعطلت أوعية المني ويبست تعطل شعر اللحية واذا قلت الرطوبة والحرارة هناك قل شعر اللحية ولهذا الخصيان لا ينبت لهم لحى فان قيل فما العلة في الكوسج قيل برد مزاجه

ونقصان حرارته فان قيل فما السبب فى الصلع قيل عدم احتباس الابخرة فى موضع الصلع فان قيل فلم كان فى مقدم الرأس دون جوانبه ومؤخره قيل لان الجزء المقدم من الرأس بسبب رطوبة الدماغ يكون أكثر لينا وتحللا فتحلل الفضلات التى يكون منها الشعر فلا يبقى للشعر مادة هناك فان قيل فلم يحدث فى الاصداغ قيل ان الرطوبة فى الاسفل أكثر منها فى الاعالى وشاهده الارض العالية والمنخفضة فان قيل فلم تصلع المرأة الا نادرا وكان الاصلع فى الرجال أكثر قيل لان الاصل يحدث من يبس فى الجلد بمنزلة احتراقه وذلك لقوة الحرارة والنساء فالرطوبة والبرودة أغلب عليهن ولهذا جلودهن أرطب من جلود الرجال فلا يجف جلود رؤسهن فلا يعرض لهن الصلع ولهذا لا يعرض للصبيان وان عرض لمرأة صلع فذلك فى سن يبسها وبلوغها من الكبر عتيا فان قيل فما السبب فى شدة سواد الشعر قيل شدة الحرارات الخارجة من البدن واعتدالها وصحة مادة كخضرة الزرع فان قيل ما سبب الصهوبة قيل برد المزاج فتضعف الحرارة عن صبغ الشعر وتسويده فان قيل ما سبب الشقرة والحمرة قيل زيادة الحرارة فتصبغ الشعر ولهذا تجد الشقر أشد حرارة وأكثر حركة وهمة فان قيل فما سبب البياض قيل البياض نوعان احدهما طبيعى وهو الشيب والثانى خارج عن الطبيعة وهو ما يوجد فى أواخر الامراض المجففة بسبب تحلل الرطوبات كما يعرض للنبات عند الجفاف فان قيل فما سبب الطبيعى قيل اختلف فى ذلك فقالت طائفة سببه الاستحالة الى لون البلغم بسبب ضعف الحرارة فى أبدان الشيوخ وقالت طائفة سببه ان الغذاء الصائر الى الشعر يصير باردا بسبب نقصان الحرارة ويكون بطئ الحركة مدة تعوذه الى المسام واصطلحت طائفة بين القولين وقالوا العلة فى الامرين واحدة وسببها نقصان الحرارة فان قيل فلم اختص الشيب بالانسان من بين سائر الحيوان قيل لحم الانسان وجلده رخولين وجلود الحيوانات ولحومها أقوى وأصلب فما غلظت مادة الشعر فيها لم يعرض له ما يعرض لشعر الانسان ولهذا يكون شعرها كلها معها من حين ولادتها بخلاف الانسان وأيضا فان الانسان يستعمل المطاعم المركبة المتنوعة وكذا المشارب ويتناول أكثر من حاجته فتجتمع فيه فضلات كثيرة فتدفعها الطبيعة الى ظاهر البدن فادامت الحرارة قوية فانها تقوى على احراق تلك الفضلات فيتولد من احراقها الشعر الاسود فاذا بلغ الشيخوخة ضعفت الحرارة وعجزت عن احراق تلك الفضلات فتعمل فيها عملا ضعيفا وأما سائر الحيوانات فلا تتناول الاغذية المركبة وتتناول منها على قدر الحاجة فلا يشيب شعرها كما يشيب شعر الانسان وأيضا فان فى زمن الشيخوخة يكون أقل حرارة وأكثر رطوبة فيتولد والحيوانات فاليبس غالب عليها فان قيل فلم كان سبب تشييب الاصداغ فى الاكثر مقدما على غيره قيل لقرب هذا الموضع من مقدم الدماغ والرطوبة فى مقدم الدماغ كثيرة لان الموضع مفصل والمفصل تجتمع فيه الفضلة الكثيرة فيكثر البرد هناك فيسرع الشيب فان قيل فلم اسرع الشيب فى شعور الخصيان والنساء فلبرد مزاجهن فى الاصل ولاجتماع الفضلات الكثيرة فيهن وأما الخصيان فلتوافر المنى على أبدانهم يصير دمهم غليظا بلغميا ولهذا لا يحدث لهم الصلع فان قيل فلم كان شعر الابط لا يبيض قيل لقوة حرارة هذا الموضع بسبب قربه من القلب ومنامه كثيرة بلغمية لانها تحلل

بالعرق الدائم فان قيل فلم أبطأ بياض شعر العانة قيل لان حركة الجماع تحلل البلغم الذى فى مسامه فان قيل فلم كانت الحيوانات تتبدل شعورها كل سنة بخلاف الانسان قيل لضعف شعورها عن الدوام والبقاء بخلاف شعر الآدمى فان قيل فما سبب الجعودة والسبوطة قيل اما الجعودة من شدة الحرارة او من التواء المسام فالذى من شدة الحرارة فانه يعرض منه الجعودة كما يعرض الشعر عند عرضه على النار وأما الذى لالتواء المسام فلان البخار يضعفه لايقدران ينفذ على الاستقامة فيلتوى فى المنافذ فحدث الجعودة فان قيل فما السبب فى طول شعر الميت واظفاره بعد موته اذا بقى مدة قيل عنه جوابان أحدهما أنها لاتطول ولكن لما ينقص ماحولها يظن أنها زادت الثانى وهو اصوب أن ذلك الطول من الفضلات البخارية التى تتحلل وهلة من الميت فيتمد معها الشعر والظفر فان قيل فلم كان المريض وخاصة المحموم ينقص لحمه ويزيد شعره قيل ان فى المرض تكثر الفضلات فتكون الشعور والاظفار فيها ويقل الغذاء فيذوب اللحم واما فى الصحة فتقل الفضلات فلا تحتاج الطبيعة الى الغذاء وهضمها له واذا قلت الفضلات نفذت مادة الشعر فيبطئ فان قيل فما العلة فى انتصاب شعر الخائف والقرون حتى يبقى كشعر القنفذ قيل العلة فيه أن الجلد ينقبض وتجتمع المسام على الشعر وتتضايق عليه فينتصب فان قيل فلم انتصب شعر البدن واللحية والصبيان فان قيل فلم كان كثرة الجماع تزيد فى شعر اللحية والجسد وينقص من شعر الرأس والاجفان قيل لان الشعر فيه مايكون طبيعا من اول الخلقة كاللحية وسائر شعر البدن والاول يكون من قوة الحرارة الاصلية والثانى من قوة الحرارة الخارجية فلاجرم نقصت بسببه الشعور الاصلية وقرت العرضية فان قيل فلم كان الشعر فى الانسان فى الجزء المقدم اكثر منه فى المؤخر وباقى الحيوانات بالعكس قيل لان الشعر انما يكون حيث تكون الحرارة قوية ويكون تحلل الجلد اكثر وهذا فى الانسان فى ناحية الصدر والبطن واما جلدة الظهر فكثيفة واما ذوات الاربع ففى الخلف شعورها اكثر لان البخار فيها يرقى الى الخلف وأن تلك المواضع هى التى تلقى الحر والبرد فتحتاج الى وقاء اكثر فان قيل فلم كان الرأس بالشعر احق الاعضاء ونباته اكثر قيل لان البخار يتصاعد ويطلب جهة الفوق وهو الرأس ولانستطل هذا الفصل فان امر الشعر من العجائب والفضلات وهذا شأنه فما الظن بغيره من الاجزاء الاصلية فاذا كانت هذه قليلة من كثير من حكمة الرب تعالى فى الشعور ومواضعها ومنافعها فكيف بحكمته فى الرأس والقلب والكبد والصدر وغيرها ولاتضجر من ذلك فان الخلق فيه من الفقه والحكم نظير مافى الامر فالرب تعالى حكيم فى خلقه وأمره ويجب من يفقه عنه عند ذلك ويستدل على كمال حكمته وعلمه ولطفه وتدبيره فاذا كان لم يضع هذه الفضلات سدى فما الظن بغيرها

﴿ فصل ﴾ ونحن نذكر فصلا مختصرا فى حال الانسان فى مبدئه الى نهايته لنجعله مرآة له ينظر فيها قول خالقه وباريه وفى أنفسكم أفلا تبصرون لما اقتضى كمال الرب تعالى جل جلاله وقدرته التامة وعلمه المحيط ومشيئته النافذة وحكمته البالغة تنويع خلقه من المواد المتباينة وأنشأهم من الصور المختلفة والتباين العظيم بينهم فى المواد والصور والصفات والهيئات والاشكال والطبائع والقوى اقتضت حكمته أن اخذ من الارض قبضة من التراب ثم ألقى عليها

الماء فصارت مثل الحمأ المسنون ثم ارسل عليها الريح فجففها حتى صارت صلصالا كالفخار ثم قدر لها الاعضاء والمنافذ والاوصال والرطوبات وصورها وأبدع فى تصويرها واظهرها فى احسن الاشكال وفصلها أحسن تفصيل مع اتصال أجزائها وهيأ كل جزء منها لما يراد منه وقدره لما خلق له على ابلغ الوجوه ففصلها فى توصلها وابدع فى تصويرها وتشكيلها والملائكة تراها ولا تعرف مايراد منها وابليس يطيف بها ويقول لامر ماخلقت فلما تكمل تصويرها وتشكيلها وتقدير اعضائها واوصالها وصار جسدا مصورا مشكلا كأنه ينطق الا انه لا روح فيه ولا حياة وارسل اليه روحه فنفخ فيه نفخة وانقلب ذلك الطين لحما ودما وعظاما وعروقا وسمعا وبصرا وشما ولمسا وحركة وكلاما فأول شيء بدأ به أن قال الحمد لله رب العالمين فقال له خالقه وبارؤه ومصوره يرحمك الله يا آدم فاستوى جالسا أجمل شيء وأحسنه منظرا وأتمه خلقا وأبدعه صورة فقال الرب تعالى لجميع ملائكته اسجدوا لآدم فبادروا بالسجود تعظيما وطاعة لامر الواحد المعبود ثم قال لهم لنا فى هذه القبضة فى التراب شرع ابدع مما ترون وجمال باطن أحسن مما تبصرون فلنزينن باطنه أحسن من زينة ظاهره ولنجعله من أعظم آياتنا نعلمه أسماء كل شيء مما لا تحسنه الملائكة فكان التعليم زينة الباطن وجماله وذلك التصوير زينة الظاهر فى أكمل شيء وأجله صورة ومعنى كل ذلك صنعته تبارك وتعالى فى قبضة من تراب ثم اشتق منه صورة هى مثله فى الحسن والجمال ليسكن اليها وتقر نفسه وليخرج من بينهما من لا يحصى عدده من الرجال والنساء سواء

﴿ فصل ﴾ ثم لما أراد الله سبحانه أن يذر نسلهما فى الارض ويكثره وضع فيهما حرارة الشهوة ونار الشوق والطلب ألهم كلا منهما اجتماعه بصاحبه فاجتمعا على أمر قد قدر فاسمع الآن عجائب ماهنالك لما شاء الرب تعالى أن يخرج نسخة هذا الانسان منه أودع جسده حرارة وسلط عليه هيجانها فصارت شهوة غالبة فاذا هاجت حرارة الجسد تحللت الرطوبات من جميع أجزاء الجسد وابتدأت نازلة من خلف الدماغ فى عروق خلف الاذنين الى قفا الظهر ثم تخرج الى الكليتين ثم تجتمع فى أوعية المنى بعد أن طبختها نار الشهوة وعقدتها حتى صارلها قوام وغلظ وقصرتها حتى ابيضت وقدر لها مجارى وطرق تنفذ فيها ثم اقتضت حكمته سبحانه ان قدر بخروجها أقوى الاسباب المستفرغة لها من خارج ومن داخل فقيض لها صورة حسناء فى عين الناظر وشوقه اليها وساق أحدهما الى الآخر بسلسلة الشهوة والمحبة فحن كل منهما الى امتزاجه بصاحبه واختلاطه به ليقضى الله أمرا كان مفعولا وجعل هذا محل الحرث وهذا محل البذر وقال أيضا والقدر ليشتمل كلا منه على صاحبه ليتلقى الماآن على أمر قد قدر وقدر بينهما تلك الحركات لتعمل الحرارة فى تلك الرطوبة والفضلة عملها واستخراجها من تحت الشعر والبشر والظفر لتوافق لنسخة الاصل ويكون الداعى الى التناسل فى غاية القوة فلا ينقطع النسل ولهذا لا تجد فى منى الاحتلام من القوة ما فى منى الجماع وانما هو من فضلة حرارة تذيب الرطوبة فتنفذ فيها الطبيعة الى خارج من نوع تصور خيال بواسطة الشيطان كما فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال الرؤيا الصالحة من الله والحلم من الشيطان فان قيل فهذا اختيار منكم لقول من قال ان المنى يخرج من

جميع اجزاء البدن وهذا وان كان قد قاله كثير من الناس فقد خالفهم آخرون وزعموا انه فضلة تتولد من الطعام وهى من اعدل الفضلات ولهذا صلحت ان تكون مبدأ الانسان وهو جسم متشابه الاجزاء فى نفسه قيل القول الاول هو الصواب ويدل عليه وجوه منها عموم اللذة بجميع اجزاء البدن ومنها مشاكلة اعضاء المولود لاعضاء الوالدين ومنها المشابهة الكلية تدل على ان البدن كل ارسل المنى ولولا ذلك لكانت المشابهة بحسب محل واحد فدل ان كل عضو ارسل قسطه ونصيبه فلما انعقد وصلب ظهرت محاكاته ومشابهته له ومنها ان الامر لو كان كما زعمه اصحاب المقالة الثانية من ان المنى جسم واحد متشابه فى نفسه لم تتولد منه الاعضاء المختلفة المتشكلة بالاشكال المختلفة لان القوة الواحدة لا تفعل فى المادة الواحدة الا فعلا واحدا فدل على ان المادة فى نفسها ليست متشابهة الاجزاء ومنها ان المنى فضل الهضم الآخر وذلك انما يكون عند نضج الدم فى العروق وصورته مستعدا استعدادا تاما لان يصير من جوهر الاعضاء وكذلك عقيب استفراغه من الضعف اكثر مما يحصل من استفراغ امثاله من الدم ولذلك يورث الضعف فى جوهر الاعضاء الاصلية فدل على انه مركب من اجزاء كل منهما قريب الاستعداد لان يصير جزء من عضو ولذلك سماه الله سلالة والسلالة فعالة من السل وهو ما يسيل من البدن كالبخار والبخارة كما سمى أصله سلالة من طين لانه استلهسا من جميع الارض كما فى جامع الترمذى حديث عن النبى صلى الله عليه وسلم ان الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الارض قال أصحاب القول الآخر وهم جمهور الاطباء وغيرهم لو كان الامر كما زعمتم وأن المنى يستل من جميع الاعضاء لكان اذا حصل منى الذكر ومنى الانثى فى الرحم تشكل المولود تشكلهما معا ولكان الرجل لا يولد الا ذكرا دائما لان المنى قد استل عندكم من جميع أجزاءه فاذا انعقد وجب ان يكون مثله وايضا فان المرأة تضع من وطء الرجل فى البطن الواحد ذكرا وأنثى ولا يمكن ان يقال ان ذلك بسبب اختلاف أجزاء المنى قالوا ولا نسلم عموم اللذة لانها انما حصلت حال الاندفاق بسبب سيلان تلك المادة الحارة جارية على تلك المجارى العصبية التى لجنتها رخوة شبيهة باللحم القريب العهد بالاندمال اذا سال عليه وهى معتدل السخونة وكانت اللذة انما حصلت بسبب ساكن تلك المادة لحصلت قبل الاندفاق قالوا وما احتجاجكم بالتشابه المذكور بين الوالد والمولود فالمشابهة قد يقع الظفر والشعر ولبس يخرج منهما شىء وأيضا فالمولود قد يشبه جدا بعيدا من أجداده كما ثبت بالصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم ان رجلا سأله فقال ان امرأتى ولدت غلاما أسود قال هل لك من ابل قال نعم قال فما ألوانها قال سود قال هل فيها من أورق قال نعم قال فأنى له ذلك قال عسى ان يكون نزعه عرق قال وهذا عسى ان يكون نزعه عرق قالوا ولو كان فى المنى من كل عضو اجزاء فلا تخلو تلك الاجزاء اما ان تكون موضوعة فى المنى وضعها الواجب أو لا تكون كذلك فان كانت موضوعة وضعها الواجب كان المنى حيوانا صغيرا ولم يكن كذلك استحالة المشابهة قالوا وأيضا فان المنى اما ان يكون مركبا على تركيب هذه الاعضاء وترتيبها أو لا يكون كذلك فالاول باطل قطعا لان المنى رطوبة سيالة فلا تحفظ الموضع والترتيب وان كانت ثقيلة فتعين الثانى ولا بد قطعا ان يحال ذلك الترتيب والتصوير والتشكيل على سبب آخر سوى القوة

التي في المادة فانها قوة بسيطة لاشعور لها ولا ادراك ولا تهتدي لهذه التفاصيل التي في الصورة الانسانية بل هذا التصوير والتشكيل الى خالق عليم حكيم قد بهرت حكمته العقول ودلت آثار صنعته كما اسماؤه وصفاته وتوحيده قد اعترف بذلك فضلاء الاطباء وهما بقراط وافلاطونا واقرا بأن ذلك مستند الى حكمة الصانع وعنايته وأنه لم يصدر الا عن حكيم عليم قديرذ كره جالينوس عنهما في كتاب رأى بقراط وأفلاطون فأبى جهلة الاطباء وزنادقة المتفلسفة والطب الا تعيين الا كفورا وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم من حديث خليفة ابن أسيد ان الله وكل بالرحم ملكا يقول يارب نطفة يارب علقة يارب مضغة فما الرزق فما الاجل فما العمل فيقضي الله مايشاء ويكتب الملك وفي لفظ يقول الملك الذي يخلقها اى يصورها باذن الله اى يصور خلقه في الارحام كيف شاء الله لا اله الا هو العزيز الحكيم فقال أصحاب القول الاول نحن أحق بالتنزيه والتوحيد ومعرفة حكمة الخالق العليم وقدرته وعلمه وأسعد به منكم ومن أحال من سفهائنا وزنادقتنا هذا التخليق على القوة المصورة والاسباب الطبيعة ولم يسندها الى فاعل مختار عالم بكل شيء قادر على كل شيء لا يكون شيء الا باذنه ومشيئته والقوة والطبيعة خلق محض من خلقه وعبد من جملة عبيده ليس لها تصرف ولا حركة ولا فعل الا باذن بارئها وخالقها فذلك الذي جهل نفسه وربه وعادى الطبيعة والشريعة والرب تعالى يخلق مايشاء ويختار ويصور خلقه في الارحام كيف يشاء بأسباب قدرها وحكم دبرها واذا شاء ان يسلب تلك الاسباب قواها سلبها واذا شاء أن يقطع سببها قطعها واذا شاء أن يهيئ لها أسبابا آخر تقاومها وتعارضها فعل فانه الفعال لما يريد وليس في كون المني مستلا من جميع أجزاء البدن مايخرج الحوالة على قدرته ومشيئته وحكمته بل ذلك ابلغ في الحكمة والقدرة وأما قولكم لو كان المني مستلا من جميع الاعضاء لكان الولد يتشكل بشكلهما معا فقد أجاب النبي صلى الله عليه وسلم عمن سأله عن ذلك بأشفى وكفى ففي صحيح البخاري من حديث أنس رضي الله عنه قال بلغ عبد الله بن سلام مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وهو في ارض يخترف فأتاه وقال اني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن الا نبي ما أول أشراط الساعة وما أول طعام يأكله اهل الجنة ومن أي شيء ينزع الولد الى ابيه ومن اى شيء ينزع الى اخواله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبرني بهن آنفا جبريل فقال عبد الله ذاك عدوا ليهود من الملائكة أما أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق الى المغرب وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت وأما الشبه في الولد فان الرجل اذا غشي المرأة فسبق ماؤه كان الشبه لها فقال أشهد انك رسول الله فهذا جواب جبريل أمين رب العالمين لا جبريل الطبيب وفي صحيح مسلم من حديث ثوبان عن النبي صلى الله عليه وسلم اذا علا ماء الرجل ماء المرأة اذكر باذن الله واذا علا ماء المرأة ماء الرجل انث باذن الله وقد يتفق المآن في الانزال والقدر وذلك من اندر الاشياء فيخلق الولد ذكر كذكر الرجل وفرج كفرج المرأة فاذا شاء الله ان يغلب سلالة ماء الرجل على ماء المرأة او سلالتها على سلالته أمر ملك الارحام بتصويره كذلك فان ذلك لا يخل بحكمته ولا يخرق عادة ولو خرقها لم يخل بحكمة احكم الحاكين واما منعكم عموم اللذة فشبيه بالمكابرة والجامع

يجد عند الانزال شيئاقد اشتمل من جميع بدنه وسمعه وبصره وقواه فى قالب الرحم فيصير كأنه خلع قميص كأنه مشتمل به ولهذا اقتضت حكمة الرب تعالى فى شرعه وقدره ان امره بالاغتسال عقيب ذلك ليخلف عليه الماء ما تحلل من بدنه من ماء واذا اغتسل وجد نشاطا وقوة وكأنه لم ينقص منه شئ فان رطوبة الماء تخلف على البدن ما حللته تلك الحركة من رطوباته وتعمل فيها الحرارة الاصلية عملها فتقربها القوى التى ضعفت بالانزال واما التشابه الواقع بين الظفر والشعر فى الوالد والمولود ولم ينفصل بينهما شئ فما يردها من شبهه فان الظفر والشعر تابعان للاعضاء والمزاج الذى وقع فيه التشابه فاستتبع تشابه الاصل تشابه التبع واما شبه المولود بالجد بالبعيد من أجداده فهو من اقوى الادلة لنا فى المسئلة لان ذلك الشبه البعيد لم يزل ينقل فى الاصلاب حتى استقر فى صورة الولد وبها حصل الشبه وأما قولكم ان تلك الاجزاء لا تخلو اما ان تكون موضوعة فى المنى وضعها الواجب أولا الى آخره فجوابكم انكم ان عنيتم انها موضوعة بالفعل فليس كذلك وان أردتم انها موضوعة بالقوة فنعم وما المانع منه ويكون المنى حيوانا صغيرا بل كبيرا بالقوة وبهذا ظهر الجواب عن قولكم ان المنى رطوبة سيالة لا تحفظ الموضع والترتيب وغاية ما يقدر ان ذلك جزء من أجزاء السبب الذى يخلق الله به الولد وجزء السبب لا يستقل بالحكم فالمستقل بالايجاد مشيئة الله وحده والاسباب فعال الظهور أقر الشبه

﴿ فصل ﴾ فان قيل فهذا تصريح منكم بأن المرأة لها منى وان منها احد الجزئين الذين يخلق الله منها الولد وقد ظن طائفة من الاطباء ان المرأة لا منى لها قيل هذا هو السؤال الذى أوردته أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها وأم سلمة رضى الله عنهاعن النبى صلى الله عليه وسلم وأجابهما عنه باثبات منى المرأة ففى الصحيح ان أم سليم رضى الله عنها قالت يارسول الله ان الله لا يستحى من الحق هل على المرأة من غسل اذاهى احتلمت قال نعم اذا رأت الماء فقالت أم سلمة أو تحتلم المرأة فقال تربت يداك فبم يشبهها ولدها وفيهما عن عائشة رضى الله عنها ان ام سليم رضى الله عنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المرأة ترى فى منامها ما يرى الرجل هل عليها من غسل قال نعم اذا رأت الماء قالت فقلت لها اترى المرأة ذلك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهل يكون الشبه الا من ذلك اذا علا ماؤها ماء الرجل أشبه الولد أخواله واذا علا ماء الرجل ماءها أشبه اعمامه لفظ مسلم وقد ذكر جالينوس التشنيع على ارسطاليس حيث قال ان المرأة لا منى لها فلتصر هذه المسئلة طبعا كما حررت شرعا فنقول منى الذكر من جملة الرطوبات والفضلات التى فى البدن وهذا أمر يشترك بين الذكر والانثى (١) ورأسا منه تخلق الولد وبواسطته يكون الشبه ولو لم يكن للمرأة منى لما أشبهها ولدها ولا يقال ان الشبه سبب دم الطمث فانه لا ينعقد مع منى الرجل ولا يتحد به فقد أجرى الله العادة بأن التولد لا يكون الا بين أصلين يتولد من بينهما ثالث ومنى الرجل وحده لا يتولد منه الولد مالم يمازجه مادة أخرى من الانثى وقد اعترف أرباب القول الآخر بذلك وقالوا لابد من وجود مادة بيضاء لزجة للمرأة تصير مادة لبدن الجنين ولكن نازعوا هل فيها قوة عاقدة كما فى منى الرجل وقد أدخل النبى صلى الله عليه وسلم هذه المسئلة فى الحديث الذى رواه مسلم فى صحيحه من حديث

(١) هكذا بالاصل غير ظاهر فليحرر

ثوبان مولاه حيث سأله اليهود عن الولد فقال ماء الرجل أبيض وماء المرأة اصفر فاذا اجتمعا فعلا مني الرجل مني المرأة اذكرا باذن الله واذا علا مني المرأة مني الرجل أنث باذن الله ثم لمني الرجل خاصة الغلظ والبياض والخروج بدفق ودفع فان أراد من نفى مني المرأة انتفاء ذلك عنها أصاب ومني المرأة خاصته الرقة والصفرة والسيلان بغير دفع فان نفي ذلك عنها اخطأ وفي كل من المائين قوة فاذا انضم احدهما الى الآخر اكتسبا قوة ثالثة وهي من اسباب تكون الجنين واقتضت حكمة الخلاق العليم سبحانه أن جعل داخل الرحم خشنا كالسفنج وجعل فيه طلبا للمني وقبولا له كطلب الارض الشديدة العطش للماء وقبولها له فجعله طالبا حافظا مشتاقا اليه بالعطش فلذلك اذا ظفر به أمه ولم يضيعه بل يشتمل عليه أتم الاشتمال وينضم أعظم انضمام لئلا يفسده الهوى فيتولى القوة والحرارة التي هناك باذن الله الملك الرحم اذا اشتمل على المني ولم يقذف فيه الى خارج استدار المني على نفسه وصار كالكرة وأخذ في الشدة الى تمام ستة أيام فاذا اشتد نقط فيه نقطة في الوسط وهو موضع القلب ونقطة في أعلاه وهي نقطة الدماغ واليمين وهي نقطة الكبد ثم تتباعد تلك النقط ويظهر بينهما خطوط حمر الى تمام ثلاثة أيام أخر ثم تنفذ الدموية في الجميع بعد ستة أيام اخر فيصير ذلك خمسة عشر يوما ويصير المجموع سبعة وعشرين يوما ثم ينفصل الرأس عن المنكبين والاطراف عن الضلوع والبطن عن الجنبين وذلك في تسعة ايام فتصير ستة وثلاثين يوما ثم يتم هذا التميز بحيث يظهر للحس ظهورا بينا في تمام اربعة ايام فيصير المجموع أربعين يوما يجمع خلقه وهذا مطابق لقول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق على صحته ان احدكم يجمع خلقه في بطن امه اربعين يوما واكتفى النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الاجمال عن التفصيل وهذا يقتضي الذم قد جمع فيها خلقها جمعا خفيا وذلك الخلق في ظهور خفي على التدريج ثم يكون مضغة اربعين يوما أخرى وذلك التخليق يتزايد شيئا فشيئا الى ان يظهر للحس ظهورا لاخفاء به كله والروح لم تتعلق به بعد فانها انما تتعلق به في الاربعين الرابعة بعد مائة وعشرين كما اخبر به الصادق وذلك مما لا سبيل الى معرفته الا بالوحي اذ ليس في الطبيعة ما يقتضيه فلذلك حار فضلاء الاطباء واذكياء الفلاسفة في ذلك وقالوا ان هذا مما لا سبيل الى معرفته الا بحسب الظن البعيد قال وقف على نهايات كلامهم في ذلك وآداب فيه حتى كل وهو صاحب الطب الكبير فذكر مناسبات خيالية ثم قال وحقيقة العلم فيه عند الله تعالى لا مطمع لاحد من الخلق الوقوف عليه قلت قد أوقفنا عليه الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى بما ثبت في الصحيحين ان خلق أحدكم يجمع في بطن امه اربعين يوما ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث اليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع يكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أوسعيد

﴿ فصل ﴾ ورأيت لبعض الاطباء كلاما ذكر فيه سبب تفاوت زمن الولادة فأذكره واذكر ما فيه قال اذا تم خلق الجنين مدة معينة فأنها اذا زاد عليها مثلها تحرك الجنين فاذا انضاف الى المجموع مثلاه انفصل الجنين قال فاذا تم خلقه في ثلاثين يوما فاذا صار له ستون يوما تحرك فاذا انضاف الى الستين مثلاه صارت مائة وثمانين يوما وهي ستة اشهر وهي مدة ينفصل لها الحمل واذا تم خلقه في خمسة وثلاثين يوما تحرك لسبعين وانفصل لسبعة اشهر واذا

ثم خلقه لاربعين تحرك لثمانين وانفصل لثمانية اشهر واذا تم لخمسة واربعين تحرك لتسعين وانفصل لتسعة اشهر وعلى هذا الحساب أبدا وهذا الذى ذكره هذا القائل يقتضى حركة الجنين قبل الاربعين وهذا خطأ قطعا فان الروح انما تتعلق به بعد الاربعين الثالثة وحينئذ يتحرك فلا تثبت له حركة قبل مائة وعشرين يوما ومايقدر من حركة قبل ذلك فليست حركة ذاتية اختيارية بل لعلها حركة عارضة بسبب الاغشية والرطوبات وما ذكره من الحساب لايقوم عليه دليل ولا تجربة مطردة فربما زاد على ذلك أو نقص منه ولكن الذى نقطع به أن الروح لاتتعلق به الابعد الاربعين الثالث ومايقدر من حركة قبل ذلك ان صحت لم تكن بسبب الروح والله أعلم

﴿ فصل ﴾ وأما أقل مدة الحمل فقد تظاهرت الشريعة والطبيعة على أنها ستة اشهر قال تعالى وحمله وفصاله ثلاثون شهرا وقال تعالى والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة وقال جالينوس كنت شديد الفحص عن مقادير أزمنة الحمل فرأيت امرأة واحدة ولدت فى مائة واربع وثمانين ليلة وزعم صاحب الشفاء أنه شاهد ذلك وأما أكثره فقال فى الشفاء بلغنى من حيث وثقت أن امرأة وضعت بعد الرابع من رأس الحمل ولدا قد نبتت اسنانه وعاش

﴿ فصل ﴾ فان قيل فما سبب الاذكار والايناث قيل الذى نختاره أنه سببه مشيئة الرب الفاعل باختياره وليس بسبب طبيعى وكل ماذكر اصحاب الطبائع من الاسباب فستنتقض مثل حرارة الرجل ورطوبته قالوا وفساد المزاج أيضا يوجب ايلاد الاناث واستقامته يوجب الاذكار هذا تخليط وهذيان فليس للاذكار والايناث الاقول الله لملك الارحام وقد استأذن يارب ذكر يارب أنثى يارب شقى أم سعيد فما الرزق فما الأجل والاذكار والايناث قرين السعادة والشقاوة والرزق والاجل فان قيل فذلك أيضا بأسباب قلنا نعم ولكن بأسباب بعد الولادة ولاسبب للاذكار والايناث قبل الولادة فان قيل فما تصنعون بحديث ثوبان الذى رواه مسلم فى صحيحه أن يهوديا سأل النبى صلى الله عليه وسلم عن الولد فقال ماء الرجل ابيض وماء المرأة اصفر فاذا اجتمعا فعلا منى الرجل منى المرأة اذكر باذن الله واذا علا منى المرأة منى الرجل أنث باذن الله فقال اليهودى صدقت وانك لنبى قيل هذا الحديث تفرد به مسلم فى صحيحه وقد تكلم فيه بعضهم وقال الظاهر ان الحديث وهم فيه بعض الرواة وانما كان السؤال عن الشبه وهو الذى سأله عبدالله بن سلام فى الحديث المتفق على صحته فأجابه بسبق الماء فان الشبه يكون للسابق فلعل بعض الرواة انقلب عليه شبه الولد بالمرأة بكونه أنثى وشبهه بالولد لكونه لاسيما والشبه التام انما هو بذلك وقالت طائفة الحديث صحيح لامطعن فى سنده ولامنافاة بينه وبين حديث عبدالله بن سلام وليست الواقعة واحدة بل هما قضيتان وروايه كل منهما غير رواية الاخرى وفى حديث ثوبان قصته ضبطت وحفظت قال ثوبان كنت قائما عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء حبر من احبار اليهود فقال السلام عليك يامحمد فدفعته دفعة كاد يصرع منها فقال لم تدفعنى فقلت ألا تقول يارسول الله فقال اليهودى انما ندعوه باسمه الذى سماه به أهله فقال رسول الله

صلى الله عليه وسلم ان اسمى محمدا الذى سمانى به أهلى فقال اليهودى جئت اسألك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أينفعك شئ ان حدثتك قال أسمع بأذنى فنكت رسول الله صلى الله عليه وسلم بعود معه فقال اليهودى أين يكون الناس يوم تبدل الارض غير الارض والسموات فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هم فى الظلمة دون الجسر قال فمن اول الناس اجازة قال فقراء المهاجرين قال اليهودى فما تحفتهم حين يدخلوا الجنة قال زيادة كبد الحوت قال فما غذاؤهم على اثرها قال ينحر لهم ثور الجنة الذى يأكل من أطرافها قال فما شرابهم عليه قال من عين فيها تسمى سلسبيلا قال صدقت قال وجئت اسألك عن شئ لا يعلمه أحد الا نبى أو رجل او رجلان قال أينفعك أن حدثتك قال أسمع باذنى قال جئت اسألك عن الولد قال ماء الرجل ابيض وماء المرأة اصفر فاذا اجتمعا فعلا منى الرجل منى المرأة اذكرا باذن الله واذا علا منى المرأة منى الرجل انثا باذن الله قال اليهودى لقد صدقت وانك لنبى ثم انصرف فذهب فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد سألنى هذا الذى سألنى عنه ومالى علم به حتى أتانى به الله واما حديث عبدالله بن سلام رضى الله عنه ففى صحيح البخارى عن أنس رضى الله عنه قال بلغ عبدالله بن سلام مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة فأتاه فقال انى سائلك عن ثلاث لا يعلمهن الا نبى ما اول أشراط الساعة وما اول طعام يأكله أهل الجنة ومن أى شئ ينزع الولد الى ابيه ومن اى شئ ينزع الى اخواله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم خبرنى آنفا جبريل فقال عبدالله ذاك عدو اليهود من الملائكة فقال اما اول أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق الى المغرب واما اول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت واما الشبه فى الولد فان الرجل اذا غشى المرأة فسبقها ماؤه كان الشبه له واذا سبقت كان الشبه لها قال اشهد أنك رسول الله وذكر الحديث فتضمن الحديثان أمرين ترتب عليهما الاثران معا وانهما نفرد ترتب عليه اثره فاذا سبق ماء الرجل وعلا اذكر وكان الشبه له وان سبق ماء المرأة وعلا انث وكان الشبه لها وان سبق ماء المرأة وعلا ماء الرجل اذكر وكان الشبه لها ومع هذا كله فهذا جزء سبب ليس بموجب والسبب الموجب مشيئة الله قال فقد يسبب شبه السبب وقد ترتب على ضد مقتضاه ولا يكون فى ذلك مخالفة لحكمته كما لا يكون تعجيز القدرة وقد اشار فى الحديث الى هذا بقوله اذكر وانث باذن الله وقد قال تعالى لله ملك السموات والارض يخلق مايشاء يهب لمن يشاء اناثا ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكرانا واناثا ويجعل من يشاء عقيما انه عليم قدير فأخبر سبحانه ان ذلك عائد الى مشيئته وأنه قد يهب الذكور فقط والاناث فقط وقد يجمع للوالدين بين النوعين معا وقد يخليهما عنهما معا وأن ذلك كما هو راجع الى مشيئته فهو متعلق بعلمه وقدرته وقد وهب الله آدم الذكور والاناث واسرائيل الذكور دون الاناث ومحمدا الاناث دون الذكور سوى ولده ابراهيم (٢) وقال سليمان عليه السلام لاطوفن الليلة على سبعين امرأة تأتى كل امرأة منهن بغلام يقاتل فى سبيل الله فطاف عليهن فلم تلد منهن الا امرأة واحدة جاءت بشق ولد قال النبى صلى الله عليه وسلم والذى نفسى بيده لو قال ان شاء الله لجاهدوا فى سبيل الله فرسانا اجمعون فدل على أن مجرد الوطء ليس بسبب تام وكان له مدخل فى السببية وان السبب التام

(٢) لعله سوى بنيه الذكور ... القاسم وعبدالله ... الطيب وابراهيم

مشيئة الله وحده فهو رب الاسباب المتصرف فيهـا كيف شاء باعطاءها السببية اذا شاء ومنعها اياهـا اذا شاء وترتيب ضد مقتضاها عليهـا اذا شاء والانساب هي مجـارى الشرع والقدر فعليهـا يجرى أمر الله الكونى والدينى فان قيل فقد ظهر أن الولد مخلوق من المائين جميعـا فهل يخلق منهما على حـد سواء أم يكون بعض الولد من ماء الاب وبعضه من ماء الام قيل قد بين النبي صـلى الله عليه وسـلم هـذه المسئلة بأوضح البيان فقال الامام أحمد فى مسنده حدثنـا حسين بن الحسن حدثنـا ابو كريب عن عطاء بن السائب عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبيـه عن عبد الله قال مر يهودى برسول الله صلى الله عليه وسـلم وهو يحدث اصحـابه فقالت قريش يايهودى ان هذا يزعم أنه نبي فقال لاسألنه عن شئ لا يعلمه الا نبي فجـاء حتى جلس ثم قال يامحمد مم يخلق الانسان فقال من كل يخلق من نطفة الرجل ومن نطفة المرأة فأما نطفـة الرجل فنطفة غليظة منهـا العظم والعصب وأما نطفة المرأة فنطفة رقيقة منهـا اللحم والدم فقام اليهودى فقال هكذا يقول من قبلك

﴿ فصـل ﴾ فان قيل قد ذكرتم ان تعلق الروح بالجنين انمـا يكون بعد الاربعين الثالثة وان خلق الجنين يجمع فى بطن أمه أربعين يوما ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغـة مثل ذلك ويتم ان كلام الاطباء لا ينـاقض ما خرج به الوحى من ذلك فما تصنعون بحـديث حذيفة بن أسيد الذى رواه مسلم فى صحيحه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال يدخل الملك فى النطفة بعدما تستقر فى الرحم بأربعين أو خمس وأربعين ليلة فيقـول أى رب أشقى أم سعيد فيكتبان فيقول أى رب ذكر أو أنثى فيكتبان ويكتب عمـله وأثره وأجله ورزقه ثم الصحيفة فلا يزاد فيهـا ولا ينقص قيل تلقـاه بالقبول والتصديق وترك التحريف ولا ينـافى ما ذكرناه اذ غاية ما فيه ان التقدير وقـع بعد الاربعين الاولى وحديث ابن مسعـود يدل على أنه وقـع بعد الاربعين الثالثة وكلاهما حق قاله هذا تقدير بعد تقدير فالاول تقدير عند انتقال النطفة الى اول اطوار التخليق التى هى اول مراتب الانسان وما قبل ذلك فـلم يتعلق بها التخليق والتقدير الثـانى تقدير عند كمال خلقه ونفخ الروح فذلك تقدير عند اول خلقه وتصوره وهـذا هو تقدير عند تمام خلقه وتصوره وهذا احسن من جواب من قال ان المراد بهذه الاربعين التى فى حديث حذيفة الاربعين الثالثة وهذا بعيد جدا من لفظ الحديث ولفظه يأباه كل الاباء فتأمله فان قيل فما تصنعون بحديثه الآخر الذى فى صحيح مسلم عن عامر بن واثلة انه سمع عبد الله بن مسعود رضى الله عنـه يقول الشقى من شـقى فى بطن امه والسعيد من وعظ بغـيره فأتى رجلا من اصحاب النبى صلى الله عليه وسـلم يقـال له حذيفة بن اسيد الغفارى فحـدثه بذلك من قول ابن مسعود فقال وكـيف يشقى رجل بغـير عمل فقال له الرجل أتعجب من ذلك فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسـلم يقول اذا مر بالنطفة ثنتـان واربعون ليلة بعث الله اليها ملـكا فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامهـا ثم قال يارب اذكر أم انثى فيقضى ربك ما يشاء ويكتب الملك بالصحيفة فى يده فلا يزيد على امر ولا ينقص وفى لفظ آخر فى الصحيح ايضـا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم باذنى هاتين يقول ان النطفة تقع فى الرحم اربعين ليلة ثم يتسور عليها الملك الذى يخلقها فيقول يارب اذكر أم انثى اسوى ام غـير سوى فيجعله

الله سويا او غير سوى ثم يقول يارب مارزقه وما اجله وما خلقه ثم يجعله الله عز وجل شقيا او سعيدا وفى لفظ آخر فى الصحيح ايضا ان ملكا موكلا بالرحم اذا اراد الله ان يخلق شيئا باذن الله لبضع واربعين ليلة ثم ذكر نحوه قيل تلقاه ايضا بالتصديق والقبول وترك التعريف وهذا موافق ما اجمع عليه الاطباء ان مبدأ التخليق والتصوير بعد الاربعين فان قيل فكيف التوفيق بين هذا وبين حديث ابن مسعود وهو صريح فى ان النطفة اربعين يوما نطفة ثم اربعين علقة ثم اربعين مضغة ومعلوم ان العلقة والمضغة لاصورة فيها ولا جلد ولا لحم ولا عظم وليس بنا حاجة الى التوفيق بين حديثه هذا او بين قول الاطباء فان قول النبى صلى الله عليه وسلم معصوم وقولهم عرضة الخطأ ولكن الحاجة الى التوفيق بين حديثه وحديث حذيفة المتقدم قيل لاتنافى بين الحديثين بحمد الله وكلاهما خارج من مشكاة صادقة معصومة وقد ظن طائفة ان التصوير فى حديث حذيفة انما هو بعد الاربعين الثالثة قالوا واكثر مافيه التعقيب بالفاء وتعقيب كل شئ بحسبه وقد قال تعالى ألم تر ان الله أنزل من السماء ماء فتصبح الارض مخضرة بل قد قال تعالى فخلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما وهذا تعقيب بحسب مايصلح له المحل ولا يلزم ان يكون الثانى عقيب الاول وتعقيب اتصال وظنت طائفة أخرى ان التصوير والتخليق الذى فى حديث حذيفة وهو فى التقدير والعلم والذى فى حديث ابن مسعود وهو فى الوجود الخارجى والصواب يدل على الحد مادل عليه الحديث من ان ذلك فى الاربعين الثانية ولكن هنا تصوير ان أحدهما تصوير خفى لايظهر المسرو هو تصوير تقديرى كالتصور من تفصل الثواب أو نجر الباب مواضع القطع والتفصيل فيعلم عليها ويضع مواضع الفصل والوصل وكذلك كل من يضع صورة فى مادة لاسيما مثل هذه الصورة ينشأ فيها التصوير والتخليق على التدريج شيئا بعد شئ لا وهلة واحدة كما يشاهد بالعيان فى تخليق الطاهر فى البيضة فههنا أربع مراتب احدها تصوير وتخليق علمى لم يخرج الى الخارج الثانية مبدأ تصوير خفى يعجز الحس عن ادراكه الثالثة تصوير يناله الحس ولكنه لم يتم بعد الرابعة تمام التصوير الذى ليس بعده الا نفخ الروح فالمرتبة الاولى علمية والثلاث الاخر خارجية عينية وهذا التصوير بعد التصوير نظير التقدير بعد التقدير فالرب تعالى قدر مقادير الخلائق تقديرا عاما قبل أن يخلق السموات والارض بخمسين ألف سنة وهنا كتب السعادة والشقاوة والاعمال والارزاق والآجال الثانى تقدير بعد هذا وهو اخص منه وهو التقدير الواقع عند القبضتين حين قبض تبارك وتعالى أهل السعادة بيمينه وقال هؤلاء للجنة وبعمل اهل الجنة يعملون وقبض أهل الشقاوة باليد الاخرى وقال هؤلاء للنار وبعمل اهل النار يعملون الثالث تقدير بعد هذا وهو اخص منه عندما يقضى به فى حديث حذيفة بن اسيد المذكور الرابع تقدير آخر بعد هذا وهو عند مايتم خلقه وينفخ فيه الروح كما صرح به الذى قبله وهذا يدل على سعة علم الرب تبارك وتعالى واحاطته بالكليات والجزئيات وكذلك التصوير الثانى مطابق للتصوير العلمى والثالث مطابق للثانى والرابع مطابق للثالث وهذا مما يدل على كمال قدرة الرب تعالى ومطابقة مقدور المعلومة فتبارك الله رب العالمين وأحسن الخالقين ونظير هذا التقدير الكتابة العامة قبل المخلوقات ثم كتابة مايكون من العام الى العام

في ليلة القدر وكل مرتبة من هذه المراتب تفصيل لما قبلها وتنوع وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم يصدق بعضه بعضا ويفسر بعضه بعضا ويطابق الواقع في الوجود ولا يخالفه وانما يخبر بما لا يستقل الحس والعقل بادراكه لا بما يخالف الحس والعقل وانما يعرفه الناس ويستقلون بادراكه على أمر غيبي يتعلق به الايمان أو على حكم شرعي يتعلق به التكليف والله أعلم

﴿ فصل ﴾ فان قيل أي عضو يخلق أولا قبل سائر الاعضاء قيل اختلف في ذلك على اربعة اقوال أحدها انه القلب وهو قول الاكثرين والثاني انه الدماغ والعينان وهو قول بقراط والثالث الكبد وهو قول محمد بن زكريا والرابع انه السرة وهو قول جماعة من الاطباء قال أصحاب القلب لا شك ان في المني قوة روحية بسبب تلك القوة صلح ان يكون انسانا وحاجته الى الروح الذي هو مادة القوى أشد فلابد ان يكون لذلك الروح فجمع خاص منه ينبعث الى سائر الاعضاء فالجوهر الروحي أول شيء ينعر من المني ويجتمع في موضع واحد ويحيط به ما يتصل اليه ذلك الجوهر الروحي من جميع الجوانب فيجب أن يكون مجمعها هو الوسط وسائر الاجزاء محيطة به وذلك الكبد هو القلب قالوا ولان تمام البدن موقوف على الحرارة الغريزية الذي بها البدن لابد أن يتقدم على العضو الذي منبع القوة الغاذية التي بها النمو وهو الكبد قالوا ولان فعال القوى انما تتم بالروح وهي لابد لها من متعلق تتعلق به ولابد ان يتقدم متعلقها عليها وهو القلب قالوا وهذا هو الأليق والأنسب بحكمة الرب تعالى فان القلب ملك والاعضاء جنوده وخدم فاذا صلح القلب صلحت جنوده واذا فسد فسدت وقد اشار النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح الى ما يرشد الى ذلك فقال ان في الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله واذا فسدت فسد لها سائر الجسد ألا وهي القلب فالأولى بهذه المضغة ان تكون متقدمة في وجودها على سائر الاعضاء وسائرها تبع لها في الوجود كما هي تبع لها في الصلاح والفساد قالوا وقد شاهد اصحاب التشريح في المني عند انعقاده نطفة في وسطه قال اصحاب الدماغ شاهدنا الفراخ في البيض أول ما يتكون منها رأسها وسنة الله في بروز الجنين أول ما يبدو منه الى الوجود رأسه قال اصحاب الكبد لما كان المني محتاجا الى قوة غاذية تزيد في جوهره حتى يصير بحيث يمكن ان تكون الاعضاء فيه كان أول الاعضاء واسبقها اليه وهو محل القوة الغاذية وهو الكبد قال اصحاب السرة حاجة الجنين الى جذب الغذاء أشد من حاجته الى الاقوات وادراكه ومن السرة يجذب الغذاء واولى هذه الاقوال القول الاول وهو بيت القلب ومنزلته وشرفه ومحله الذي وضعه الله به يقتضي أنه المبدوء به قبل سائر الاعضاء المقدم عليها بالوجود والله أعلم

﴿ فصل ﴾ فان قيل الجنين قبل نفخ الروح فيه هل كان فيه حركة واحساس ام لا قيل كان فيه حركة النمو والاغتذاء كالنبات ولم يكن له حركة نموه واغتذائه والارادة فلما نفخت فيه الروح انضمت حركة حسيته وارادته الى حركة نموه واغتذائه فان قيل قد ثبت ان الولد يخلق من ماء الابوين فهل يمتازجان ويختلطان حتى يصيرا ماء واحدا أو يكون أحدهما هو المادة والآخر بمنزلة الانفحة التي تعقده قيل هو موضع اختلف فيه أرباب الطبيعة فقالت طائفة منهم مني الاب لا يكون جزءا من الجنين وانما هو مادة الروح الساري في الاعضاء واجزاء البدن كلها من مني الام ومنهم من قال بل هو ينعقد من

منى الانثى ثم يتحلل ويفسد قالوا ولهذا كان الولد جزأ من أمه ولهذا جاءت الشريعة بتبعيته لها في الحرية والرق قالوا ولهذا لو ترى فحل رجل علا حجرة آخر فأولدها فالولد لمالك الام دون مالك الفحل لانه تكون من اجزائها واحشائها ولحمها ودمها وماء الاب بمنزلة الماء الذي يسقى الارض قالوا والحس يشهد ان الاجزاء الذى في المولود من أمه اضعاف اضعاف الاجزاء الذى فيه من أبيه فثبت ان تكوينه من منى الام ودم الطمث ومنى الاب عاقد له كالانفحة ونازعهم الجمهور وقالوا انه يتكون من منى الرجل والانثى ثم لهم قولان أحدهما ان يكون من منى الذكر اعضؤه واجزؤه ومن منى الانثى صورته والثانى ان الاعضاء والاجزاء والصورة تكونت من مجموع الماءين وانهما امتزجا واختلطا وصارا ماء واحدا وهذا هو الصواب لانا نجد الصورة والتشكيل تارة الى الاب وتارة الى الام والله أعلم وقد دل على هذا قوله تعالى يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى والاصل هو الذكر فمنه البذر ومنه السقى والانثى وعاء ومستودع اولده تربيه في بطنها كما تربيه في حجرها ولهذا كان الولد للاب حكما ونسبا وأما تبعيته للام في الحرية والرق فلانه انما تكون وصار ولدا في بطنها وغذته لبانها مع الجزء الذى فيه منها وكان الاب أحق بنسبه وتعصيبه لانه أصله ومادته ونسخته وكان اشرفهما دينا أولى به تغليبا لدين الله وشرعه فان قيل فهلا طردتم هذا وقلتم لو سقط بذر رجل في ارض آخر ويكون الزرع لصاحب الارض دون مالك البذر قيل الفرق بينهما ان البذر مال متقوم في ارض آخر فهو لمالكه وعليه اجرة الارض أو هو بينهما بخلاف المنى فانه ليس بمال ولهذا نهى الشارع عن المعاوضة واتفق الفقهاء على أن الفحل لو نزا على رمكة كان الولد لصاحب الرمكة

﴿ فصل ﴾ فان قيل فهل يتكون الجنين من ماءين وواطئين قيل هذه مسئلة شرعية كونية والشرع فيها تابع للتكوين وقد اختلف فيها شرعا وقدرا فمنعت ذلك طائفة وابته كل الاباء وقالت الماء اذا استقر في الرحم اشتمل عليه وانضم غاية الانضمام بحيث لا يبقى فيه مقدار رسم رأس ابرة والا فسد فلا يمكن انفتاحه بعد ذلك لماء ثان لا من الواطئ ولا من غيره قالوا وبهذا اجرى الله العادة ان الولد لا يكون الا لاب واحد كما لا تكون الام الا واحدة وهذا هو مذهب الشافعى وقالت طائفة بل يخلق من ماء فأكثر قالوا وانضمام الرحم واشتماله على الماء لا يمنع قبوله الماء الثانى فان الرحم اشوق شئ واقبله للمنى قالوا ومثال ذلك كمثال المعدة فان الطعام اذا استقر فيها انضمت عليه غاية الانضمام فاذا ورد عليها طعام فوقه انفتحت له لشوقها اليه قالوا وقد شهد بهذا القائف بين يدى امير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه في ولد اداه اثنان فنظر اليهما واليه وقال ما أراهما الا اشتركا فيه فوافقه عمر وألحقه بهما ووافقه على ذلك الامام احمد ومالك رضى الله عنهما قالوا والحس يشهد بذلك كما ترى في جرو الكلبة والسنور تأتى بها مختلفة الالوان لتعدد آبائها وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يسقى ماءه زرع غيره يريد وطء الحامل من غير الواطئ قال الامام احمد الوطء يزيد في سمع الولد وبصره وهذا بعد انعقاده وعلى هذا مسئلة فقهية وهى لو أحبل غيره بنكاح أو زنى ثم ملكها هل تصير أم ولد فيها أربعة اقوال

(وهى)

وهى روايات عن الامام أحمد احدها لا تصير ام ولد لانها لم تعلق با لولد فى ملكه والثانى تصير ام ولد لانها وضعت فى ملكه والثالث ان وضعت فى ملكه صارت ام ولد وان وضعت قبل ان يملكها لم تصر لان الوضع والاحبال كان فى غير ملكه والرابع ان وطئها بعد ان ملكها صارت ام ولد والا فلا لان الوطء يزيد فى خلقة الولد كما قال الامام أحمد الوطء يزيد فى سمع الولد وبصره وهذا ارجح الاقوال وقد ثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم انه مر على امرأة مجح على باب فسطاط فقال لعل سيدها يريد ان يلم بها لقد هممت ان العنه لعنة تدخل معه فى قبره كيف يورثه وهو لا يحل له والمجح الحامل المقرب وقوله كيف يورثه اى يجعل له تركة موروثة عنه لانه عبده ولا يحل له ذلك لانه قد صار فيه جزء من اجزائه بوطئه وكيف يجعله عبده ولا يحل له لذلك فهذا دليل على ان وطء الحامل اذ وطئت كثيرا جاء الولد عبلا ممتلئا واذا هجر وطئها جاء الولد مثيلا ضعيفا فهذه اسرار شرعية موافقة للاسرار الطبيعية مبنية عليها والله اعلم فان قيل فهل يمكن ان يخلق من الماء ولدان فى بطن واحد قيل هذه مسئلة التوأم وهو ممكن بل وقع له اسباب أحدها كثرة المنى فيقبض الى بطن الرحم دفعات والرحم يعرض له عند الحركة الجارية للمنى حركات اختلاجية مختلفة فربما اتفق ان كان الجاذب للدفعة الاولى من المنى احد جانبيه وللثانية الجانب الآخر ومنها ان بيت الاولاد فى الرحم فيه تجاويف فيكون المنى كثيرا فيغفل عن احدها فضلة يشتمل عليها التجويف الثانى وهكذا الثالث قال ارسطوا وقد يعيش للمرأة خمسة اولاد فى بطن واحد وحكى عن امرأة انها وضعت فى اربع بطون عشرين ولدا قال صاحب القانون سمعت بجرجان ان امرأة اسقطت كيسا فيه سبعون صورة صغيرة جدا قال ارسطو واذا توأمت بذكر وانثى فقل ماتسلم الوالدة والمولود واذا توأمت بذكرين واثنين تسلم كثيرا قال والمرأة قد تحبل على الحبل ولكن يهلك الاول فى الاكثر فقد اسقطت امرأة واحدة اثنى عشر جنينا حبلا على حبل واما اذا كان الحمل واحدا اوبعد وضع الاول فقد يعيشان والله أعلم فان قيل فما السبب المانع للحامل من الحيض غالبا قال الامام أحمد وابو حنيفة انما تراه من الدم يكون دم فساد لا حيض والشافعى وان قال انه دم حيض وهو احدى الروايتين عن عائشة فلا ريب انه نادر بالاضافة الى الاغلب قيل دم الطمث ينقسم ثلاثة اقسام قسم ينصرف الى غذاء الجنين وقسم يصعد الى البدن وقسم يحبس الى وقت الوضع فيخرج مع الولد وهو دم النفاس وربما كانت مادة الدم قوية وهو كثير فيخرج بعضه لقوته وكثرته والراجح من الدليل انه حيض حكمه حكمه اذ ليس هناك دليل عقلى ولا شرعى يمنع من كونه حيضا واستيفاء الادلة من الجانبين فقد ذكرناه فى مواضع أخر والله أعلم فان قيل فما السبب فى ان النساء الحبالى يشتقن فى الشهر الثانى والثالث الى تناول الاشياء الغريبة التى لا يعتد بها طبا فهن قيل ان دم الطمث لما احتبس فيهن بحكمة قدرها الله وهى ان صرفه غذاء للولد ومقدار ما يحتاج اليه يسيرا فتند فعه الطبيعة الصحيحة الى فم المعدة فيحدث لهن شهوة تلك الاشياء الغريبة فان قيل فكيف وضع الجنين فى بطن أمه قائما او قاعدا او مضطجعا قيل هو معتمد بوجهه على رجليه

وراحتيه على ركبتيه ورجلاه مضمومة الى قدميه ووجهه الى ظهر امه وهذا من العناية الالهية ان أجلسه هذه الجلسة فى المكان الضيق فى الرحم على هذا الشكل وايضا فلو كان رأسه الى أسفل لوقع ثقل الاعضاء الخسيسة على الاعضاء الشريفة وأدى ذلك الى تلفه ولانه عند محاولة الخروج اذا انقلب أعانه على الخروج فانه اذا خرج أول مايخرج منه رأسه لان الرأس اذا خرج أولا كان خروج سائر الاعضاء بعده سهلا ولو خرج على غير هذا الوجه امكان فيه تعويق وعسر فان الرجلين لوخرجت أولا لانعاق خروج الباقى فانه ان خرجت الرجل الواحدة أولا انعاق عند الثانية وان خرجتا معا انعاق عند اليدين وان خرجت الرجلان واليدان انعاق عند الرأس فكان يلتوى الى خلف وتلتوى السرة الى العنق فيألم الرحم ويضعف الخروج ويؤدى الى مرضه أو تلفه فان قيل فاسبب الاجهاض الذى يسمونه الطرح قبل كمال الولد قيل الجنين فى البطن بمنزلة الثمرة فى الشجرة وكل منهما له اتصال قوى بالام ولهذا يضعف قطع الثمرة قبل كمالها من الشجرة وتحتاج الى قوة فاذا بلغت الثمرة نهايتها سهل قطعها وربما سقطت بنفسها وذلك لان تلك الرباطات والعروق التى تمدها من الشجرة كانت فى غاية القوة والغذاء آخر رجع ذلك الغذاء الى تلك الشجرة ضعفت تلك الرطوبات والمجارى وساعدها ثقل الثمرة فسهل أخذها وكذلك الامر فى الجنين فانه مادام فى البطن قبل كماله واستحكامه فان رطوباته وأغشيته تكون مانعة له من السقوط فاذا تم وكمل ضعفت تلك الرطوبات وانهتكت الاغشية واجتمعت تلك الرطوبات المزلقة فسقط الجنين هذا الامر الطبيعى الجارى على استقامة الطبيعة وسلامتها وأما السقوط قبل ذلك فلفساد فى الجنين ولفساد فى طبيعة الام أوضعف الطبيعة كما تسقط الثمرة قبل ادراكها لفساد يعرض أو لضعف الاصل أو لفساد يعرض من خارج فأسقط الجنين السبب من هذه الاسباب الثلاثة فالآفات التى تصيب الاجنة بمنزلة الآفات التى تصيب الثمار فان قيل فكيف الرحم مع ضيقه يخرج منه ماهو أكبر منه بأضعاف مضاعفة قيل هذا من أعظم الادلة على عناية الرب تعالى وقدرته ومشيئته فان الرحم لابد أن ينفتح الانفتاح العظيم جدا قال غير واحد من العقلاء ولابد من انفصال يعرض للمفاصل العظيمة ثم تلتئم مسرعة أسرع من لمح البصر وقد اعترف فضلاء الاطباء وحذاقهم بذلك وقالوا لايكون ذلك الابعناية الهية وتدبير تعجز العقول عن ادراكه وتقر للخلاق العظيم بكمال الربوبية والقدرة فان قيل فما السبب فى بكاء الصبى حالة خروجه الى هذه الدار قيل ههنا سببان سبب باطن أخبر به الصادق المصدوق لايعرفه الاطباء وسبب ظاهر فأما السبب الباطن فان الله سبحانه اقتضت حكمته أن وكل بكل واحد من ولد آدم شيطانا فشيطان المولود قد خنس ينتظر خروجه ليقارنه ويتوكل به فاذا انفصل استقبله الشيطان وطعنه فى خاصرته تحرقا عليه وتغيظا واستقبالا له بالعداوة التى كانت بين الابوين قديما فيبكى المولود من تلك الطعنة ولو آمن زنادقة الاطباء والطبائعيين بالله ورسوله لم يجدوا عندهم مايبطل ذلك ولا يرده وقد ثبت فى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم صياح المولود حين يقع نزغة من الشيطان وفى الصحيحين من حديثه أيضا

(رضى)

رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مامن مولود يولد الا نخسه الشيطان فيستهل صارخا من نخسه الا ابن مريم وأمه وفى لفظ آخر يمسه حين يولد فيستهل صارخا من مس الشيطان اياه وفى لفظ آخر كل بنى آدم يمسه الشيطان يوم ولدته الا مريم وابنها وفى لفظ للبخارى كل بنى آدم يطعن الشيطان فى جنبه باصبعه حين يولد غير عيسى ابن مريم ذهب يطعن فطعن فى الحجاب والسبب الظاهر الذى لا تخبر الرسل بأمثاله برخصه عن الناس ومعرفتهم له من غيرهم هو مفارقته لمألوف والعادة التى كان فيها الى أمر غريب فانه ينتقل من جسم حار الى هواء بارد ومكان لم يألفه يستوحش من مفارقته وطنه ومألفه وعند أرباب الاشارات ان بكاءه ارهاص بين يدى مايلاقيه من الشدائد والآلام والمخاوف وأنشد فى ذلك

ويبكى بها المولود حتى كأنه * بكل الذى يلقاه فيها يهدد

والا فما يبكيه فيها وأنها * لاوسع مما كان فيه وارغد

ولهم نظير هذه الاشارة فى قبض كفه عند خروجه الى الدنيا وفى فتحها عند خروجه منها وهو الاشارة الى أنه خرج مركبا على الحرص والطمع وفارقها صفر اليدين منها وأنشد فى ذلك

وفى قبض كف المرء عند ولاده * دليل على الحرص الذى هو مالكه

وفى فتحها عند الممات اشارة * الى فرقة المال الذى هو تاركه

ولهم نظير هذه الاشارة فى بكاء الطفل وضحك من حوله أن الامر سيبدل ويصير الى مايبكى من حوله عند موته كما ضحكوا عند ولادته وأنشد فى ذلك

ولدتك اذ ولدتك أمك باكيا * والناس حولك يضحكون سرورا

فاعمل لعلك ان تكون اذا بكوا * فى يوم موتك ضاحكا مسرورا

ونظير هذه الاشارة أيضا قولهم ان المولود حين ينفصل يمديده الى فيه اشارة الى تعجيل نزوله عند القدوم عليه بأنه ضعيف من تمام اكرامه تعجيل قراه فأشار بلسان الحال الى ترك التأخير وربما مص اصبعه اشارة الى نهاية فقره وأنه ابلغ منه الى مص الاصابع ومنه قول الناس لمن بلغ به الفقر غايته فهو يمص اصابعه وأنشد فى ذلك

ويهوى الى فيه يمص بنانه * يطالب بالتعجيل خوف التشاغل

ويعلمهم أنى فقير وليس لى * من القوت شئ غير مص الانامل

ونظير هذه الاشارة أنه يحدث بالعجب عمن يظهر من الحدث

ويحدث بين الحاضرين اشارة * الى أنه من حادث ليس يعصم

يقول وعندى بعد أخواتها * ومامنكم الا وذوا العرش ارحم

ونظير هذه الاشارة ان يضحك بعد الاربعين وذلك عند مايتعقل نفسه الناطقة ويدركها وفى ذلك قصاص من البكاء الذى اصابه وعند ولادته وتأخر بعده لكى يتأسى العبد اذا اصابته شدة فالفرج كام يطلبها فى أثرها

ويضحك بعد الاربعين اشارة * الى فرج وافاه بعد الشدائد

يقول هى الدنيا فتبكيك مرة * وتضحك أخرى فاصطبر لفوائد

قالوا ويرى المنى بعد ستين يوما من ولادته ولكنه ينساها لضعف القوة الحافظة وكثرة الرطوبات

وفي ذلك لطف به أيضا لضعف قلبه عن التفكر في إبراه

ويرى بعين القلب اذ يأتي له * ستون يوما رؤية الاحلام
لكنه ينساه بعد اضعفه * عن ضبطه في يقظة ومنام

﴿ فصل ﴾ ولما تكامل للنطفة أربعون يوما فاستحكم نضجها وعقدتها حرارة الرحم استعدت لحالة هي أكمل من الاولى وهي الدم الجامد الذي يشبه العلقة ويقبل الصورة ويحفظها بانعقادها وتماسك اجزائها فاذا تم لها أربعون استعدت لحالة هي أكمل من الحالتين قبلها وهي صيرورتها لحما أصلب من العلقة وأقوى وأحفظ والمخ المودع فيها واللحم هو كسوتها والرباطات تمسك اجزاءه وتشد بعضها ببعض والكبد الذي يأخذ صفو الغذاء فيرسله الى سائر الاعضاء والى الشعر والظفر والامعاء الذي هي مجاري وصول الطعام والشراب الى المعدة والعروق التي هي مجاري تنفذه وايصاله الى سائر اجزاء البدن والمعدة التي هي خزانة الطعام والشراب وحافظته لمستحقيه والقلب الذي هو منبع الحرارة ومعدن الحياة والمستولي على مملكة البدن والرئة التي تروح عن البدن وتفيده الهواء البارد الذي به حياته واللسان الذي هو بريد القلب وترجمانه ورسوله والسمع الذي هو صاحب اخباره والبصر الذي هو طليعته ورائده والكاشف له عما يريد كشفه والاعضاء التي هي خدمه وخوله والرجلان تسعى في مصالحه واليد يبطش في حوائجه والاسنان تفصل قوته وتقطعه والعروق توصله الى أربابه والذكر آلة نسله وأنثياه خزانة مادة النسل والكبد للغذاء وقسمته وهي في الحيوان بمنزلة شرش الشجر والنبات تجذب الغذاء وترسله الى جميع الاجزاء وآلات الغذاء خدم لها والقلب للارواح التي بها حيات الحيوان وآلات النفس خدم لها والدماغ معدن الحس والتصور والحواس خدم له والانثيان معدن التناسل والذكر خدم لها وهذه الاعضاء هي رأس أعضاء البدن

﴿ فصل ﴾ وأما آلات الغذاء فثلاثة أقسام آلة تقبل الغذاء وتصلحه وتفرقه وترسله الى جميع البدن وآلة تقبل فضلاته وآلة تعين في اخراج ثقله ومالا منفعة في بقائه فالآلات القابلة فهي الفم والمرى والبطن والكبد والعروق الموصلة الى الكبد والعروق الموصلة منها الى البدن

﴿ فصل ﴾ وأما الآلات القابلة للفضلات فالمرارة تقبل مالطف منه والطحال يقبل كثيفه والكلى والمثانة يقبلان المتوسط والكبد موضوعة في الجانب الايمن وتأخذ يسيرا الجانب الايسر وهذه الحكمة بديعة وهي أن القلب في الجانب الايسر أقرب وهو معدن الحار الغريزي فتجنب عنه الكبد قليلا لئلا يتأذى بحرارتها وجعل في أوعية الغذاء قوى خادمة له فالفم مع كونه يقطع الغذاء ويطحنه يحيله ويغيره والمرى مع كونه منفذا الى المعدة يغيره تغييرا ثانيا والمعدة مع كونها خزانة حافظة له تنضجه وتطبخه وتغيره تغييرا ثالثا وتهضمه وتبقى منه مالا يصلح وتخرجه وتدفعه الى مخرج الثقل فان الطعام اذا استقر في المعدة اشتملت عليه وانضمت غاية الانضمام ثم انضجته بحرارتها ثم يتولاه الكبد وتشتمل عليه وتقلبه دما خالصا ثم تقسمه على جميع الاعضاء قسمة عدل لاجور فيها ولاحيف ولما كانت المعدة

حوض البدن الذي يرده أجزاء البدن من كل ناحية اقتضت الحكمة الالهيـة جعلها في وسطه وخالص الغذاء يتأدى الى الكبد من شعب كثيرة ويجتمع في موضع واحد واسع يسمى باب الكبد وجمع العروق التي تتصل بالمعدة والامعاء والطحـال تستجمع وترتـقي الى باب الكبد والمعدة تجذب الموافـق ويبقى المخالف المنافي الذي عجزت قوتها عنه ثم ان الكبد تصفيه وتنقيه بعد اجتذابه مرة أخرى وتنفي عنه غير الموافق وقد أعد الصانع الحكيم سبحانه لتنقية الدم من الكبد ثلاثة خدام فارهين قائمين بالمرصاد بلا كسل ولا فتور وقد وضع كل منها في المكان اللائق به ونصبه نصبة بها يكون امكن من عمله ولما استقر الغذاء في المعدة وطبخته وانضجته صارت فضلاته ثلاثة فضلة كالدرى الراسب وفضلة كالرغوة والزبد الطافي وفضلة مائية فجعل كل خادم من هذه الخدام الثلاثة على فضلة لا يتعداها الى الاخرى ليجذبها من مجرى خادم الفضلة الخفيفة الطـافية وهى الصفرة المرارة نصبها الرب تعـالى فوق الكبد لان المجتذب هو الفضلة الطـافية ومكانها فوق مـكان الدرى الراسب وخادم الفضلة التي هى كالدرى الراسب الطحـال ونصبـه الخـلاق العليم اسـفل من باب الكبد حيث كان مايجتذ به من سفل ولم يكن في الجـانب الايمن لان المعدة قـد شغلت ذلك الجـانب وكان الجانب الايسر خاليا فلما تعده فاذا نقى الدم من هاتين الفضلتين خدمه الخادم الثالث وهو الكبد وقد بقى أحـمر نقى اللون مشرقا نورانيا ويصل اليهـا من عرق عظيم يسمى الاجـوف من يوزع من هنالك على جهة البدن العليا والسفلى في رواضع كثيرة العدد مابين كبير وصغير ومتوسط كلها تتصل بالعرق الاجوف وتمتاز منه ومادام الدم في هذا العرق ففيه مائية غير محتاج اليهـا لانها كانت مـتركب الغذاء فلمـا وصلت الى مستقر مايستغنى عنها فاحتاج ولابد الى اخراجها ودفعها ولو لم يبادر الى ذلك أضرت به فخلق الله سبحانه الكليتين يمتصان هذه الفضلة بعنقين طويلين كالانبوبين وبفرغانها في المثانة بعرقين آخرين وضعهما سبحانه أسفل من الكبد قليلا حيث يكون امكن لتخليص المائية كالروق المصارات وأما المرارة فوضعها الله سبحانه فوق الكبد لانها بمنزلة السفنجة أو القطنة التي يقطف بها الـذهب عن وجه الرطوبات وأما الطحال فوضعها أميل الى اسفل لانه بمنزلة مايجتذب الاشياء المصونة اذا رسبت

❁ فصل ❁ اذا انتقى الدم من هذه الفضول كلها وعملت فيه هذه الخدم بقواها التي أودعها فيها هذا العمل وأصلحته هذا الاصلاح عمل ملك الاعضاء والجوارح وهو القلب فيه عـملا آخر فقصده بحرارة أخرى وهى أقوى من حرارة الكبد

❁ فصل ❁ وجعل سبحـانه في المعدة أربـع قوى قوة جاذبة للملائم وقوة منضجة له وقوة ممسكة له وقوة دافعة للفضلة المستغنى عنها منه ورئيس هذه القوى هى القوة المنضجة وسائرها خدم لها وخصت المعدة عن سائر الاعضاء بأن أودع فيها قوة تحس بالجوع والنقصان وخاصته فمها لتنبه الحيوان على تناول الغذاء عند الحاجة وأما سائر الاعضاء فانها تغتذي بالنبات باجتذاب الملائم اليها ولما احتاجت المعدة الى قوة وحس بالجوع ولم يكن ذلك الامن معـدن الحواس وهو الـدماغ اتاها روح العصب عظيم ما نبت أكثرها في فمها ومايليه ومن باقيه مستقيمـا حتى يبلـغ قعرها فان قيل فالحكمة في ان باعد سبحانه بين المعدة والفم وجعل بينهما مجرى

طويلا وهو المرى وهلا اتصلت المعدة بالفم واستغنت عن المرى قيل هذا من تمام حكمة الخالق وفيه منافع كثيرة منها أن يحصل للغذاء تغير ما فى طريق المجرى فيلطف قبل وصوله اليها ومنها بعده عن آلة التنفس لئلا تعوقه ويعوق الصوت والكلام وان لا تنقلب المعدة الى خارج عند شدة الجوع كما يعرض ذلك لحيوان الشره اذا كان قصير العنق فان قيل فلم كانت الى جانب الايسر أميل منها الى الجانب الايمن قيل ليتسع المكان على الكبد ولا ينحصر فان قيل فهلا كانت مستقيمة فى وضعها بل مال اسفلها الى الجانب الايمن قيل ليتسع المكان على الطحال حيث كان أخفض موضعا من الكبد فان قيل فلم جعلت مستطيلة مدورة وجعلت مما يلى الصلب مسطحة قيل لما وضعها الله بين الكبد والطحال جعلها مستطيلة وكانت مستديرة لتتسع للطعام والشراب وكان اسفلها أوسع من اعلاها لذلك وجعل لها مدخلا وهو المرى ومخرجا يسمى البواب وجعل البواب اضيق من المرى لان ما يبتلعه يكون أصلب واخشن مما يخرجه فيجعل مدخل الداخل أوسع من مخرج الخارج لا يطلاخه فى المعدة ولينه ولحكم أخر منها أن لا يزال منه الطعام والشراب قبل نضجه واناه ولتقوى المعدة على حبسه وليخرج أولا فأولا لا دفعة واحدة والمرى يتسع بالتدريج حتى يبلغ المعدة ولذلك يظن أنه جزء منها وأما البواب فان الجزء الضيق يتصل بأسفلها الذى هو أوسعها ثم يتسع على التدريج ليسهل خروج الفضلة

﴿ فصل ﴾ والكبد منطبقة على المعدة محتوية عليها بزوائدها تسخنها والطحال يسخنها من الباب الايسر والصلب يسخنها من خلف والترائب من قدامها والترائب مؤلفة من طبقتين رقيقتين تنطبق احداهما على الاخرى بشحم كثير وهو غشاء الامعاء كلها وليا سها ثم غشى البطن كله بغشاء واحد يقى الاحشاء ويمنع من انفتاح المعدة والامعاء بالرياح ويربط جملة آلات الغذاء ولم يجعل فى الكبد تجويف كتجويف القلب لتحتوى على الدم احتواء ممكنا وتحيله احالة بليغة وللكبد ثلاث شباك من العروق شبكة بينها وبين المعدة والامعاء وشبكة فى مفرعها وشبكة فى محدبها فالشبكة الاولى تجذب الغذاء وتحيله بعد أن أحاله وفى الشبكة الثانية يصير دما وفى الشبكة الثالثة يزداد صفاء وترويقا وللكبد بالقلب والدماغ اتصال بشظة من العصب خفية كنسج العنكبوت ولما كانت النفس المغذية بمنزلة حيوان غائب وحشى وكل جسم يموت فلابد أن تتصل به هذه النفس وتغذوه بخلاف النفس المفكرة التى محلها الدماغ وبخلاف النفس الغضبية التى محلها القلب فالنفس المفكرة تستعين بالنفس الغضبية على تلك النفس الحيوانية الغائبة الوحشية اقتضت حكمة الخالق سبحانه أن وصل بين محل هذه الانفس الثلاثة وسمها ليذعن بعضها لبعض ولا تنكر تسمية هذه القوى نفوسا فليس الشأن فى التسمية فأنت تجد فيك نفسا حيوانية تطلب الطعام والشراب ونفسا مفكرة سلطانها على التصور والعلم والشعور ونفسا غضبية سلطانها على الغضب والارادة وتضرب كل واحدة منها فيما جعل اليه وبعضها عون لبعض فمحل النفس الحيوانية الكبد ومحل المفكرة الدماغ ومحل الغضبية القلب

﴿ فصل ﴾ وتأمل الحكمة فى أن جعلت صفاقات عروق الكبد أرق من صفاقات سائر عروق البدن لينفذ الى الكبد فوق جوهر الدم بسرعة وهى مع ذلك غير محتاجة الى الوقاية

لان الكبد تحوزها بلحمها وانما وضعت مجارى المرة الصفراء بعد العروق التى تصعد الغذاء من المعدة وقبل العروق التى تأخذ الدم منها لان هذا الموضع هو بين موضع كمال الطبخ وبين انتقاله الى العرق الاجوف وحينئذ يمكن انفصال المرة عن الدم وجمعت العروق كلها الى عرق واحد هو الباب ثم عادت فتقسمت فى مقعر الكبد ثم عادت فجمعت فى محدبها الى عرق واحد وهو الاجوف لتجيد بتقسمها انضاج ماتحتوى عليه ولئلا ينفذ بسرعة وكذلك كل موضع احتيج فيه الى طول مكث المادة حين بقاؤها فيه بطول مسلكها وكثيرة تعاريجه كما فعل فى مجارى المنى وشبكة الدماغ وهذا شأن العروق الجواذب وأما العروق الضوارب فبالعكس من ذلك فانها جمعت فى مقعر الكبد دون محدبها لانه موضع الدم وحاجته الى المعدية بالحرارة مساسة قال جالينوس ولا تقسم العروق الضوارب فى محدب بعلم الخالق سبحانه انه جذبه الكبد تحرك دائما بمجاورة الحجاب فيقوم لها ذلك مقام حركة العروق الضوارب وجعلت هذه العروق الضوراب رقاقا لانها انما وضعت لترويح الكبد لالتغذيتها ولالاتصال روح اليها اذ ليس بالكبد حاجة الى قبول روح حيوانى كثير ولا يحتاج لحمها الى غذاء لطيف بخارى

﴿ فصل ﴾ وأحرز الصانع سبحانه موضع الكبد ووضعها بأن ربطها بالمعدة والامعاء كلها بالعروق وبالغشاء الممدود على البطن الذى يشد جميعها ووصل بها رباطات من جميع النواحى وغشاؤها الرابط يتصل بالحجاب برباط قوى ورباط الكبد بالحجاب حين صلب وثيق لان الكبد معلقة به وهو أصلب من غشاء الكبد بشدة الحاجة الى الصلابة لانه يحرز الكبد والعرق الاجوف متى ناله آفة مات الحيوان كما تهلك اغصان الشجرة اذا أصاب ساقها آفة وجعل أرق هذه الرباطات من خلف يشده بالعظام وأغلظه من قدام حيث لا عظام هناك تقيه وهذا من شدة الاسر الذى قال الله تعالى فيه نحن خلقناهم وشددنا أسرهم شدا أوصالهم بالرباطات المحكمة وجعل خلقهم بعضه الى بعض ولما كان الحجاب آلة شريفة للنفس بوعد من العضوين المجاورين له وهما المعدة والكبد بمقدار حاجته لئلا يزحماه ويعوقاه عن فعله فبوعدت المعدة عنه بطول مجراها

﴿ فصل ﴾ واما الطحال فبعضهم يقول انه لا نفع فيه وانما شغل المكان به لئلا يبقى فارغا فيميل أحد شقى البدن بثقل الكبد فجعل موزونا للكبد قلت وهذا غلط من وجه وصواب من وجه اما الصواب فمن الحكم العجيبة جعل الطحال فى الجانب الايسر على موازنة الكبد لئلا يميل الشق الايمن بها ولا يمكن أن تقوم المعدة بموازنة الكبد لانها دائما تمتلئ وتخلو فتارة تكون أخف من الكبد وتارة أرجح منها فيصير البدن مترجحا أو يميل الى شق الكبد وقتا والى شق المعدة وقتا آخر فجعل الخالق سبحانه الطحال يوازن الكبد وجعل المعدة بينهما فى الوسط لئلا يثقل جانب ويشف آخر عند امتلائها وخلوها فلما جعلت وسطا لم تختلف وضع اليدين باختلافها وأما الغلط فقوله انه لامنفعة فيه وانما يشغل المكان لئلا يبقى فارغا فانه لو لم يعلم فيه منفعة لم يكن له أن ينفيها فان عدم العلم بالمنفعة لا يكون علما بعدمها ولاشئ فى البدن خال عن المنفعة ألبتة وفى الطحال من المنافع أنه يجذب الفضلة الغليظة العكرية السوداء من الكبد نوعا من جنس العروق كالعنق له فاذا حصلت تلك

الفضلة عنده انضجها وأحالها وهو ينضج غليظ الدم وعكره كما ينضج قوام لون غليظ الغذاء
ويابسه ويستعمل فى فعله العروق الضوارب الكثيرة المبثوثة فيه كلها فما نضج واستحال الى
طبيعة صار غذاء له ومالم يمكن أن ينقلب الى الدم الموافق له قذفه الى المعدة بعنق آخر من
جنس العروق وانما أمكنه جذب الفضل الاسود بقوة لحية لانه رخو متخلخل مجنف
كالاسفنج ولما اتصلت به العروق الضوارب الكثيرة استغنى بها عن انضاج الفضول
السود وليبقى لحمه خفيفا متخلخلا لان دم الشرايين رقيق لطيف قريب طبيعته البخار فما
اغتذى به كان خفيفا كالرئة ولكن الرئة تغتذى بما صفا ورق وأشرق وكان أحمر ناريا وكذلك
الرئة كانت أخف وزنا منه وأسخف جرما ومائلة الى البياض وأما الطحال فيغتذى بماء لطيف
من الخلط الاسود وانطبخ فى الشرايين فيسترخ منه البدن ويغتذى به الطحال فالطحال
يغتذى بغذاء لطيف من غذاء الكبد لانه يرشح اليه من الشرايين التى صفا فأيهما يجبه جدا
ولاجل سواد تلك الفضلة وكونها عكرة فى الاصل لم يكن لون الطحال أحمر ولا مشرقا
فأما الكبد فتغتذى بدم غليظ فاضل يرشح اليها من العروق غير الضوارب فلجودة غذائها
كان لونها أحمر ولفضلته كانت كثيفة فالكبد تغتذى بدم أحمر غليظ والطحال بدم أسود
لطيف والرئة بدم صاف مشرق فى غاية النضج قريب من طبيعة الروح فجوهر كل عضو
على ماهو عليه صير غذاءه مثالا له فالغاذى شبيه بالمغتذى فى طبعه وفعله وهذا كما أن حكمة
الله سبحانه فى خلقه فيه جرت حكمته فى شرعه وأمره حيث حرم الاغذية الخبيثة على
عباده لانهم اذا اغتذوا بها صارت جزأ منهم فصارت أجزاؤهم مشابهة لاغذيتهم اذ
الغاذى شبيه بالمغتذى بل يستحيل الى جوهره فلهذا كان نوع الانسان اعدل أنواع الحيوان
مزاجا لاعتدال غذائه وكان الاغتذاء بالدم ولحوم السباع يورث المغتذى بها قوة شيطانية
سبعية عادية على الناس فمن محاسن الشريعة تحريم هذه الاغذية وأشباهها الا اذا عارضها
مصلحة أرجح منها كحال الضرورة ولهذا اكلت النصارى لحوم الخنازير فأورثتها نوعا
من الغلظة والقسوة وكذلك من أكل لحوم السباع والكلاب صار فيه قوة ولما كانت
القوة الشيطانية عارضة ثابتة لازمة لذوات الانياب من السباع حرمها الشارع ولما كانت
القوة الشيطانية عارضة فى الابل أمر بكسرها بالوضوء لمن أكل منها ولما كانت
الطبيعة الحمارية لازمة للحمار حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم لحوم الحمر الاهلية
ولما كان الدم مركب الشيطان ومجراه حرمه الله تعالى تحريما لازما فمن تأمل حكمة الله
سبحانه فى خلقه وأمره وطبق بين هذا وهذا فتح له بابا عظيما من معرفة الله تعالى وأسمائه
وصفاته وهذا هو الذى حركنا لبسط النفس فى هذا المقام الذى لايكاد أن يرى فيه الا احد
طريقين طريقة طبيب معترض للوحى مقلد لبقراط وطائفته قد عبرت عينه على الرسل وما
جاؤا به وهو ممن قال تعالى فيه فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق
بهم ما كانوا به يستهزؤن وطريقة من يجحد ذلك كله ويكذب قائله ويظن منافاته للشريعة
فيجحد حكمة الله تعالى فى خلقه وابداعه فى صنعه وكلا الطريقين مذموم وسالكه من الوصول
الى الغاية محروم فلا نكذب بشرع الله ولا نجحد حكمة الله وأكثر ما افسد الناس انهم لم يروا

الاطباء اما زنديقا منحلا عن الشرائع او متساهلا قادحا فيما جرت به حكمة الله ومشيئته في خلقه منكرا للقوى والطبائع والاسباب والحكم والتعليل فاذا اراد الاول ان يدخل في الاسلام صده جهل هؤلاء ومكابرتهم للمعقول والحس واذا اراد ان يدخل في معرفة الحكم والغايات وما اودع الله في مخلوقاته من المنافع والقوى والاسباب صده زندقة هؤلاء وكفرهم واعراضهم عن ماجاءت به الرسل وقدحهم فيما عندهم من العلم فيختار دينه على عقله ويختار ذلك عقله وما استقر عنده مما لا يكابر فيه حسه ولاعقله على الدين وهذا قد بلا الخلق الاطباء والطبائعيين احد انواع ادلة التوحيد والمعاد وصفات الخالق وما اخبرت به الرسل هو من اظهر ادلته ولايزداد الباطن فيه الا ايمانا وما اخبرت به الرسل لايناقض ماجرت به عادة الله وحكمته في خلقه من نصب الاسباب وترتيب مسبباتها عليها بعلمه وحكمه فمصدر خلقه وامره علمه تعالى وحكمته وآلاء الرب تعالى لا تتعارض ولاتتناقض ولا يبطل بعضها بعضا والله أعلم

﴿ فصل ﴾ والكبد والطحال متقابلان والمعدة بينهما والعروق الضوارب تتصل بها المعدة والقلب بمنزلة التنور أو بمنزلة أتون الحمام يسخن ماؤه وله الى كل بيت منفذ ينفذ فيه وهج النار اليه وكذلك الحار الغريزى الذى منبعه من القلب ينفذ فى مسالك ومنافذ الى جميع الاعضاء فيسخنها

﴿ فصل ﴾ وجعلت الاعضاء مسلكا مؤديا والمعدة هى الآلة تهضم الغذاء واستقراؤه والامعاء تؤدى ذلك الى الكبد ولما كانت الامعاء آلة الاداء والاتصال كثرت لفائفها وطولها كانت العروق التى تأتيها من الكبد لاتحصى كثرة لينفذ فيها الغذاء أولا فأولا وتستفيضه يسيرا يسيرا فلو لاتطويل لفائف الامعاء لكان يخرج قبل اخذ خاصيته وكان يعرض اليهم بشهوة الاكل دائما وكان الانسان يعدم التفرغ لمصالحه وسائر اعماله وكان دائما مكبا على الغذاء ولهذا صار الحيوان الذى ليس لامعائه استدارات بل له معاء واحد مستقيم مكبا على الغذاء دائم عديم الصبر عنه كالفيل وأما مالامعائه استدارات فانه اذا فارقه الغذاء اوبعضه فى الاستدارة الاولى صادفه فى الثانية فان هو فاته فى الثانية صادفه فى الثالثة والرابعة والخامسة كذلك فيمكن صبره على الغذاء حكمة بالغة ومايتفذ الى الامعاء يبعث من العروق الضاربة يأخذ من الغذاء جزأ يسيرا لطيفا وأما العروق غير الضاربة هى مجارى الغذاء بالحقيقة فأخذت اكثره وأما العروق الضاربة فجعلت مسلكا للارواح المنبعثة من القلب فاستغنت بقليل الغذاء وجعل القلب وصلة بالامعاء ليحسنها أولا ويدهنها بقوة الحار باذن خالقه ثم يأخذ منها الجزء الملائم من الغذاء المستغنى عن فضل الكبد للطافة جوهره فان هذا الجزء اوحصل فى الكبد لم يؤمن اسرافه وفساده فلاينتفع به القلب ثم يأخذ منها عندشدة الحاجة وصدق المجاعة فيتعجل ذلك من أدنى المواضع ولذلك يشاهد من اكل مسنبة شديدة بحس بزيادة وغناء فى كل اعضائه حتى مايرالطعام بالمعدة قبل استقراره فيها فسبحان من اتقن ماصنع ولما كانت المعدة آلة هضم الغذاء والامعاء آلة دفعه جعل للامعاء طبقتان ليقوى دفعها بهما جيعا وليكون حرزا لها وحفظا ولذلك من تعرض له قرحة الامعاء بانجراد احد الصفاقين يبقى الآخر سليما

وجعلت الامعاء الغلاظ لقذف الثفل والرقاق لتأدية الغذاء والسبب فى أن صار الانسان لا يحتاج الى تناول الغذاء دائما كثرة لفائف امعائه والسبب المانع من قذف الفضول دائما سعة الامعاء الغلاظ التى تقوم لها مقام وعاء آخر شبيه بالمعدة فى السعة كما أن المثانة وعاء للبول كذلك

﴿ فصل ﴾ ونحن نذكر فصلا مختصرا فى هذا الباب نجمع ذلك شأنه بايضاح وايجاز ان شاء الله تعالى به الحول والقوة فنقول المرى موضوع خلف الحلقوم وعلى فقار الظهر وينتهى فى ذهابه الى الحجاب وهو مشدود برباطات فاذا ابعد مال الى الجانب الايسر واتسع وذلك المتسع هو المعدة واسفلها يعود مايلا الى اليمين والمعدة مقر طبخه وفمها هو المسدف منها ويسمونه الفؤاد وهذا من غلطهم الا أن يكون ذلك اصطلاحا خاصا منهم والفؤاد عند أهل اللغة هو القلب قال الجوهرى الفؤاد القلب وقال الاصمعى وفى الجوف الفؤاد وهو القلب وقد فرق بعض أهل اللغة بين القلب والفؤاد فقال الليث القلب مضغة من الفؤاد معلقة بالنياط وقالت طائفة مسدف القلب وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم جاءكم أهل اليمن ارق قلوبا والين أفئدة ففرق بينهما ووصف القلب بالرقة والافئدة باللين واما كون فم المعدة هو الفؤاد فهذا لا نعلم أحدا من اهل اللغة قاله وتأمل وصف النبى صلى الله عليه وسلم القلب بالرقة التى هى ضد القساوة والغلظ والفؤاد باللين الذى هو ضد اليبس والقسوة فاذا اجتمع لين الفؤاد الى رقة القلب حصل من ذلك الرحمة والشفقة والاحسان ومعرفة الحق وقبوله فان اللين موجب للقبول والفهم والرقة تقتضى الرحمة والشفقة وهذا هو العلم والرحمة وبهما كمال الانسان وربنا وسع كل شئ رحمة وعلما فلنرجع الى ما نحن بصدده فنقول المعدة مع المرى ذات طبقتين لطيفتين واللحم فى الطبقة الداخلة أقل ولهذا يغلب عليها البياض وهى عصبية حساسة وهى فى الطبقة الخارجة اكثر ولهذا يغلب عليها الحمرة وهى مربوطة مع الفقار برباطات وثيقة وتنتهى من جهة قعرها الى منفذ هو باب المعدة وبوابها يغلق عند اشتماله على الغذاء مدة هضمه ويقال لباطن جرم المعدة خمل المعدة والامعاء المصارين وهو جمع مصران بضم الميم وهو جمع مصير وسمى مصير المصير الغذاء اليه والسفلى يقال لها الاقتاب ومنه قوله صلى الله عليه وسلم فتندلق أقتاب بطنه والعليا أرق من السفلى لما تقدم من الحكمة وأعلى الرقاق يسمى الاثنى عشرى لان مساحته اثنا عشر اصبعا ويليه المسمى بالصائم لقلة لبث الغذاء فيه لا لانه يوجد أبدا خاليا كما ظنه بعضهم فان هذا باطل حسا وشرطا كما سنذكره والثالث المسمى بالرقيق والفائف وهو اطول الامعاء واكثرها تلافيف ولبث الغذاء فيه أطول والعروق التى تأتيه من الكبد اقل واما الذان قبله فتنصبان فى طول البدن قصيران ويقل لبث الغذاء فيهما وهو فى الصائم أقل لبثا وهذه الثلاثة تسمى الامعاء العليا والامعاء الرقاق وهى كلها فى سعة البواب واما الدامع وهو الاول من الثلاثة السفلى فيسمى الاعور لانه لا منفذ له بل هو كالكيس يخرج منه ما دخل من حيث دخل وحكمته سبحانه يتم فيه ما يعسر هضمه من الاشياء الصلبة كما يتم ذلك فى قوانص الطيور ووضعه فى الجانب الايمن والخامس المسمى بقولون يبتدئ من الجانب الايمن ويأخذ عرضا الى الايسر ويحتبس فيه الثفل وربما يستقضى ما فيه والسادس هو الآخر وهو المعى المستقيم لانه مستقيم الوضع فى طول البدن وهو واسع جدا يجتمع فيه الثفل كما يجتمع البول فى المثانة وعليه العضلة المانعة

بخروج الثفل بدون الارادة وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال المؤمن يأكل فى معاء واحد والكافر يأكل فى سبعة امعاء وأطلق على المعدة اسم المعاء تغليبا ولمشابهتها بالامعاء تكون كل واحدة من الامعاء والمعدة محلا للغذاء وهذا لغة العرب كما يقولون القمران والعمران والركنان اليمانيان والشاميان والعراقيان ونظائر ذلك ولاسيما فان تركيب الامعاء كتركيب المعدة اذهى مركبة من طبقتين لحمية خارجة وعصبية داخلة والطبقة الداخلة منها لزوجات متصلة بها لتقيها من حرالمبرازورداه كثيفة ولزيقة فلا تمسكه ولا يتعلق بها شيء منه ولما كان الكافر ليس فى قلبه شيء من الايمان والخير يغتذى به انصرفت قواه ونهمته كلها الى الغذاء الحيوانى البهيمى لما فقد الغذاء الروحى القلبي فتوفرت امعاؤه وقواه على هذا الغذاء واستفرغت امعاؤه هذ الغذاء وامتلأت به بحسب استعدادها وقبولها كما امتلئت به العروق والمعدة واما المؤمن فانه انما يأكل العلقة ليتقوى بها على ما أمر به فهمته وقواه مصروفة الى امور وراء الاكل فاذا اكل مايغذيه ويقيم صلبه استغنى قلبه ونفسه وروحه بالغذاء الايمانى عن الاستكثار من الغذاء الحيوانى فاشتغل معاؤه الواحد وهو قولون بالغذاء فأمسكه حتى أخذت منه الاعضاء والقوى مقدار الحاجة فلم يحتج الى ان يملأ امعاءه كلها من الطعام وهذا أمر معلوم بالتجربة واذا قويت مواد الايمان ومعرفة الله واسمائه وصفاته ومحبته والشوق الى لقائه فى القلب استغنى بها العبد عن كثير من الغذاء ووجد لها قوة تزيد على قوة الغذاء الحيوانى فان كثفت طباعك عن هذا وكنت عنه بمعزل فتأمل حال الفرح والسرور بتجدد نعمة عظيمة واستغنائه مدة عن الطعام والشراب مع وفور قوته وظهور الدموية على بشرته وتغذيه بالسرور والفرح ولا نسبة لذلك الى فرح القلب ونعيمه وابتهاج الروح بقربه تعالى ومحبته ومعرفته كما قيل

لها أحاديث من ذكراك تشغلها * عن الطعام وتلهيها عن الزاد

وقد قال صلى الله عليه وسلم فى الحديث المتفق على صحته انى اظل عند ربى يطعمنى ويسقينى وصدق الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه فان المقصود من الطعام والشراب التغذية الممسكة فاذا حصل له اعلى الغذائين وأشرفهما وأنفعهما فكيف لا يغنيه عن الغذاء المشترك واذا كنا نشاهد ان الغذاء الحيوانى يغلب على الغذاء القلبي الروحى حتى يصير الحكم له ويضمحل هذا الغذاء بالكلية فكيف لا يضمحل غذاء البدن عن استيلاء غذاء القلب والروح ويصير الحكم له وقد كان صلى الله عليه وسلم يمكث الايام لا يطعم شيئا وله قوة ثلاثين رجلا ويطوف مع ذلك على نسائه كلهن فى ليلة واحدة وهن تسع نسوة وهذا المسيح ابن مريم صلى الله عليه وسلم حى لم يمت وغذاؤه من جنس غذاء الملائكة وانت تشاهد المريض يمكث الايام العديدة لا يأكل ولا يشرب لاشتغال نفسه بمحاربة المرض ومدافعته واكتفاء الطبيعة ببقية الغذاء الذى فى الامعاء والمعدة مع مدة الحرب فاذا وضعت الحرب أوزارها رأيت شدة طلبه للغذاء فانك ترى المحب والفرح والحزين والمستولى عليه الفكر لا تطالبه نفسه من الغذاء الخالى من ذلك

﴿ فصل ﴾ والكبد عضو لحمى تتخلله عروق رقاق وغلاظ وعلى الكبد غشاء عصبى حساس يحيط بها وينتهى الى غلافه والكبد هى الاصل فى الغذاء وآلات الغذاء خدم لها ومعينات فان الانسان لما كان كالشجرة المستقلة جعل له مايقوم مقام النهر الجارى فى اصول

الشجر يسقيها وهو الامعاء والمعدة بمنزلة العين وتجرى منها السواقى وعروق الكبد المتصلة بالامعاء بمنزلة عروق الشجرة المتصلة بأرض الساقية فتمص الماء منها وتؤديه الى الشجرة واغصانها وورقها واثمارها وهذه العروق تمص الماء من الطين والثرى وكذلك عروق الكبد تمتص صفو الماء وخالصه من كلوليته وتحيله الى طبيعة الاعضاء كما تفعل عروق الشجرة وشكل الكبد شكل هلالى محدب من ظاهره مقعر من باطنه وهى تحت الاضلاع الخس ولها خمس شعب يقال لها الزوائد تحتوى على المعدة كما تحتوى الكف بأصابعها على الشئ المقبوض ويقال للشعبة الصغيرة منها خاصة زائدة الكبد وفى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم ان سبعين ألفا من أهل الجنة يأكلون من زيادة كبد الحوت الذى هو أول طعامهم وهذا يدل على عظم قدر هذه الزائدة فما الظن بالكبد التى هى زائدة فكيف بالحوت الذى حواها ومقعرها يسمى المورد لانه يورد الغذاء من المعدة والامعاء ويسمى باب الكبد ثم تنشعب هذه العروق من جانبيه بشعب تتصل بالامعاء وتسمى الجداول لشبهها بالسواقى الصغار تؤدى الى مقرة عظيمة ولهذه الجداول أغشية من فوقها ومن تحتها فتستدير مع الامعاء العروق المتصلة بها وتسمى هذه الاغشية وما تحويه المرابط

﴿ فصل ﴾ والعرق الثانى ينقسم فى مجذبها الى عروق صغار واصغر منها حتى تبلغ غاية الرقة ثم تعود وتجمع أولا فأول على قياس ما تفرق وأخذ من كثرة الى وحدة ومن رقة الى غلظ حتى يجتمع منها العرق الخارج من الكبد المسمى بالاجوف ومنها يتأدى الدم الى البدن كله وحين يخرج ينقسم قسمين فيأخذ أحدهما نافذا فى الحجاب نحو القلب ويسمى الوتين قال أهل اللغة الوتين عرق يسقى القلب قال فى الصحاح الوتين عرق فى القلب اذا انقطع مات صاحبه ووتينه أصيب فهو موتون وقال الواحدى الوتين نياط القلب وهو عرق يجرى فى الظهر حتى يتصل بالقلب اذا انقطع بطلت القوى ومات صاحبه وهذا قول جميع أهل اللغة وأنشدوا للشماخ

اذا بلغتنى وحملت رحلى * عرابة فاشرقى بدم الوتين

وقال ابن عباس وجمهور المفسرين هو حبل القلب ونياطه وأما الابهر الذى قال فيه النبى صلى الله عليه وسلم هذا أوان انقطاع أبهرى فقال الجوهرى الابهر عرق اذا انقطع مات صاحبه وهما أبهران يخرجان من القلب ثم تنشعب منهما سائر الشرايين وأنشدوا للاصمعى

وللفؤاد وجيب عند أبهره * لدم الغلام وراء الغيب بالحجر

﴿ فصل ﴾ والمرارة موضوعة على الكبد ولها مجريان أحدهما متصل بتقعير الكبد يجتذب المرة الصفراء والآخر متصل بالامعاء العليات نصب المرة ليغسلها ويجليها ويتصل منه السر بأسفل المعدة ليمتزج بالغذاء فيكون فيه معونة على هضمه

﴿ فصل ﴾ والقوة التى وكلها الله سبحانه وتعالى بتدبير البدن من أعظم آياته الدالة عليه فانها تفعل فى الطعام والشراب الواردين عليه أفعالا متنوعة من تقطيع وتفصيل وتفريغ وتحليل وتركيب فيبدأ ذلك فى الفم وهو تقطيعه بالاسنان ومضغه واختلاطه بالرطوبات التى فيه وانهضامه منه انهضاما تاما ثم بعد ذلك عند وروده الى المعدة تهضمه هضما آخر

ويسمى الهضم الاول ويعينه على هضمه مايجاورها من الاعضاء فى الكبد عن يمينها والطحال عن يسارها والقلب من فوقها والمرى امامها والامعاء السبل الموصلة اليها والعروق الطرق المؤدية منها والحرارة النار الطابخة للطعام فيها والقوة الهاضمة والجاذبة والغاذية والدافعة خدم لها فاذا انهضم الطعام فيها صار كيلوسا شبيها بماء الكشك الثخين ثم تنهز صوبه ولطيفه فتنفذه العروق الرقاق الشعرية اليهن برقة الشعر وينجذب الى الكبد فاذا ورد هذا اللطيف الى الكبد اشتملت عليه بجملته فطبخته وتهضمته واحالته الى جوهرها وصيرته دما ويسمى هذا الهضم الثانى ولما كان هذا الانضاج والطبخ يشبه طبخ القدر علاه شئ كالرغوة والزبد وهو الصفراء ورسب منه شئ مثل العكر وهو السوداء وتخلف على تمام النضج شئ بقى على فجوجته وهو البلغم والشئ الذى يصفى ويبقى من ذلك كله هو الدم فاندفع من الكبد فى العرق الاعظم المعروف بالاجوف بعد ان تصفت عنه المائية الى آلة البول فيسلك هذا الدم فى الاوردة المتشعبة من الاجوف ثم فى جداول متشعبة من الاوردة ثم فى سواقى متشعبة من الجداول ثم فى رواضع مشتقة السواقى ثم فى عروق رقاق شعرية ثم يرشح من أفواهها فى الاعضاء لتغتذى به فضله الاعضاء وتصيره به بجوهرها فيصير فى اللحم لحما وفى العظم عظما وفى العصب عصبا وفى الظفر ظفرا وفى الشعر شعرا وفى السمع والبصر وآلة الحس كذلك فتبارك من هذا صنعه فى قطرة من ماء مهين

﴿ فصل ﴾ والدم هو الخلط الاصلى والغذاء الحقيقى للبدن والخلف عليه بدل ماينقص ويتحلل منه والاخلاط الاخر كالابازير والتوابل وهى صنفان صنف لطيف وهو دم القلب وغليظ وهو دم الكبد ومثله مثل السلطان اذا كان وقورا حليما ساكنا عاشت به رعيته واذا غضب واحتد قتل

﴿ فصل ﴾ وأما البلغم فخلط فج مستعد لان يستكمل نضجه عند عوز الغذاء اذا تولته الحرارة الغريزية فهضمته وصيرته دما فتسكون فى المعدة والامعاء وفى الكبد عند قصور الهضم وفيه من المنفعة أنه يرطب البدن ويبل المفاصل لسلس حركاتها ويخالط الدم فى تغذية الاعضاء البلغمية المزاج كالدماغ فان قيل لما كانت الاعضاء محتاجة ان يكون قريبا منها الترطيبها لم يحمل له عضو يختص به لاسيما والاعضاء تغتذى به اذا أعوزها الغذاء

﴿ فصل ﴾ وأما الصفراء فخلط لطيف حار وحاجة البدن اليها فى ان تخالط الدم وترقه بلطفها وتنفذه فى المسالك الضيقة ولتعينه فى تغذية الاعضاء الحارة اليابسة وماينفصل عنها ممايستغنى عنه يتصفى الى المرارة لتأخذ نصيبها منه وماتستغنى عنه المرارة تصبه الى الامعاء ليغسلها من لطخة الاثفال ولزوجتها ولتدع عضل المقعدة فيحس بالحاجة الى التبرز

﴿ فصل ﴾ وأما المرارة السوداء فخلط بارد يابس وفيه من المنافع أنه ينفذ مع الدم فى العروق ليشده ويقويه ويكثفه ويمسكه ويمنعه من سهولة الحركة عند الحاجة الى ذلك ويعينه على تغذية الاعضاء المحتاجة ان يكون فى غذائها شئ من السوداء كالعظام وما اتصل منه واستغنى عنه يصفى الى الطحال فيصفيه الطحال جدا ويتغذى به ثم يجلب مايستغنى عنه الطحال الى فم المعدة فيدغدغه بالحموضة التى فيه فتتحرك الشهوة ويحس بالجوع فتطلب الاعضاء

القصـوى معلومها ومراتبهـا من الاعضـاء التي تليها وتطلبـه الاعضاء التي تليهـا من التي تجـاورها وهكـذا حتى ينتهى الطلب الى المعـدة فالجـوع طلب الاعضـاء القصـوى معلومها من الاعمال الدنيـا

﴿ فصـل ﴾ ولمـا اقتضت حكمة الرب جل جلاله وتقدست اسمـاؤه ولا اله غيره حيث كان بدن الانسان مشبها في أحواله بالمدينة ان يوجد فيه اعضاء رئيسة تقوم بمصالحه كما تقوم رؤساء المدينة بمصالحها يكون لهـا بمنزلة الولاة والامراء وأعضاء تكون خادمـة لهـذه الاعضاء الرئيسة فان الرئيس لا يكون رئيسـا الا بمرؤس وهى مـنزلة الشرط والمـاورة والنقباء وان يوجد فيها اعضـاء كالرعية وهى قسمان ماله اتصال بالرؤساء وان لم يكن له اتصال خدمة ومالا اتصال له بهم بل هو مستقل بنفسه فالاعضـاء اذا بهذا التقسيم أربعة أحدهـا الاعضاء الرئيسة المخدومة الثـانى الاعضاء المرؤسة الخادمة الثالث الاعضاء المرؤسة بلا خدمة الرابع الاعضاء التى ليست رئيسة ولا مرؤسة

﴿ فصـل ﴾ والاعضـاء الرئيسة انمـا استحقت الرياسة لشرفها اذ كانت هى الاصـول والمعادن والمبادى للقـوى الاوليـة فى البدن المضطر اليها فى بقـاء الشخص والنوع وهى بحسب بقـاء الشخص ثـلاثة القلب والكبد والـدماغ وبحسب بقاء النوع أربعة الثـلاثة المذكورة والانثيان وأما القلب فهو الذى جعله الخلاق العليم قائما بأمر البدن كقيام الملك بالرعية وهو أول عضو يتحرك فى البدن وآخر عضو يسكن منه وهو مبدأ جميع الخلق ومايلحقه من صلاح أو فساد يتأدى منه الى غيره من الاعضـاء وأما الكبد فهـو العضو الذى يقـوم لحفظ الحياة اوكانت هى التى تملأ الاعضاء بالغذاء ليبقى البدن محفوظا ما أمكن بقاؤه وأما الدماغ فهو العضو القائم بأمر الحس والادراك وتكميل الحياة اذ فيه آلات الاحساس التى بها يعرف النافع من الضار والملائم من المنافر صارت الحياة ناعمة صالحة مجاورة لزينة حيـاة النبات وأما الانثيان فهما اللذان يقومان لحفظ بقاء النوع

﴿ فصل ﴾ وأما الاعضاء الخادمة فالرئة والشرايين الحاملة المؤدية مـن القلب الحرارة الغريزية والقوى والارواح الحيوانية التى بها قوام البـدن فهذان خادمان القلب والمعـدة والاوردة خادمان للكبد والاوردة تنفذ الدم الغاذى والقوى الى جميع البدن والكبد خادمة الدماغ وكذلك الاعصاب التى بها يحصل الحس والحركة والانثيان يخدمهما الاعضاء المؤدية للمنى والمجارى المؤدية عنهما الى موضع التوالد

﴿ فصل ﴾ وأما الاعضاء المرؤسة بلا خدمة فهى اعضاء مختصة بقوى لهـا طبيعة بهـا تم تدبيرها ويستقيم أمرها ولا يدفع ذلك أن يفيض عليها من الاعضاء الرئيسة قوى تمدها باذن الله تعالى كالاذن والعين والانف فان كل واحد منها يقوم بأمر نفسه بما فيه من القوة الطبيعية التى أعطاها اياه الخالق سبحانه ولا يتم ذلك الا بأن تأتيها قوة حساسة تنزل عليها من الدماغ باذن الله تعالى

﴿ فصل ﴾ وأما الاعضاء التى ليست برئيسة ولا مرؤسة فهى التى اختصت بقوى غريزية فيها من أصل الخلقة فى أول التكوين ليتم بها دوام أمرها وتدبيرها فى اجـلاب المنـافع ودفع المضار كالعظام والغضاريف وسائر الاعضاء المتشابهة الاجزاء مثل الرباطات والاعصاب

والاوتار والشرايين والاوردة والاغشية واللحم والعظام كالاساس والاسطوانات لبناء هيكل البدن فان قيل هل في العظام قوة الاحساس وحياته أم لا قيل هذا موضع اختلف فيه أرباب الشريعة فيما بينهم وأرباب الطبيعة فيما بينهم فقالت طائفة لاحياة في العظام وان كان فيها قوة النمو والاغتذاء قالوا ان الحياة انما هي الروح الحيواني ولاحظ للعظام فيه قالوا ولان مركب الحياة انما هو الدم المبثوث في العروق والاعصاب واللحم ولهذا لم يكن للشعر ولا للظفر نصيب من ذلك ولهذا لم يألم الانسان بأخذه قالوا فحياة العظام والشعر حياة نمو واغتذاء وحياة اعضاء البدن حياة نمو واحساس قالوا ولهذا قلنا ان العظام لاتنجس بالموت ولانها لم يكن فيها حياة تزول بالموت قالوا وزوال النمو لايوجب نجاسة ما فارقه بدليل يبس الزرع والشجر قال آخرون الدليل على ان العظام تحلها الحياة قوله تعالى قال من يحيي العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة والحس يدل على ذلك أيضا فان العظم يألم ويضرب ويسكن وذلك نفس احساسه قالوا ولا يمكن انكار كون العظام فيها قوة حساسة تحس بالبارد والحار قال الآخرون الاحساس والالم ليس للعظم في نفسه وانما هو لما جاوره من اللحم قال المنازعون لهم هذا مكابرة ظاهرة فان العظم نفسه يألم ولاسيما اذا تصدع ثم ان الاسنان والاضراس تحس بالالم والحار والبارد بأنفسها لابمجاورها من اللحم ولهذا توسطت طائفة ثالثة وقالت عظام الاسنان خاصة لها الاحساس بخلاف سائر العظام وهؤلاء قد سلموا المسئلة من مكان قريب فان الذي دل على احساس الاسنان وحياتها هو الدال على حياة سائر العظام والشبهة التي ذكروها لوصحت لمنعت من احساس الاسنان واما حديث الطهارة والنجاسة فذلك لامر آخر وراء الحياة من نجسها بالموت سوى بينها وبين اللحم ومن لم ينجسها وهو الراجح في الدليل فذلك لعدم علة التنجيس فيها وان الموت ليس لعلة النجاسة وانما هو دليل العلة وسببها والعلة هي احتقان الفضلات في اللحم والعظم بريء من ذلك والدليل على هذا ان الشارع لم يحكم بنجاسة الحيوان التام الذي لانفس له سائلة لعدم احتقان الفضلات فيه فلئلا يحكم بنجاسة العظم أولى وأحرى فان الرطوبات التي في الذباب والعقرب والخنفساء اكثر من الرطوبات

﴿ فصل ﴾ والذي احصاه المشرحون من العظام في البدن مائتان وثمانية واربعون عظما سوى الصغار السمسميات التي أحكم بها مفاصل الاصابع التي في الحنجرة وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن الانسان خلق من ثلاثمائة وستين مفصلا فان كانت المفاصل هي العظام فقد اعترف جالينوس وغيره بأن في البدن عظاما صغارا لم تدخل تحت ضبطهم واحصائهم وان كان المراد بالمفاصل المواضع التي تنفصل بها الاعضاء بعضها من بعض كما قال الجوهري وغيره المفصل واحد مفاصل الاعضاء فتلك أعم من العظام فتأمله وان السلاميات المذكورة في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه من حديث ابي ذر يصبح على كل سلامى من أحدكم صدقة فكل تسبيحة صدقة وكل تحميدة صدقة وكل تهليلة صدقة وكل تكبيرة صدقة الحديث فالسلامى العظم وجمعه سلاميات فهنا ثلاثة امور اعضاء وعظام ومفاصل وجعل الله سبحانه العظام اصلب شيء في البدن لتكون اساسا وعمدة في البدن اذ كانت الاعضاء

كلها موضوعة على العظام حتى القلب كما سيأتى بيانه ان شاء الله تعالى وهى حاملة للاعضاء والحامل اقوى من المحمول ولتكون وقاية وجنة ايضا كالقحف فانه وقاية الدماغ وعظام الصدر وقاية له وجعلت العظام كثيرة لفوائد ومنافع عديدة منها الحركة فان الانسان قد يحتاج الى حركة بعض اجزائه دون بعض وقد يحتاج الى حركة جزء من عضو ومنها انه لو كان على عظم واحد لكان اذا أراد ان يحرك تحرك بجملته ومنها انه كان يتعذر عليه الصنائع والحل والربط ومنها انه اذا اصابه آفة عمت جميع البدن فجعلت العظام كثيرة ليكون متى نال بعضها آفة لم تسر الى غيره وقام غيره من العظام مقامه فى تحصيل تلك المنفعة ومنها تعذر المنافع التى حصلت بسبب تعدد العظام ولولا كثرتها وتعددها لفاتت تلك المنافع ومنها ان من العظام من يحتاج البدن الى كبيرة ومنها مايحتاج الى صغيرة ومنها مايحتاج الى مستطيلة ومنها مايحتاج الى مجوفة ومنها مايحتاج الى محنية ومنها مايحتاج الى مستقيمة ولا يحصل ذلك الا بتعدد العظام ومنها بديع الصنع وحسن التأليف والتركيب وغير ذلك من الفوائد ثم شد الخالق بعضها الى بعض بالرباطات والاسر المحكم ثم كساها لحما حفظا لها ووقاية ثم كسى الجسم جلدا صونا له ولما كانت الفضلات تنقسم الى لطيفة وغليظة جعل الله سبحانه للغليظة منها مجارى تنجذب فيها الى أسفل وتخرج منها خروجا ظاهرا للحس وأما اللطيفة فهى الفضلات البخارية فان من شأنها أن تصعد الى فوق وتخرج عن البدن بالتحليل جعل فى العظام العليا منها منافذ يتحلل منها البخار المتصاعد فلم تكن تلك المنافذ محسوسة لئلا يضعف صوان الدماغ وهو القحف بوصول الاجسام المؤذية اليه فجعل الدماغ مركبة من عظام كثيرة ووصل بعضها ببعض بوصل يقال لها الشؤون ومنه قولهم فلان لم تجمع شؤون رأسه ويشتمل الرأس بجملة أجزائه على تسعة وخمسين عظما وجعل القحف مستديرا تاما فى مقدمه ومؤخره وجانبيه بمنزلة غطاء القدر وعظامه ستة وهى عظم اليافوخ وعظم الجبهة وعظم مؤخر الرأس والعظمان اللذان فيهما ثقباء السمع وفى كل واحد من الصدغين عظمان مصمتان وعظام اللحى الاعلى أربعة عشر عظما ستة منها فى محاجر العينين واثنان للانف واثنان تحت الانف وهما المثقوبان الى الفم واثنان فى الوجنتين واثنان تحت الشفة العليا وأما العظم الشبيه بالوتد فهو واحد وهو كالقاعدة للرأس وعظام اللحى الاسفل اثنان وهما متصلان فى وسط الذقن وبينهما بنيان ويتصلان من فوق باللحى الاعلى اتصالا مفصليا والاسنان اثنان وثلاثون فى كل لحى ستة عشر ثنيات وتليها الرباعيات وتليهما النابان ويليهما الاضراس خمسة من هنا وخمسة من هنا والنواجذ اول الاضراس وهما ناجذان فى كل ناحية ناجذ وربما نقصت النواجذ فى بعض الافراد وكان فى كل جانب اربعة اضراس وقد سلم الله غذاء الانسان الى يده فتأخذه فتسلمه الى شفتيه فتسلمه الشفتان منهما فتسلمه الى الانياب والثنايا فتفصله ثم تسلمه الى الاضراس فتسلمه وتطحنه ثم تسلمه الى اللسان والفم فيعجنه ثم يسلمه الى الحلقوم والمرى فيسلمه ويوصله الى المعدة فتطبخه وتنضجه وتصلحه كما ينبغى ثم تسلمه الى الكبد فيتسلمه منها ثم يرسل به الى كل عضو راتبه ومعلومه ثم تصب قربة الصفراء فى المرارة

السوداء فى الطحال والثقل بخرجه عنها كما تقدم بيانه

﴿ فصل ﴾ والرأس يقال بالعموم على مايقله العنق بجملته ويقال بالخصوص على الفروة وهى جلدة الرأس حيث منبت الشعر والجمجمة العظم الذى يحوى الدماغ وهى مؤلفة من سبع قطع متقابلة تسمى القبائل وتسمى مواضع التأليف شؤونا ووسط الجمجمة يسمى الهامة وحد الهامة من الجانبين قرن الرأس وحد الهامة من المقدم اليافوخ ومن المؤخر القمحدوة وهى مايصيب الارض من رأس المستلقى على ظهره ولها ثلاث حدود نقرة القفا ورو القذالان فنقرة القفا احدها من آخر الوسط والقذالان جانبا النقرة وقد تقدم تفصيل القبائل السبع وسنظهر الجمجمة مما يحيط بها السمحاق وسطها غشاوان أحدهما يلى الجمجمة وهو أثخنهما وأصلبهما والآخر يكشف الدماغ ويحيط به ويخالطه ويقال لكل منهما أم الدماغ ويسميان الامان ومنه الآمة والمأمومة التى فيها ثلث الدية وهى الجراحة التى تبلغ أم الدماغ ويقال لها تجويف فى الدماغ بطن وهى ثلاث بطون وبين بطنى الدماغ اللذين فى مؤخره ووسطه مجرى فيه قطعة من الدماغ مستطيلة شبيهة بالدودة ينسد ذلك المجرى وينفتح بها وتحت الدماغ سبلة مبسوطة مؤلفة من عروق ضوارب يتولد منها روح نفسانى ينفذ الى البطنين اللذين فى مقدم الدماغ وفى الدماغ البركة والحوض والقمع والدودة والبطون والاغشية ومبادى الاعصاب ويحتوى الدماغ على ثلاث خزائن نافذ بعضها الى بعض ويسمى بطونا فالاولى فى مقدمه تنقسم الى قسمين والثانية فى وسطه والثالثة فى مؤخره وجوهر الدماغ مخى متزرد الشكل كأنه زرد مجموع والروح النفسانى مثبت فى خلل الزرد والدماغ مقسوم فى طوله لنصفين متضامين والتنصيف فى مقدم اظهر والغشاآن يدخلان فى فصول الدماغ وتزريده والصلب منهما يدخل بطونا بين جزئى البطن المقدم فيحجز بينهما وتحته مصفى كالبركة تسمى المعصرة تصب فى العروق الدم المنضج وتنبعث فى جداول تسقى البطن المقدم وتجتمع الى عرقين كبيرين يحملان الدم الى البطن الاوسط والمؤخر والبطن الاوسط كدهليز ومنفذ بين المقدم والمؤخر وسقفه معقود كالازج والدماغ موضوع طولا على زائدتين الفخذين متقاربان فيتماسان ويتباعدان الى الانفراج فيفتح الدهليز ويتراءى البطنان المقدم والمؤخر والجزء المؤخر أخفى تدويرا من المقدم وأصغر زردا وهو كرى الاستطالة ويستدق على التدريج حتى يسيل منه النخاع كالجدول من العين وفى الدماغ مجريان احدهما فى آخر المقدم والمؤخر فى الاوسط لدفع فضوله ويجتمعان عند منفذ واحد عميق اولى فى الغشاء الرقيق والآخر فى الغشاء الصلب يأخذ الى ضيق كالقمع ولما كان الدماغ مبدأ حركات البدن الى ارادته لم يكن به حاجة الى الحركة القوية حوط عليها بسور من عظام بخلاف المعدة والكبد والرحم وسائر آلات الغذاء فانها لما احتاجت أن تتسع وتمتلئ بالغذاء فتحمل مرة بعد اخرى وأن تقصر عن الفضول فتخرجها والعظم يمنع من ذلك ويكفى فيه الفضل وحده فأحيط عليه بسور من عقل وأما الصدر فانه لما احتاج الى الوثاقة بالعظام والى الحركة بالفضل الف الصدر منهما وكان البطن أوسع من الصدر لما يحق به من آلات الغذاء

والتنفس والطحال والمرى وغيرها

﴿ فصل ﴾ فاستقبل الآن النظر فى نفسك من رأس وانظر الى المبدأ الاول وهو النطفة التى هى قطرة مهينة ضعيفة لو تركت ساعة لبطلت وفسدت كيف اخرجها رب الارباب من بين الصلب والترائب وكيف أوقع المحبة والالفة بين الذكور والاناث ثم قادهما بسلسلة المحبة والشهوة الى الاجتماع ثم استخرج النطفة من الذكر بحركة الوقاع من اعماق العروق وجمعها فى الرحم فى قرار مكين لا تناله يد ولا تطلع عليه شمس ولا يصيبه هواء ثم صرف تلك النطفة طورا بعد طور طبقا بعد طبق وغذاها بماء الحيض وكيف جعل سبحانه النطفة وهى بيضاء مشرقة علقة حمراء ثم جعلها مضغة ثم قسم أجزاء المضغة الى العظام والاعصاب والعروق والاوتار واللحم فى داخل الرحم فى الظلمات الثلاث ولو كشف لك الغطاء لرأيت التخطيط والتصوير يظهر فى تلك النطفة شيئا بعد شىء من غير أن ترى المصور ولا آلته ولا قلمه فهل رأيت مصورا لا تمس آلته ولا تلاقيها ثم تأمل هذه القبة العظيمة التى قد ركبت على المنكبين وما أودع فيها من العجائب وما ركب فيها من الخزائن وأودع فى تلك الخزائن من المنافع وما اشتملت عليه هذه القبة من العظام المختلفة الاشكال والصفات والمنافع ومن الرطوبات والاعصاب والطرق والمجارى والدماغ والمنافذ والقوى الباطنة من الذكر والفكر والتخيل وقوة الحفظ ففيه القوة المفكرة والذاكرة والمخيلة والحافظة وهذه القوى مودعة فى خزائنها محضرة لمصالحها يستعملها ويستخدمها كيف أراد فتأمل كيف دور سبحانه الرأس وشق سمعه وبصره وانفه وفمه وكيف ركب كريه فى بطن الام من ثلاثة وعشرين عظما وخلق تلك العظام على كيفيات مختلفة وتأمل كيف انقلبت تلك النطفة اللينة الضعيفة الى العظام الصلبة الشديدة ثم تأمل كيف قدر سبحانه كل واحد من تلك العظام بشكل مخصوص بحيث حصل من مجموعها لبطلت المنفعة وفات الغرض ثم ركب بعضها من بعض بحيث حصل من مجموعها كرة الرأس على هذه الخلقة المخصوصة ولما كان الرأس اشرف الاعضاء الانسانية وأجمعها للقوى والمنافع والآلات والخزائن اقتضت العناية الالهية بأن صين بأنواع من الصيانات وذلك أن الدماغ يحيطه غشاء رقيق وفوق ذلك الغشاء غشاء آخر يقال له السمحاق ثم فوق ذلك الغشاء طبقة لحمية وفوق تلك الطبقة اللحمية الجلد ثم فوق الجلد الشعر فخلق سبحانه فوق دماغك سبع طبقات كما خلق فوق الارض سبع سموات طباقا والمقصود من تخليقها الاحفاظ فى صون الدماغ من الآفات والدماغ من الرأس بمنزلة القلب من البدن وهو سبحانه قسمه فى طوله ثلاثة اقسام وجعل القسم المقدم محل الحفظ والتخيل والبطن الاوسط محل التأمل والتفكر والبطن الاخير محل التذكر والاسترجاع لما كان قد نسيه ولكل واحدة من هذه الامور الثلاثة أمر مهم للانسان لابد له منه وانه محتاج الى التفهم والتفهيم ولو لم يكن حافظا لمعانى التصورات وصورها بعد غيبتها لكان اذا سمع كلمة وفهمها شذت عنه عند مجىء الاخرى فلم يحصل المقصود من الفهم والافهام فجعل له ربه وفاطره خزانة تحفظ له صور المعلومات حتى تجتمع له وتسمى القوة التى فيها القوة الحافظة ولا تتم مصلحة الانسان الا بهما فانه اذا رأى شيئا ثم غاب عنه ثم رآه مرة أخرى عرف ان هذا الذى رآه الآن هو الذى

رآه قبل ذلك لأنه في المرة الاولى يثبت صورته في الحفظ ثم توارى عنه بالحجاب فاذا رآه مرة ثانية صارت هذه الصورة المحسوسة مطابقة للصورة المنوية التي في الذهن فحصل الجزم بأن هذا ذاك ولولا القوة الحافظة لما حصل ذلك ولما عرف أحد أحدا بعد غيبته عنه ولذلك اذا طالت الغيبة جدا وانمحت تلك الصورة الاولى من الذهن بالكلية لم يحصل له العلم بأن هذا هو الذي رآه أولا الا بعد تفكر وتأمل وقد قال قوم أن محل هذه الصور النفس وقال قوم محلها القلب وقال قوم محلها العقل ولكل فريق منهم حجج وادلة وكل منهم أدرك شيئا وغاب عنه شيء اذ الادراك المذكور مفتقر الى مجموع ذلك لايتم الا به والتحقيق أن منشأ ذلك ومبدئه من القلب ونهايته ومستقره في الرأس وفي المسئلة التي اختلف فيها الفقهاء هل العقل في القلب أو في الدماغ على قولين حكيا روايتين عن الامام أحمد والتحقيق أن اصله ومادته من القلب وينتهى الى الدماغ قال تعالى أفلم يسيروا في الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فجعل العقل في القلب كما جعل السمع بالاذن والبصر بالعين وقال تعالى ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب وقال غير واحد من السلف لمن كان له عقل واحتج آخرون بأن الرجل يضرب في رأسه فيزول عقله ولولا أن العقل في الرأس لما زال فان السمع والبصر لايزولان بضرب اليد أو الرجل ولا غيرهما من الاعضاء لعدم تعلقهما بهما وأجاب أرباب القلب عن هذا بأنه لايمتنع زواله بفساد والدماغ وان كان في القلب لما بين القلب والرأس من الارتباط وهذا كما لايمتنع نبات شعر اللحية بقطع الانثيين وفساد القوة بفساد العضو قد يكون لانه محلها وارتباط به والله أعلم وعلى كل تقدير فذلك من أعظم آيات الله وأدلته وقدرته وحكمته كيف ترسم صورة السموات والارض والبحار والشمس والقمر والاقاليم والممالك والامم في هذا المحل الصغير والانسان يحفظ كتبا كثيرة جدا وعلوما شتى متعددة وصنائع مختلفة فترتسم كلها في هذا الجزء الصغير من غير ان يحفظ بعض هذه الصور ببعض بل كل صورة منهن بنفسها محصلة في هذا المحل وأنت لو ذهبت تنقش صورا واشكالا كثيرة في محل صغير لاختلط بعضها ببعض وطمس بعضها بعضا وهذا الجزء الصغير تنقش فيه الصور الكثيرة المختلفة والمضادة ولايبطل منها صورة ومن اعجب الاشياء أن هذه القوة العاقلة تقبل ماتؤديه اليها الحواس فتجتمع فيها ثم تعيد كل حاسة منها فائدة الحاسة الاخرى مثاله أنك ترى الشخص فتعلم أنه فلان وتسمع صوته فتعلم أنه هو وتلمس الشيء فتعرفه وتشمه فتعرف أنه هو ثم تستدل بما تسمعه من صوته على أنه هو الذي رأيته فيغنيك سماع صوته عن رؤيته ويقوم لك مقام مشاهدته ولهذا جوز اكثر الفقهاء شهادة الاعمى وبيعه وشراءه وأجمعوا على جواز وطئه امرأته وهو لم يراها قط اعتمادا منه على الصوت بل لو كانت خرساء أيضا وهو الحرش جاز له الوطء وقد جعل الله سبحانه بين السمع والبصر والفؤاد علاقة وارتباطا ونفوذا يقوم به بعضها مقام بعض ولهذا يقرن سبحانه بينهما كثيرا في كتابه كقوله ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا وقوله تعالى وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة وقوله لهم قلوب لايعقلون بها ولهم آذان لايسمعون بها وهذا من عناية الخالق سبحانه بكمال هذه الصورة البشرية لتقوم كل

حاسة منها مقام الحاسة الاخرى وتفيد فائدتها فى الجملة لافى كل شئ ثم أودع سبحانه قوة التفكر وأمره باستعمالها فيما يجدى عليه النفع فى الدنيا والآخرة فركب القوة المفكرة شيئين من الاشياء الحاضرة عند القوة الحافظة تركيبا خاصا فيتولد من بين ذلك الشيئين شئ ثالث جديد لم يكن للعقل شعور به ولما كانت مواده عنده لكن بسبب التركيب حصل له الامر الثالث ومن ههنا جعل استخراج الصنائع والحرف والعلوم وبناء المدن والمساكن وأمور الزراعة والفلاحة وغير ذلك فلما استخرجت القوة المفكرة ذلك واستحسنته سلمته الى القوة الارادية العلمية فنقلته من ديوان الاذهان الى ديوان الاعيان فكان أمرا ذهنيا فصار وجوديا خارجيا ولولا الفكرة لما اهتدى الانسان الى تحصيل المصالح ودفع المفاسد وذلك من أعظم النعم وتمام العناية الالهية ولهذا لما فقد البهائم والمجانين ونحوهم هذه القوة لم يتمكنوا مما تمكن منه أرباب الفكر ولما كان استخراج المطلوب بهذه الطريق يتضمن فكرا وتقديرا فيفكر فى استخراج المادة أولا ثم يقدرها ويفصلها ثانيا كما يصنع الخياط يحصل الثوب ثم يقدره ويفصله ثانيا قال تعالى عن الوحيد ذرنى ومن خلقت الى قوله انه فكر وقدر فقتل كيف قدر فكرر سبحانه التقدير دون التفكير وذمه عليه دونه وهذا منزل على مقتضى الحال سواء فانه بالفكر طالب لاستخراج المجهول وذلك غير مذموم فلما استخرجه قدر له تقديرين تقديرا كليا وجزئيا فالتقدير الكلى ان الساحر هو الذى يفرق بين المرء وزوجه والتقدير الجزئى الذى يفرق بين المرء وزوجه فههنا تقدير بعد تقدير فلهذا كرره سبحانه وذمه عليه وأما التفكير فان الفكر طالب لمعرفة الشئ فلا يذم بخلاف من قدر بعد تفكيره مايوصله الى تحقيق الباطل وابطال الحق فتأمله

﴿ فصل ﴾ ثم انزل الى العين وتأمل عجائبها وشكلها وخلقها وايداع النور الباصر فيها وتركيبها من عشر طبقات وثلاث رطوبات ولكل واحد من هذه الطبقات والرطوبات شكل مخصوص ومقدار مخصوص اولم يكن عليه لاختلت المصلحة المقصودة وجعل سبحانه موضع الابصار فى قدر العدسة ثم أظهر فى تلك العدسة قدر السماء والارض والجبال والبحار والشمس والقمر فكيف اتسعت تلك العدسة ان يرسم فيها مالا نسبة لها اليه ألبتة وجعل تلك القوة الباصرة فى جزء أسود فتأمل كيف قام الباصر بهذا الجزء الاسود وجعل سبحانه الحدقة مصونة بالاجفان لتسترها وتحفظها وتصقلها وتدفع الاقذاء عنها وجعل شعر الاجفان أسود ليكون سواده سببا لاجتماع النور الذى به الابصار ويكون مانعا من تفرقه ويكون ابلغ فى الحسن والجمال وخلق سبحانه لتحرك الحدقة أربعة وعشرين عضلة لونقصت واحدة منهن لاختل أمر العين ولما كانت العين شبيها بالمرآة التى انما ينتفع بها اذا كانت فى غاية الصقالة والصفاء وجعل سبحانه الاجفان متحركة الى الاطباق أبدا باختيار الانسان وغير اختياره لتبقى الحدقة نقية صافية عن جميع الكدورات وجعل العينين بمنزلة المرآتين الصقيلتين اللتين تنطبع فيهما صورة الاشياء الخارجة فيتأثر القلب ثم يظهر مافيه عليهما فيتأثران به فهما مرآة لما فى القلب يظهر فيهما ومرآة لما فى الخارج تنطبع صورته فيهما فالعينان على القلب كالزجاجتين الموضوعتين ولذلك يستدل بأحوال العين على أحوال

القلب من رضاه وغضبه وحبه وبغضه ونفرته ومن أعجب الاشياء ان العين من ألطف أعضاء البدن وهى لا تتأثر بالحر والبرد تأثير غيرها من الاعضاء الكثيفة ولو كان الامر عائدا الى مجرد الطبيعة لكان ينبغى ان يكون الامر بالعكس لان الالطف أسرع تأثيرا فعلم ان حصول هذه المصالح ليس هو بمجرد الطبع

﴿ فصل ﴾ ثم اعدل الى الاذنين وتأمل شقهما وخلقها وايداع الرطوبة فيهما ليكونا عونا على ادراك السمع وجعلها مرة لتمتنع الهوام عن الدخول فى الاذن وحوطهما سبحانه بصدفتين يجمعان الصوت ويؤديانه الى الصماخ وجعل فى الصدفتين تعويجات لتطول المسافة فتنكسر حدة الصوت ولا تلج الهوام دفعة بل تكثر حركاتها فينتبه لها فيخرجها وجعل العينين مقدمتين والاذنين مؤخرتين لان العينين بمنزلة الطليعة والكاشف والرائد الذى يتقدم القوم يكشف لهم وبمنزلة السراج الذى يضىء للسالك ما أمامه وأما الاذنان فيدركان المعانى الغائبة التى ترد على العبد من امامه ومن خلفه ومن جانبيه فكان جعلهما فى الجانبين أعدل الامور فسبحان من بهرت حكمته العقول وجعل للعينين غطاء لان مدرك الاذن الاصوات ولا بقاء لها فلو جعل عليهما غطاء لزال الصوت قبل ارتفاع الغطاء فزالت المنفعة المقصودة وأما مدرك العين فأمر ثابت والعين محتاجة الى غطاء يقيها وحصول الغطاء لا يؤثر فى بعض الادراك وقال بعض أهل العلم عينا الانسان هاديان واذناه رسولان الى قلبه ولسانه ترجمان ويداه جناحان ورجلاه بريدان والقلب ملك فاذا طاب الملك طابت جنوده واذا خبث خبثت جنوده

﴿ فصل ﴾ ثم نزل الى الانف وتأمل شكله وخلقته وكيف رفعه سبحانه فى وسط الوجنة بأحسن شكل وفتح فيه بابين وأودع فيهما حاسة الشم وجعله آلة لاستنشاق الهواء وادراك الروائح على اختلافها فيستنشق بهما الهواء البارد والطيب فيستغنى بالمنخرين عن فتح الفم أبدا ولولاهما لاحتاج الى فتح فيه دائما وجعل سبحانه تجويفه واسعا ليحصر فيه الهواء وينكسر برده قبل الوصول الى الدماغ فان الهواء المستنشق ينقسم قسمين شطرا منه وهو أكثره ينفذ الى الرئة وشطرا ينفذ الى الدماغ ولذلك يضر المزكوم استنشاق الهواء البارد وجعل فى الانف ايضا اعانة على تقطيع الحروف وجعل بين المنخرين حاجزا وذلك أبلغ فى حصول المنفعة المقصودة حتى كأنهما أنفان بمنزلة العينين والاذنين واليدين والرجلين وقد يصيب احد المنخرين آفة فيبقى الآخر سالما وجعل تجويفه نازلا الى أسفل ليكون مصبا للفضلات النازلة من الدماغ وستره بساتر أبدى لئلا تبدو تلك الفضلات فى عين الرائى وتأمل منفعة النفس الذى لو قطع عن الانسان لهلك وهو أربعة وعشرون ألف نفس فى اليوم والليلة قسط كل ساعة ألف نفس وتأمل كيف يدخل الهواء فى المنخرين فيكسر برده هناك ثم يصل الى الحلقوم فيعتدل مزاجه ثم يصل الى الرئة فيصفى فيها من الغلظ والكدرة ثم يصل الى القلب أصفى ما كان وأعدل فيروح عنه ثم ينفذ منه الى العروق المتحركة ويتقدم الى أقاصى أطراف البدن ثم اذا سخن جدا وخرج عن حد الانتفاع به عاد من تلك الاقاصى الى البدن ثم الى الرئة ثم الى الحلقوم ثم الى المنخرين ثم يخرج ويعود مثله هكذا أبدا فمجموع ذلك

هو النفس الواحد وقد أحصى الرب عدد هذه الانفس وجعل مقابل كل نفس منها ماشاء الله من الاحقاب فى ا لجحيم أو فى النعيم فلا تفد من أضاع ماهذه قيمته فى غير شئ

﴿ فصل ﴾ وهو سبحانه جعل القلب أمير البدن ومعدنا للحرارة الغريزية فاذا استنشق الهواء البارد وصل الى القلب واعتدلت حرارته فيبقى هناك مدة فيسخن وأحرق واحتاج الى اخراجه ودفعه معه فلم يضيع أحكم الحاكمين ذلك النفس ويخرجه بغير فائدة بل جعل اخراجه سببا لحدوث الصوت ثم جعل سبحانه فى الحنجرة واللسان والحنك باختلافها الصوت فيحدث الحرف ثم ألهم الانسان ان ركب ذلك الحرف الى مثله ونظيره فيحدث الكلمة ثم ألهمه تركيب تلك الكلمة الى مثلها فيحدث الكلام فتأمل هذه الحكم الباهرة فى ايصال النفس الى القلب لحفظ حياته ثم عند الحاجة الى اخراجه والاستغناء عنه جعله سببا لهذه المنفعة العظيمة فتبارك الله أحسن الخالقين وخلق سبحانه هذه المقاطع والحناجر مختلفة الاشكال فكما الاشباه صورتان من كل وجه بل كما يحصل الامتياز بين الاشخاص بالقوة الباصرة فكذلك يحصل بالقوة السامعة فيحصل الامتياز للاعمى والبصير

﴿ فصل ﴾ ثم انزل الى الصدر ترى معدن العلم والحلم والوقار والسكينة والبر وأضدادها فتجد صدور العلية تغلي بالبر والخير والعلم والاحسان وصدور السفلة تغلي بالفجور والشرور والاساءة والحسد والمكر ثم انفذ من ساحة الصدر الى مشاهدة القلب تجد ملكا عظيما جالسا على سرير مملكته يأمر وينهى ويولي ويعزل وقد حف بالامراء والوزراء والجند كلهم فى خدمته ان استقام استقاموا وان زاغ زاغوا وان صح صحوا وان فسد فسدوا فعليه المعول وهو محل نظر الرب تعالى ومحل معرفته ومحبته وخشيته والتوكل عليه والانابة اليه والرضى به وعنه والعبودية عليه اولا على رعيته وجنده تبعا فأشرف مافى الانسان قلبه فهو العالم بالله الساعى اليه المحب له وهو محل الايمان والعرفان وهو المخاطب المبعوث اليه الرسل المخصوص بأشرف العطايا وهو الايمان والعقل وانما الجوارح اتباع تبع للقلب يستخدمها استخدام الملوك للعبيد والراعى الرعية والذى يسرى الى الجوارح من الطاعات والمعاصى انما هى آثاره فان اظلم أظلمت الجوارح وان استنار استنارت ومع هذا فهو بين أصبعين من اصابع الرحمن عز وجل فسبحان مقلب القلوب ومودعها مايشاء من أسرار الغيوب الذى يحول بين المرء وقلبه ويعلم ماينطوى عليه من طاعته ودينه مصرف القلوب كيف اراد وحيث اراد أوحى الى قلوب الاولياء ان أقبلى الى فبادرت وقامت بين يدى رب العالمين وكره عز وجل انبعاث آخرين فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين كانت ا كثر يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم لاومقلب القلوب وكان من دعائه اللهم يامقلب القلوب ثبت قلوبنا على طاعتك قال بعض السلف للقلب أشد تقلبا من القدر اذا استجمعت غليانها وقال آخر القلب اشد تقلبا من الريشة بأرض فلاة فى يوم ريح عاصف ويطلق القلب على معنيين أحدهما امر حسى وهو العضو اللحمى الصنوبرى الشكل المودع فى الجانب الايسر من الصدر وفى باطنه تجويف وفى التجويف دم اسود وهو منبع الروح والثانى امر معنوى وهو لطيفة ربانية رحمانية روحانية لها بهذا العضو تعلق اختصاص وتلك اللطيفة هى حقيقة الانسانية وللقلب جندان

جنديري بالابصار وجنديري بالبصائر وأما جنده المشاهدة فالاعضاء الظاهرة والباطنة وخلقت خادمة له لاتستطيع له خلافا فاذا امر العين بالانفتاح انفتحت واذا امر اللسان بالكلام تكلم واذا امر اليد بطشت واذا امر الرجل سعت وكذا جميع الاعضاء ذلت له تذليلا ولما خلق القلب لسفر الى الله والدار الآخرة وجعل في هذا العالم ليتزود منه افتقر الى المركب والزاد لسفره الذي خلق لاجله وأعين بالاعضاء والقوى وسخرت له واقيمت له في خدمته لتجلب له مايوافقه من الغذاء والمنافع ويدفع عنه مايضره ويهلكه فافتقر الى جندين باطن وهو الارادة والشهوة والقوى وظاهر وهو الاعضاء فخلق في القلب من الارادات والشهوات مااحتاج اليه وخلقت له الاعضاء التي هي آلة الارادة واحتاج لدفع المضار الى جندين باطن وهو الغضب الذي يدفع المهلكات وينتقم من الاعداء وظاهر وهو الاعضاء التي ينفذ بها غضبه كالاسلحة للقتال ولا يتم ذلك الا بمعرفته بما يجلب وما يدفع فأعين الجند من العلم بكشف له حقائق ما ينفعه وما يضره ولما سلطت عليه الشهوة والغضب والشيطان اعين بجند من الملائكة وجعل له محل من الحلال ينفذ فيه شهواته وجعل بازائه اعداء له ينفذ بهن غضبه فما ابتلى بصفة من الصفات الا وجعل له مصرف ومحل تنفذها فيه فجعل لقوة الحسد فيه مصروف المنافسة في فعل الخير والغبطة عليه والمسابقة اليه والقوة الكبر والتكبر على أعداء الله تعالى واهانتهم وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لمن رآه يخايل بين الصفين في الحرب انها لمشية يبغضها الله الا في هذا الموطن وقد امر الله سبحانه بالغلظة على اعدائه وجعل لقوة الحرص مصرفا وهو الحرص على ما ينفع كما قال النبي صلى الله عليه وسلم احرص على ماينفعك ولقوة الشهوة مصرفا وهو التزوج بأربع والتسري بما شاء ولقوة حب المال مصرفا وهو انفاقه في مرضاته والتزود منه لمعاده فمحبة المال على هذا الوجه لاتذم ولمحبة الجاه مصرفا وهو استعماله في تنفيذ أوامره واقامة دينه ونصر المظلوم واغاثة الملهوف واعانة الضعيف وقمع اعداء الله فمحبة الرياسة والجاه على هذا الوجه عبادة وجعل لقوة اللعب واللهو مصرفا وهو لهوه مع امرأته اوبقوسه واسهمه اوتأديبه فرسه وكل ماأعان على الحق وجعل لقوة التحيل والمكر فيه مصرفا وهو التحيل على عدوه وعدو الله تعالى بأنواع التحيل حتى يراغمه ويرده خاسئا ويستعمل منه من انواع المكر مايستعمله عدوه معه وهكذا جميع القوى التي ركبت فيه مصرفا وهو التحيل على عدوه اعد اعدائه وقد ركبها الله فيه لمصالح اقتضتها حكمته ولايطلب تعطيلها وانما تصرف مجاريها من محل الى محل ومن موضع الى موضع ومن تأمل هذا الموضع وتفقه فيه علم شدة الحاجة اليه وعظم الانتفاع به

﴿ فصل ﴾ وجماع الطرق والابواب التي يصان منها القلب وجنوده اربعة فان ضبطها وعدلها وأصلح مجاريها وصرفها في محالها اللائقة بها وجوارحه ولم يشمت به عدوه وهي الحرص والشهوة والغضب والحسد فهذه الاربعة هي اصول مجامع طرق الشر والخير وكما هي طرق الى العذاب السرمدي فهي طرق الى النعيم الابدي فآدم أبو البشر صلى الله عليه وسلم أخرج من الجنة بالحرص ثم أدخل اليها بالحرص ولكن فرق بين حرصه الاول وحرصه

الثانى وأبو الجن أخرج منها بالحسد ثم لم يوفق لمنافسة وحسد بعده اليهاوقد قال النبى صلى الله عليه وسلم لاحسد الا فى اثنتين رجل آتاه الله مالا وسلطه على هلكته فى الحق ورجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وأطراف النهار وأما الغضب فهو غول العقل يغتاله كما يغتال الذئب الشاة وأعظم ما يفترسه الشيطان عند غضبه وشهوته واذا كان حرصه على ماينفعه وحسده منافسة فى الخير وغضبه لله على أعدائه وشهوته يستعملها فيما أبيح له وعونا له على ما أمر به لم تضره هذه الاربعة بل انتفع بها أعظم الانتفاع

﴿ فصل ﴾ واذا تأملت حال القلب مع الملك والشيطان رأيت أعجب العجائب فهذا يلم به مرة وهذا يلم به مرة فاذا ألم به الملك حدث من لمته الانفساح والانشراح والنور والرحمة والاخلاص والانابة ومحبة الله وايثاره على ماسواه وقصر الامل والتجافى عن دار البلاء والامتحان والغرور فلو دامت له تلك الحالة لكان فى أهنى عيش وألذه وأطيبه ولكن تأتيه لمة الشيطان فتحدث له من الضيق والظلمة والهم والغم والخوف والسخط على المقدور والشك فى الحق والحرص على الدنيا وعاجلها والغفلة عن الله ماهو من أعظم عذاب القلب ثم للناس فى هذه المحنة مراتب لايحصيها الا الله فمنهم من تكون لمة الملك أغلب من لمة الشيطان وأقوى فاذا ألم به الشيطان وجد من الالم والضيق والحصر وسوء الحال بحسب ما عنده من حياة القلب فيبادر الى تلك اللمة ولا يدعها تستحكم فيصعب تداركها فهو دائما بين اللمتين يدال مرة ويدال عليه مرة أخرى والعاقبة للتقوى ومنهم من تكون لمة الشيطان أغلب عليه وأقوى فلا يزال يغلب لمة الملك حتى تستحكم ويصير الحكم لها فيموت القلب ولا يحس ماناله الشيطان مع أنه فى غاية العذاب والضيق والحصر ولكن سكر الشهوة والغفلة حجب عنه الاحساس بذلك المعلم فاذا كشف امكنه تدارك هذه الدواء وحسمه وان عاد الغطاء عاد الامر كما كان حتى ينكشف عنه وقت المفارقة فتظهر حينئذ تلك الآلام والهموم والغموم والاحزان وهى لم تجدد له وانما كانت كامنة تواريها الشواغل فلما زالت الشواغل ظهر ما كان كامنا وتجدد له اضعافه

﴿ فصل ﴾ والشيطان يلم بالقلب لما كان هناك من جواذب تجذبه وهى نوطان صفات وارادات فاذا كانت الجواذب صفات قوى سلطانه هناك واستفحل امره ووجد موطنا ومقرا فتأبى الاذكار والدعوات والتعوذات كحديث النفس لاتدفع سلطان الشيطان لان مركبه صفة لازمة فاذا قلع العبد تلك الصفات وعمل على التطهر منها والاغتسال بقى للشيطان بالقلب خطرات ووساوس ولمات من غير استقرار وذلك يضعفه ويقوى لمة الملك فتأتى الاذكار والدعوات والتعوذات فتدفعه بأسهل شئ واذا أردت لذلك مثالا مطابقا فمثله مثل كلب جائع شديد الجوع وبينك وبينه لحم او خبز وهو يتأملك ويراك لاتقاومه وهو أقرب منك فانت تزجره وتصيح عليه وهو يأبى الا التحوم عليك والغارة على مابين يديك فالاذكار بمنزلة الصياح عليه والزجر له ولكن معلومه ومراده عندك وقد قربته عليك فاذا لم يكن بين يديك شئ يصلح له وقد تأملك قواك أقوى منه فانك تزجره ويصيح عليه فيذهب وكذلك القلب الخالى من قوة الشيطان ينزجر بمجرد الذكر واما القلب الذى فيه تلك الصفات التى هى مركبة وموطنة فيقع الذكر فى حواشيها وجوانبها ولايقوى على اخراج العدو ومصداق

ذلك بجده فى الصلاة وتأمل الحال وانظر هل تخرج الصلاة اذكارها وقراءتها الشيطان من قلبك وتفرغه كله لله تعالى بكليته وتقيمه بين يدى ربه مقبلا بكليته عليه يصلى لله تعالى كأنه يراه قد اجتمع همه كله على الله وصار ذكره ومراقبته ومحبته والانس به فى محل الخواطر والوساوس أم لا والله المستعان وههنا نكتة ينبغى التفطن لها وهى ان القلوب الممتلئة بالاخلاط الرديئة والعبادات والاذكار والتعوذات أدوية لتلك الاخلاط كما يثير الدواء اخلاط البدن فان كان قبل الدواء وبعده حمية لم يزد الدواء على اثارته وان أزال منه شيئا ما فدار الامر على شيئين الحمية واستعمال الادوية

﴿ فصل ﴾ وأول ما يطرق القلب الخطرة فان دفعها استراح مما بعدها وان لم يدفعها قويت فصارت وسوسة فكان دفعها أصعب فان بادر ودفعها والا قويت وصارت شهوة فان عالجها والا صارت ارادة فان عالجها والا صارت عزيمة ومتى وصلت الى هذه الحال لم يمكن دفعها واقترن بها الفعل ولابد وما يقدر عليه من مقدماته وحينئذ ينتقل العلاج الى أقوى الادوية وهو الاستفراغ التام بالتوبة النصوح ولاريب ان دفع مبادى هذا الداء من أوله وبين استفراغه بعد حصوله وساعد القدر وأعان التوفيق ان الدفع أولى به وان تألمت النفس بمفارقة المحبوب فليوازن بين فوات هذا المحبوب الاخس المنقطع النكد المشوب بالآلام والهموم وبين فوات المحبوب الاعظم الدائم الذى لانسبة لهذا المحبوب اليه ألبتة لا فى قدره ولا فى بقائه وليوازن بين ألم فوته وبين ألم فوت المحبوب الاخس وليوازن بين لذة الانابة والاقبال على الله تعالى والتنعم بحبه وذكره وطاعته ولذة الاقبال على الرذائل والانتان والقبائح وليوازن بين لذة الظفر بالذنب ولذة الظفر بالعدو وبين لذة الذنب ولذة العفة ولذة الذنب ولذة القوة وقهر العدو وبين لذة الذنب ولذة ارغام عدوه ورده خاسئا ذليلا وبين لذة الذنب ولذة الطاعة التى تحول بينه وبين مراده فوته ومراده فوت ثناء الله تعالى وملائكته عليه وفوت حسن جزائه وجزيل ثوابه وبين فرحة ادراكه وفرحة تركه لله تعالى عاجلا وفرحة ما يثيبه عليه فى دنياه وآخرته والله المستعان وهذا فصل جره الكلام فى قوله تعالى وفى أنفسكم أفلا تبصرون أشرنا اليه اشارة ولو استقصيناه لاستدعى عدة أسفار ولكن فيما ذكرناه تنبيه على ما تركناه وبالله التوفيق

﴿ فصل ﴾ ولنرجع الى المقصود ثم قال الله تعالى وفى السماء رزقكم وما توعدون أما الرزق ففسر بالمطر وفسر بالجنة وفسر برزق الدنيا والآخرة ولاريب ان المطر من الرحمة وان الجنة مستقر الرحمة فرزق الدارين فى السماء التى هى العلو وقوله تعالى وما توعدون قال عطاء رضى الله عنه من الثواب والعقاب وقال الكلبى من الخير والشر وقال مجاهد الجنة والنار وقال ابن سيرين من امر الساعة قلت كون الجنة والخير فى السماء فلا اشكال فيه وكون النار فى السماء وما يوعدون به اهلها يحتاج الى تبيين فاذا نظرت الى اسباب الخير والشر واسباب دخول الجنة والنار وافتراق الناس وانقسامهم الى شقى وسعيد وجدت ذلك كله بقضاء الله وقدره النازل من السماء وذلك كله مثبت فى السماء فى صحف الملائكة وفى اللوح المحفوظ قبل العمل وبعده فالامر كله من السماء وقول من قال أمر الساعة يكشف عن هذا المعنى

فان أمر الساعة يأتى من السماء وهو الموعود بهما فاجتمة والنار الغاية التى لاجلها قامت الساعة فصح كل ماقال السلف فى ذلك والله أعلم

﴿ فصل ﴾ ثم اقسم سبحانه أعظم قسم بأعظم مقسم به على أجل مقسم عليه واكد الاخبار بهذا القسم ثم أكده بتشبيهه بالامر المحقق الذى لايشك فيه ذو حاسة سليمة فقال فورب السماء والارض انه لحق مثل ما انكم تنطقون قال ابن عباس رضى الله عنهما يريد انه لحق واقع كما انكم تنطقون قال الفراء انه لحق كما ان الآدمى ناطق قال الزجاج هذا كما تقول فى الكلام ان هذا لحق كما أنك ههنا قلت وفى الحديث انه لحق كما انك ههنا فشبه سبحانه تحقيق ماأخبر به بتحقيق نطق الآدمى ووجوده والواحد منا يعرف انه ناطق ضرورة ولا يحتاج الى نطقه استدلال على وجوده ولا يخالجه شك فى أنه ناطق فكذلك ما أخبر الله عنه من أمر التوحيد والنبوة والمعاد واسمائه وصفاته حق ثابت فى نفس الامر يشبه بثبوت نطقكم ووجوده وهذا باب يعرفه الناس فى كلامهم يقول أحدهم هذا حق مثل الشمس وافصح الشاعر عن هذا بقوله

وليس يصح فى الاذهان شئ * اذا احتاج النهار الى دليل

وههنا أمر ينبغى التفطن له وهو أن الرب تعالى شهد بصحة ماأخبر به وهو اصدق الصادقين واقسم عليه وهو أبر المقسمين واكده بتشبيهه بالواقع الذى لايقبل الشك بوجه وأقام عليه من الادلة العيانية والبرهانية ماجعله معاينا مشاهدا بالبصائر وان لم يعاين بالابصار ومع ذلك فأكثر النفوس فى غفلة عنه لاتستعد له ولا تأخذ له أهبة والمستعد له الآخذ له اهبة لايعطيه حقه منهم الا الفرد بعد الفرد فأكثر الخلق لاينظرون فى المراد من ايجادهم واخراجهم الى هذه الدار ولا يتفكرون فى قلة مقامهم فى دار الغرور ولا فى رحيلهم وانتقالهم عنها ولا الى أين يرحلون وأين يستقرون قد ملكهم الحس وقل نصيبهم من العقل وشملتهم الغفلة وغرتهم الامانى التى هى كالسراب وخدعهم طول الامل وكأن المقيم لايرحل وكأن أحدهم لايبعث ولا يسئل وكأن مع كل مقيم توقيع من الله لفلان ابن فلان بالامان من عذابه والفوز بجزيل ثوابه فأما ق اللذات الحسية والشهوات النفسية كيفما حصلت حصلوها من أى وجه لاحت أخذوها غافلين عن المطالبة آمنين من العاقبة يسعون لمايدركون ويتركون ماهم به مطالبون ويعمرون ماهم عنه منتقلون ويخربون ماهم اليه صائرون وهم عن الآخرة هم غافلون ألهتهم شهوات نفوسهم فلا ينظرون فى مصالحها ولا يأخذون فى جمع زادها فى سفرها نسوا الله فأنساهم انفسهم اولئك هم الفاسقون والعجب كل العجب من غفلة من تعد عليه لحظاته وتحصى عليه انفاسه ومطايا الليل والنهار تسرع به ولا يتفكر الى اين يحمل ولا الى اى منزل ينقل

وكيف تنام العين وهى قريرة * ولم تدر فى أى المحلين تنزل

واذا نزل بأحدهم الموت قلق لخراب ذاته وذهاب لذاته لالماسبق من جناياته ولا لسوء منقلبه بعد مماته فان خطرت على أحدهم خطرة من ذلك اعتمد العفو أو الرحمة وكان يتيقن أن ذلك نصيبه ولا بد فلو أن العاقل احضر ذهنه مااستحضر عقله وسار بفكره وأمعن النظر وتأمل الآيات لفهم المراد من ايجاده ولنظرت عين الراحل الى الطريق ولاخذ المسافر فى التزود والمريض فى

التداوى والحازم بعدما يجوز أن يأتى فالظن بأمر متيقن كأنه لصدق ايمانهم وقوة ايقانهم وكأنهم يعاينون الامر فاضحت ربوع الايمان من أهلها خالية ومعالمه على عروشها خاوية قال ابن وهب اخبرنى مسلم بن على عن الاوزاعى قال كان السلف اذا صدع الفجر أو قبله كأنما على رؤسهم الطير مقبلين على أنفسهم حتى لو أن حبيبا لاحدهم غاب عنه حينا ثم قدم لما التفت اليه فلا يزالون كذلك الى طلوع الشمس ثم يقوم بعضهم الى بعض فيتحلقون بأول مايفتضون فيه أمر معادهم وماهم صائرون اليه ثم يأخذون فى الفقه

❁ فصل ومن ذلك قوله تعالى ق ❁ والقرآن المجيد بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شئ عجيب الصحيح أن ق ون وص بمنزلة حم والم وطس تلك حروف مقدرة وهذه متعددة وقد تقدمت الاشارة الى بعض مايها قبل وههنا قد اتحد المقسم به والمقسم عليه وهو القرآن فأقسم بالقرآن على ثبوته وصدقه وأنه حق من عنده ولذلك حذف الجواب ولم يصرح به لما فى القسم من الدلالة عليه أولان المقصود نفس المقسم به كما تقدم بيانه ثم أخذ سبحانه فى بيان عجب الكفار من غير عجيب بل هالا ينبغى أن يقع سواه كما قال سبحانه الر تلك آيات الكتاب الحكيم أكان للناس عجبا أن أوحينا الى رجل منهم ان أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم فأى عجب من هذا حتى يقول الكافرون ان هذا لسحر مبين وكيف يتعجب من رحمة الخالق عباده وهدايته وانعامه عليهم بتعريفهم على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم بطريق الخير والشر وماهم صائرون اليه بعد الموت وأمرهم ونهيهم حتى يقابل ذلك بالتعجب ونسبة ماجاء به الى السحر لولا غاية الجهل والظلم بالعجب كل العجب قولهم وتكذيبهم كما قال تعالى وان تعجب فعجب قولهم

❁ فصل ❁ ومن ذلك حم والكتاب المبين وقوله ص والقرآن ذى الذكر وقوله يس والقرآن الحكيم انك لمن المرسلين والصحيح ان يس بمنزلة حم والم ليست اسما من اسماء النبى صلى الله عليه وسلم واقسم سبحانه بكتابه على صدق رسوله وصحة نبوته ورسالته فتأمل ظهر المقسم به والمقسم عليه وقوله تعالى على صراط مستقيم وجوز فيه ثلاثة ان يكون خبرا بعد خبر فأخبر عنه بأنه رسوله وأنه على صراط مستقيم وان يكون متعلقا بالخبر نفسه أى المعمول بعامله أى أرسلت على صراط وهذا يحتاج الى بيان تقديره المجعولين على صراط مستقيم وكونه من المرسلين مستلزم لذلك فاستغنى عن ذكره

❁ فصل ❁ ومن ذلك قوله تعالى والصافات صفا اقسم سبحانه بالملائكة الصافات للعبودية بين يديه كما قال النبى صلى الله عليه وسلم لاصحابه ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها تقفون الاول وتراصون فى الصف وكما قالوا عن أنفسهم وأنا لنحن الصافون والملائكة الصافات اجنحتها فى الهواء والزاجرات الملائكة التى تزجر السحاب وغيره بأمر الله فالتاليات التى تتلو لكلام الله وقيل الصافات الطير كما قال تعالى أولم يروا الى الطير فوقهم صافات ويقبضن وقال تعالى والطير صافات والزاجرات الآيات والكلمات الزاجرات عن معاصى الله والتاليات الجامعات لكتاب الله تعالى وقيل الصافات للقتال فى سبيله فالزجر الخيل للحمل على اعدائه فالتاليات الذاكرين له عند ملاقاة عدوهم وقيل

الجامعات الصافات أبدانها في الصلاة الزاجرات انفسها عن معاصي الله فالتا ليات آياته والفظ يحتمل ذلك كله وان كان احق من دخل فيه واول الملائكة فان الاقسام كالدليل والآية على صحة ما قسم عليه من التوحيد وما ذكر غير الملائكة فهو من آثار الملائكة وبواسطتها كان واقسم سبحانه بذلك على توحيد ربوبيته والهيته وقرر توحيد ربوبيته فقال ان الهكم لواحد رب السموات والارض ومابينهما ورب المشارق من أعظم الادلة على انه اله واحد ولوكان معه اله آخر لكان الاله مشاركاله في ربوبيته كما شاركه في الهيته تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا وهذه قاعدة القرآن يقرر توحيد الالهية بتوحيد الربوبية فيقرر كونه معبودا وحده بكونه خالقا رازقا وحده وخص المشارق ههنا بالذكر اماالدلالتها على المغارب اذالامران المتضايفان كل منهما يستلزم الآخر واما لكون المشارق مطلع الكواكب ومظاهر الانوار وأما توطئة ما ذكر بعدها من تزيين السماء بزينة الكواكب وجعلها حفظا من كل شيطان فذكر المشارق انسب بهذا المعنى وأليق والله تعالى أعلم

❊ فصل ❊ ومن ذلك قوله في قصة لوط عليه السلام ومراجعته قومه له قالوا أولم ننهك عن العالمين قال هؤلاء بناتي ان كنتم فاعلين لعمرك انهم لفي سكرتهم يعمهون أكثر المفسرين من السلف والخلف بل لا يعرف السلف فيه نزاعا ان هذا قسم من الله بحياة رسوله صلى الله عليه وسلم وهذا من أعظم فضائله أن يقسم الرب عزوجل بحياته وهذه مزية لا تعرف لغيره ولم يوافق الزمخشري لذلك فصرف القسم الى انه بحياة لوط وانه من قول الملائكة فقال هو على ارادة القول أي قالت الملائكة للوط عليه الصلاة والسلام لعمرك انهم لفي سكرتهم يعمهون وليس في اللفظ مايدل على واحد من الامرين بل ظاهر اللفظ وسياقه انما يدل على مافهمه السلف أطيب لاهل التعطيل والاعتزال قال ابن عباس رضي الله عنهما لعمرك اي وحياتك قال وما أقسم الله تعالى بحياة نبي غيره والعمر والعمر واحد لانهم خصوا القسم بالمفتوح لاثبات الاخف لكثرة دوران الحلف على ألسنتهم وايضا فان العمر حياة مخصوصة فهو عمر شريف عظيم أهل ان يقسم لمزيته على كل عمر من أعمار بني آدم ولا ريب ان عمره وحياته من أعظم النعم والآيات فهو اهل ان يقسم به والقسم به اولى من القسم بغيره من المخلوقات وقوله تعالى يعمهون اي يحيرون وانما وصف الله سبحانه اللوطية بالسكرة لان العشق سكره مثل سكرة الخمر وأنشد كما قال القائل

سكران سكر هوى وسكر مدامة ❊ ومتى افاقة من به سكران

❊ فصل ❊ ومن ذلك قوله تعالى فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما اقسم سبحانه بنفسه المقدسة قسما مؤكدا بالنفي قبله على عدم ايمان الخلق حتى يحكموا رسوله في كل ماشجر بينهم من الاصول والفروع واحكام الشرع واحكام المعاد وسائر الصفات وغيرها ولم يثبت لهم الايمان بمجرد هذا التحكيم حتى ينتفي عنهم الحرج وهو ضيق الصدر وتنشرح صدورهم لحكمه كل الانشراح وتنفسح له كل الانفساح وتقبله كل القبول ولم يثبت لهم الايمان بذلك ايضا حتى ينضاف اليه مقابلة حكمه بالرضى والتسليم وعدم المنازعة وانتفاء المعارضة والاعتراض فهنا قد يحكم الرجل

غيره وعنده حرج من حكمه ولا يلزم من انتفاء الحرج الرضا والتسليم فلا يلزم من التحكيم انتفاء الحرج اذقد يحكم الرجل غيره وعنده حرج من حكمه ولا يلزم من انتفاء الحرج الرضا والتسليم والانقياد اذقد يحكمه وينتفى الحرج عنه فى تحكيمه ولكن لا ينقاد قلبه ولا يرضى كل الرضى بحكمه والتسليم أخص من انتفاء الحرج فالحرج مانع والتسليم امر وجودى ولا يلزم من انتفاء الحرج حصوله بمجرد انتفائه اذقد ينتفى الحرج ويبقى القلب فارغا منه ومن الرضى والتسليم فتأمله وعندهذا يعلم ان الرب تبارك وتعالى اقسم على انتفاء ايمان اكثر الخلق وعند الامتحان تعلم مثل هذه الامور الثلاثة موجودة فى قلب اكثر من يدعى الاسلام ام لا والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم آخره وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا الى يوم الدين والحمد لله رب العالمين

﴿ يقول الراجى من ربه حصول الامانى عبد الحميد الفردوسى المكى الافغانى غفر الله له ﴾
﴿ ولوالديه والمسلمين وأحسن اليهما واليه والمحسنين ﴾

قدتم بحمد الله الرحمن طبع كتاب التبيان فى أقسام القرآن تأليف العلامة الحبر البحر الفهامة صاحب التآليف العديده والتقارير المفيده شمس الدين محمد بن ابى بكر الدمشقى الحنبلى الشهير بابن قيم الجوزيه وهو لعمرى كتاب مفيد حرى بالطبع ليم نفعه كل مستفيد فى المطبعة الميريه الكائنة بمكة المحميه فى ظل السلطان المعظم والخاقان المفخم السلطان ابن السلطان الملك المظفر المعان المحفوظ بالقرآن العظيم والسبع المثانى مولانا السلطان الغازى ﴿ عبد الحميد ﴾ خان الثانى اللهم انصره نصرا تعز به الدين وتجز به وعدو كان حقا علينا نصر المؤمنين واحفظ اشباله الكرام ووفق عماله ووزراءه وعلماءه العظام لكل خير آمين بجاه النبى الامين وصلى الله عليه وعلى آله وصحبه اجمعين والتابعين لهم باحسان الى يوم الدين وكان ختام الطبع فى الثالث
من شهر جمادى الاولى من عام الواحد والعشرين والثلثمائة والالف
من هجرة من خلقه الله على اكمل وصف صلى الله عليه
وعلى آله ماطاف بالبيت العتيق طائف
ووقف بعرفة واقف
آمين



فهرست كتاب التبيان فى أقسام القرآن

